CYRIL OF ALEXANDRIA

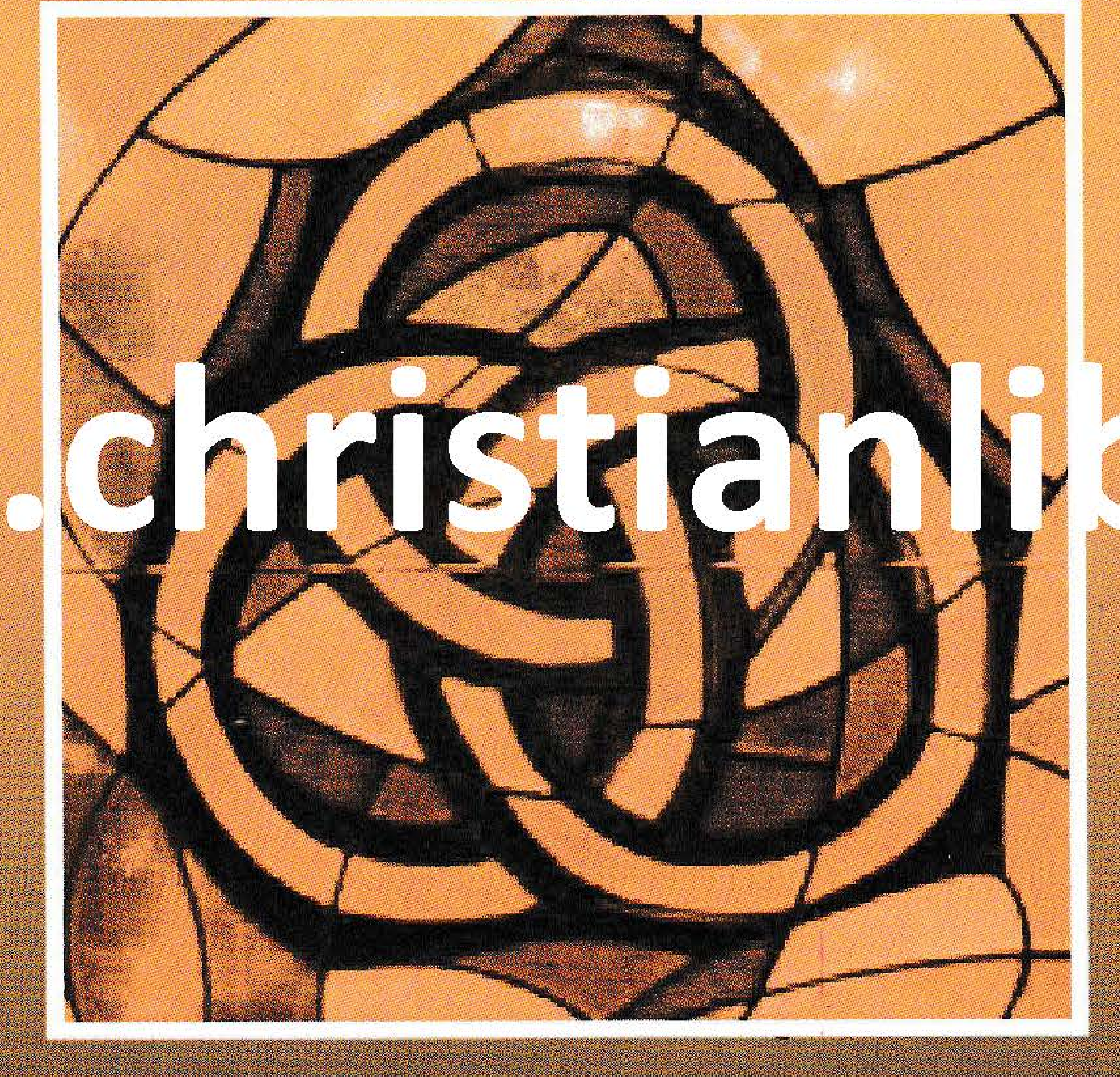


الأسس اللاهوتية للتعليم عن:

الثالوث

في كتاب الكنوز

للقديس كيرلس الأسكندري



دكتور جورج عوض إبراهيم

الأسس اللاهوتية للتعليم عن:

الثالوث

في كتاب الكنوز

للقديس كيرلس الأسكندري

دكتور جورج عوض إبراهيم

الكتاب : الأُسس اللاهوتية للتعليم عن الثالوث الآب والابن والروح القدس
عند القديس كيرلس الأسكندري في كتابه الكنوز في الثالوث

المؤلف : دكتور جورج عوض إبراهيم

الناشر : دكتور جورج عوض إبراهيم

تصميم الغلاف
فصل الألوان : جذور - ٢٦٣٣٨١٣٧

اسم المطبعة : جي سي سنتر - ١٤ محمود حافظ ميدان سفير. مصر الجديدة.

رقم الإيداع : ٢٠١٣/٢١٣٥٣



القديس كيرلس الأسكندري

(عمود الدين)





قداسة البابا تواضروس الثاني

بابا الأسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية



المحتويات

القسم الثاني

القسم الثالث

خاتمة

مقدمة عامة

هل من ضرورة للآباء ؟

يتسائل البعض عن جدوى الآباء وأهمية تعليمهم على أساس أن لدينا الكتاب المقدس الذي يحوي رسالة الله لنا، ألا تكفي رسالة الله لنا والواضحة في الكتاب المقدس ؟!

ألا يحتوي الكتاب المقدس على رسالة الخلاص كاملة ؟!

لماذا نضع التراث الآبائي حاجزاً بيننا وبين الكتاب المقدس ؟!

أليس الكتاب المقدس وحده يكفي ؟!

كل هذه التساؤلات مشروعة لكن لن نجيب عليها ما لم نعرف أولاً ماذا نقصد بالآباء ؟ ومن هم الآباء المعلمين ؟ وما الذي كتبه الآباء ؟ ولماذا كتبوا ؟ وكيف كتبوا ؟ وما علاقة ما كتبوه بالكتاب المقدس ؟

مصطلح أب ومعلم[1]: ΠΑΤΗΡ ΚΑΙ ΔΙΔΑΣΚΑΛΟΣ

تُميز الكنيسة عدد من الآباء وتدعوهم آباء معلمون.

يتمتع الأب المعلم بأداء مهمتين عظيمتين ولأجل ذلك له المكانة الأولى في نظر الكنيسة. هاتان المهمتان هما:

المهمة الرعوية: إذ يلد أبناء مؤمنين ويحرص علي رعايتهم وإرشادهم ويربطهم بيسوع المخلص بواسطة الروح القدس. هذا الراعي يكرز بالإنجيل ويتمم أسرار الكنيسة ولذلك يُدعي "**أب**".

---

[1] أنظر من المراجع الأساسية :
Στυλιανοῦ. Γ. Παπα δοπουλου πατρολογὶα Α῾, Αθῆνα 1991, σελ. 2-79 .

المهمة التعليمية: هذا الأب لديه موهبة خاصة وإمتياز خاص ومسئولية خاصة بمقتضاها يعلم ويفسر للمؤمنين الحقائق الإلهية، وكذلك يتصدي للمسائل التعليمية الكبيرة وإدعاءات الهراطقة ضد إيمان الكنيسة.

هكذا الآباء الذين كان لديهم هاتين المهمتين: مهمة الراعي ومهمة المعلم سُموا آباء ومعلمون. نجد الأهمية العظمى التي نسبتها الكنيسة للأب الروحي فيما قاله بولس الرسول: "كأولادي الأحباء أنذركم. لأنه وإن كان لكم ربوات من المرشدين في المسيح لكن ليس أباء كثيرون. لأني أنا ولدتكم في المسيح يسوع بالإنجيل فأطلب إليكم أن تكونوا متمثلين بي" (١كو٤: ١٤- ١٦).

ويقول القديس إيرينيوس أسقف ليون في القرن الثاني:

"حينما يتعلم شخص من فم شخص آخر فأنه يُسمى أبنًا للذي علمه والذي علمه يُدعي أباه" (ضد الهرطقات٤: ٤١: ٢).

وكذلك يقول العلامة كليمنضدس الأسكندري (١٥٠-٢١٠):

"الكلمات هي ذرية النفس. ولذلك فأننا ندعو الذين علمونا، آباء لنا ... وكل مَنْ يتعلم هو من جهة الخضوع ابن لمعلمه" (المتفرقات ١:١، ٢-٢:١).

هكذا آباء الكنيسة المعلمون هم الآباء الذين كانوا مقبولين من قِبل الكنيسة كمعلمين حافظوا علي الإيمان المستقيم، وساهموا في صياغة هذا الإيمان، ودافعوا عنه ضد الهراطقة وكان لهم إجماع واحد وفكر واحد من جهة الشركة والإيمان المستقيم.

إذن آباء الكنيسة المعلمون هم مُعلّمِو العقيدة وهم الذين ساهموا في تحديد مضمون الإيمان وصياغته وشرحه وأجمعت عليه الكنيسة في مجامعها المسكونية حتى المجمع المسكوني الثالث في أفسس في القرن الخامس.

ومن الجدير بالملاحظة أن ما قلناه عن "الأب المعلم" لا يقلل من أباء الكنيسة العظماء الذين بعملهم الروحي والنسكي تقدسوا وصاروا نماذج منيرة .

هؤلاء الآباء النُساك صاروا معاينين للمجد الإلهي إذ عاشوا الحق الإلهي، وتركوا لنا خبرات روحية عظيمة ومفيدة، علي سبيل المثال القديس أنطونيوس الكبير والقديس مقاريوس الكبير والقديس باخوميوس وغيرهم من آباء الكنيسة العظام.

أيضا التمييز الحادث بين الآباء المعلمين وما ندعوهم الكتاب الكنسيين لا يرجع إلي أفضلية الواحد عن الأخر في القداسة، فآباء الكنيسة وبشكل عام الكُتَابْ الكنسيين ليسوا أقل قداسة من الآباء المعلمين. لكن ببساطة التمييز يرجع إلي أن الآباء المعلمين كانت لديهم موهبة الأبوة وموهبة التعليم. بالتالي لا يستطيع أحد أن يزعم بأن ما قام به الآباء المعلمين ليس له أهمية لنا ، فهم كانوا رعاة ومعلمين وعلينا ان نتعرف على أسلوبهم وتصرفهم الراعوي وكذلك على تعاليمهم وتفاسيرهم لكي نسير على دربهم ونكون إمتداداً لهم بدون ان نكون مقلدين لهم بطريق آلية بل التمثل بالآباء لا يصادر أي محاولات تعليمية من جانبنا طالما أنها لا تخرج هذه المحاولات عن أساسيات الإيمان المسلم مرةً للقديسين.وعلينا أن نتعرف على عمل الآباء ودوافع هذا العمل لكي نتيقن من أهمية أعمالهم بالنسبة لنا.

عمل الآباء والكُتاب الكنسيين ودوافع هذا العمل:

الضرورات التي جعلت الآباء والكُتاب الكنسيين يكتبون أعمالهم التعليمية كما أوردها أستاذ الآبائيات ستليانوس بابا دوبلوس هي:

الكرازة أو الوعظ:

لقد مارس هؤلاء الكُتاب الكنسيين عملهم التعليمي بأشكال متنوعة بحسب ما تقتضيه الضرورة:

١- شرحوا كلمة الله.

٢- أوضحوا أهمية شخص المسيح وعمله الفدائي لأجل البشر.

٣- ركزوا على العمل التقديسي والإستناري للروح القدس.

٤- كانوا يفسرون الكتب المقدسة حتى يعرف المؤمنين الحق ويتقدمون روحيًا.

إظهار الحقيقة والتصدي للهرطقات :

لقد تصدي كُتاب الكنيسة للآراء الخاطئة التي كانت بمثابة عائق في سبيل تقدم المؤمنين، وكانت تُمثل أيضًا خطرًا علي خلاصهم وبالحري لأن الهراطقة إحتكموا إلى الكتاب المقدس وآياته مفسرينها بشكل مغاير عن تفسير الكنيسة. لذا فآراء الهراطقة لم تكن تعبر عن الحقائق الإلهية بل عن حقائق خيالية وغير كافية وبالطبع هذه الحقائق الخيالية المريضة لا تخلص.

لقد تحقق هؤلاء الآباء من هذا الخطر الرهيب وعكفوا علي التصدي له. هؤلاء الآباء عاشوا أولاً الاختبار العملي والحقيقي للتعاليم الإلهية محاولين إظهار الحق الإلهي في مقابل التفسيرات الخاطئة للهراطقة.

التعبير عن خبرتهم الروحية:

إن أعضاء الكنيسة الذين كان لديهم خبرات إلهية سامية ونادرة بفضل عمل الروح القدس فيهم قد شعروا بضرورة وصف هذه الخبرات الإلهية، وبالحري التعاليم الإلهية التي أتبعوها وعاشوا بها هذه الخبرات وهكذا لدينا نصوص الآباء النُساك. وهذه الأعمال النسكية أظهرت أن التعاليم اللاهوتية المستقيمة كبناء لحياتنا الروحية يمكنها أن تتسع وتمتد بدون وجود صراعات لاهوتية وانشغال بالكتابات الدفاعية.

العبادة والتمجيد:

العبادة كانت الانشغال الأول لأعضاء الكنيسة وكذلك تتميم الإفخارستيا وبقية الأسرار. هكذا لدينا النصوص الليتورجية ونصوص صلوات الأسرار. لقد عاش المؤمنين في المسيح بحماس وعبروا بغيرة عن إيمانهم بشكل شعري جميل، وهكذا بين أيدينا تسابيح غنية في الكنيسة، بالإضافة إلي الطِلبات والتوسلات ومدائح القديسين ونصوص تعليمية تُقرأ أثناء العبادة.

حفظ الذاكرة:

نميز في مجال الكتابات المسيحية أعمال كثيرة قيّمة لها صفة تاريخية أو قصصية، **مثل الأعمال التاريخية الكنسية والسينكسار ونصوص الشهداء، وحياة القديسين ورسائلهم وكتاباتهم**، هذه النصوص تحفظ للكنيسة ذكري الأحداث الهامة وكذلك، الشخصيات المهمة التي عاشت في العصور السابقة.

ومن الواضح، احتياج الكنيسة للذاكرة وعلينا أن نُميز بينها وبين الاحتياج لبناء المؤمنين بواسطة هذه الذاكرة.

الآباء صاغوا التعاليم الإيمانية بواسطة استنارة الروح القدس :

إن عمل الآباء المعلمين قد تم بواسطة فعل ونعمة خاصة من الروح القدس في أوقاته المناسبة والضرورية. **لذلك تعطي الكنيسة لهذا العمل أهمية كبيرة** مثل الأهمية التي تعطيها للكتاب المقدس. يُعبر دائمًا في نصوص الآباء عن اليقين الداخلي بأن المدخل إلي الحقيقة، والإنقياد والصعود ناحية الحقيقة، يصير فقط بمعونة أو استنارة الروح القدس.

هذا اليقين الذي للكنيسة عن عمل الروح القدس في كتابات الآباء اللاهوتية قد عُبرِ عنه في المجامع المسكونية، وبالتالي فإن هذا اليقين ليس مرجعه آراء شخصية بل إيمان الكنيسة المسلم مرة للقديسين. وطالما أن كتابات الآباء المعلمين العقيدية هي نتاج عمل الروح القدس فيهم ، إذن علينا أن نقدر أهميتها بالنسبة لنا.

لقد كان القديس **أغناطيوس الأنطاكي** واضحًا بخصوص هذا الموضوع إذ كتب في رسالته الي أفسس:

"إذا أهلني يسوع المسيح بصلواتك، وإذا أراد الله، فسأتابع في رسالتي الصغيرة الثانية، التي أنوي كتابتها لكم شرح ما بدأته عن مخطط الله المتعلق بالإنسان الجديد، يسوع المسيح، بالإيمان به بمحبته بآلامه بقيامته، خصوصًا إذا كان السيد يكشف لي ذلك. فإذا كنتم جميعكم تجتمعون كواحد، متشددين بنعمته وبالإيمان الواحد

يسوع المسيح ابن داود حسب الجسد، ابن الإنسان وابن الله فأنكم متحدون قلبيًا بطاعة غير مزعزعة للأسقف والكهنة". فصل ٢٠

هكذا لا يستطيع أحد أن يكتب شيئًا عن شخص المسيح أكثر مما قيل إن لم ينقاد بروح الله، أو إن لم يكشف له الله نفسه بحسب تعبير القديس أغناطيوس عن مزيد من التوضيح والشرح اللازم لفهم التعليم. طبعًا هذه الحالة نادرة جدًا في الكتابات المسيحية.

هذه الكتابات الآبائية لها أهمية عُظمي في مسيرة الإيمان المستقيم إذ أن كتابات الآباء المعلمين هي بمثابة محطات عظيمة في هذه المسيرة **إذ أن محتوى هذه الكتابات يرجع إلي الاستنارة الإلهية وتمثل نواة التعاليم اللاهوتية التي التفت حولها كل الكتابات الكنسية.** هذا التقليد الإيماني السليم نُقل بفضل أولئك الذين تمتعوا بالنعمة الإلهية وعاشوا في الكنيسة وسُلم من جيل إلي جيل. وهذا ما أطلق عليه إيرينيوس "قوة التقليد" (ضد الهرطقات AX2).

إن آباء الكنيسة ومعلميها هم هؤلاء الأشخاص الذين تعلن بواسطتهم تلك الحقائق، بمعنى أنهم يُستخدمون بواسطة الله لنمو الكنيسة في التعليم والعقيدة كما يعلق القديس يوحنا ذهبي الفم: [ونحن نحب بالحق نحب الله كما نحب القريب وليس لدينا عقيدة كاذبة ولا نعيش في نفاق، فإننا ننمى كل شيء لدينا وننمو في كل حياتنا].[1]

أهمية كتابات الآباء بالنسبة لنا:

أهمية الآباء لعصرنا – كما يقول أستاذ الآبائيات ستليانوس بابا دوبلوس - ليست هي واضحة لان البعض يفترض كيف أن تقدمه الآباء اللاهوتية هي متضمنة في تقليد الكنيسة. بالتالي تعليم وتدبير الآباء هو تعليمنا وتدبيرنا أو علي الأقل ينبغي أن يكون. وإذا كان علينا معرفة تعليم الآباء علينا اللجوء إلي كتاب العقيدة لكي نعرف بدون مجهود معلومات عن التعليم الأبائي منظم وموسع بطريقة شاملة.

١- ذهبي الفم في شرحه لرسالة أفسس PG 124.1088D-1089 A.

لكن الأمر ليس بهذه السهولة.

فالسبب الأول لأهمية الآباء لنا ، بحسب رأي ستليانوس بابا دوبلوس، ليس لأجل أن نعرف مَنْ كانوا؟ وما هي تعاليمهم؟ لكن أن نذوق مناخهم الروحي. أن نتحسس آثار الروح القدس في شخصياتهم المقدسة. أن نضع أصبعنا علي صراعهم من أجل الحق. أن نحيا شيئًا من خبراتهم الإلهية، من رؤياهم من أفراحهم من أحزانهم من اختطافاتهم من العالم إلي السماء. نتتبع إيمانهم وثقتهم العميقة في الروح القدس.

ونندهش من شجاعة الآباء علي نحت مصطلحات جديدة في مجال التعالم اللاهوتية. لنتعلم أهمية نمو واتساع التعليم في تقليدنا. لنعرف كم كانوا دمثي الخُلق وكرماء وذو حس رقيق ومشاعر نبيلة. إذن لنتحسس مسيرة الآباء الشخصية لكي نتعرف علي حضور وعمل الروح القدس في العالم. والحقيقة التي يظهرها الروح القدس من خلال شخصيات الآباء في الساعة التي فيها يصارعون، ويدافعون عن إيمان الكنيسة بتعضيد من نعمة خاصة مصدرها الروح القدس نفسه ولكي يصير المرء حامل حقيقي للإيمان المسَلم مرة للقديسين، لابد أن يكون قد تذوق وتحسس وعانى وأختبر الخبرات الآبائية وصراعهم، وصار شاهدًا أمينًا لما كتبوه. هكذا سوف يتعلم التعليم المقدس والأصيل لكي يمارسه ويواجه به مشكلاته المعاصرة. أيضًا نصوص الآباء تمثل عالم يجب أن نعرفه لكي نتتبع مسيرة تاريخ الفكر الإنساني ، فكل العلماء ذودوا علمهم بما وجدوه في كتابات الآباء: المادة التاريخية، الأفكار الفلسفية، اللغات المتنوعة، المعلومات الاجتماعية، عادات الشعوب وأفكارهم. طبعًا الفائدة الكبرى لنصوص الآباء هي فيما يخص التاريخ الكنسي وحياة الكنيسة وتعاليمها.

تحديد مصطلح أب ومعلم، وملامح هذا التحديد:

أب ومعلم الكنيسة هو حامل لتقليد الكنيسة وتدبيرها- الذي بدافع أزمة تعليمية لاهوتية- أُنير بواسطة الروح القدس وعَّبر لاهوتيًا عن الخبرة المتسعة للحق الإلهي. والنتيجة أنه سآهم مساهمة حاسمة في مواجهة الأزمة التي تخص الحق الإلهي وبالتالي الخلاص. وبإيجاز: الأب المعلم هو حامل لتقليد الكنيسة وباستنارة الروح القدس عَّبر عن الخبرة المتسعة للحق بهدف مواجهة أزمة ما في الكنيسة.

من هذا التحديد الوصفي تبدوا الملامح الأساسية للأب المعلم، والتي هي الآتي:

أ - تجسيد تقليد الكنيسة وتدبيرها لاهوتيًا أو تعليميًا.

ب – استنارة الروح القدس للتعبير لاهوتيًا عن خبرة الحق بأتساع وشمول،تلك الخبرة التي أُعلنت في التقليد (الكتاب المقدس وكل التعاليم اللاهوتية الآبائية السابقة له).

ج- المساهمة الفعالة في تخطي أزمة لاهوتية،أزعجت في عصر معين الكنيسة، لأنها تخص الحق وبالتالي الخلاص. كل الُكتَّاب الذين لا تتوفر فيهم هذه الملامح الثلاثة هم بالطبع آباء الكنيسة أو كُتاب كنسيين جديرين لكن ليسوا آباء معلمون.

هل يمكننا الوثوق في الآباء ؟

ما هي المواصفات التي تجعل المرء أباً، ولماذا نستغرق الوقت في قراءهم؟

يتسائل كريستوفر هول[١]، نيابة عن الرافضين للآباء، قائلاً:

ألم يكونوا كلهم مغالين في الرمزية؟

هل يفهمون كلهم الإنجيل أم أن خلفياتهم اليونانية والرومانية تسببت في تشويه إدراكهم للإنجيل؟!

هل يمكن أن يضلنا الآباء؟!

هل قرأوا الكتاب المقدس قراءة جيدة؟ أم أن مناطق ثقافتهم وتدينهم العمياء أعاقتهم عن الفهم الصحيح للإنجيل؟

إن البعض من المسيحيين يشكون شكاً عميقاً بأن سوء سلوكيات واستخدامات الكاثوليكية الغربية المتأخرة من العصور الوسطى قد وجدت بذارها في أفكار الآباء أنفسهم، ألم يسأل مارتن لوثر نفسه "ما الخير في اعتمادنا على الآباء الأوائل الموقرين، الذين استحسناهم طوال هذه القرون الطويلة"[٢]. ومع هذا فإن لوثر نفسه الذي يبدو مستعداً لنبذ الآباء نجد أنه باستمرار يتفاعل معهم من خلال عملة، معتمداً بشكل خاص على رؤى أغسطينوس. وربما كُنا أكثر أمانة للوثر إذا ما فحصنا بدقة منهجة في قراءة الكتاب مع الآباء. ولا يبدو متحمساً لنقدهم حين يشعر أنهم مخطئون. ورغم أن لوثر ينصت باهتمام إلى أصواتهم ويمدحهم حين يشعر أنهم يفسرون الكتاب بشكل صحيح[٣].

إن شعار "الكتاب والكتاب وحده هو الحل" هو إذاً التأكيد الصريح والإقرار المباشر مثلما يصر أنطواني لين Anthony Lawne على ذلك بقوله "يمكن

1- Christopher A. Hall, Reading Scripture With the Church Fathers, Intervarsity Press, P. 12 -14.

2- Martin Luther, the Bondage of Will, in Martin Luther`s Basic theological Writings,ed timothy F. Lull (Minneapolis: Fotress, 1989), P. 200.

3- Christopher A. Hall, P. 12.

للكنيسة أن تخطئ"[1]. لكن الآباء أنفسهم أصرّوا على أن تلجأ الكنيسة إلى الكتاب وفي نفس الوقت فإن شعار الكتاب هو الحل لم يعني أبداً أنه المصدر الوحيد الذي يحتاجه المسيحيين لفهم كلمة الله مع الروح القدس، نقول لفهم الله ولا ندعي بأن الكتاب المقدس ليس به رسالة الخلاص كاملة وكافية. إن الإصلاحيين بالحري مثل لوثر وكالفن قد اعتبروا بحكمة أن التاريخ والمجامع وقوانينها والتقليد الكنسي، شاملاً كتابات الآباء هي مصدر غني لا نستطيع أن نتجاهله[2].

غياب أو فقدان الذاكرة

يزعم روبرت ويلكن Robert Wilken وبشكل مقنع أن كثيراً من اللاهوتيين المحدثين وكذلك من المسيحيين المعاصرين يجدون أنفسهم بلا جذور محملين بثقل من فضاء دنيوي (علماني)، وكنسي، أساساً لأنهم قد نسوا ماضيهم المسيحي[3]. إن العقل الحديث، هكذا يظن ويلكن قد فَقَدَ أي حِس بالالتزام للماضي، وعوضاً عن هذا الالتزام نجد كثيراً من المفكرين المعاصرين قد تعمدوا تضييق الخناق على اعتمادهم على أفكار الماضي وتقاليده. واختاروا أن يستعينوا بآراء تصدر عن انعكاس تلقائي ذاتي كقلب وعمق العقلانية. فالمرء يكتشف الحقيقة فقط بتعمده الانفصال بنفسه عن غاية المعرفة. وبالنسبة للمسيحي المعاصر، فإن ويلكن يزعم، أن هذا الموقف العقلي التلقائي قد أفرغ شكاً شديداً في التقليد.

الهروب من التقليد

يزعم روبرت ويلكن أن الشك المبالغ فيه لدى تابعي مذهب الاستنارة حول التقليد قد أدى إلى ذلك العجز المثير الحديث، لقبول ما جاء قبله بشئ من العرفان

1- Anthony N. S. Lane, " sola Scriptura? Making sense of a Post – Reformation Slogan", in A pathway into the Holy Scripture, (Grand Rapids, Mich: Eerdmans, 1994), P. 324. Christopher A. Hall, P. 13.

2- Anthony N. S. Lane, Calvin`s interaction With the Church Fathers in his discussion of the Trinity: John Calvin, Institutes of the Christion Religion (Philadlphia: Westminster press, 1975), P. 158 (1014.29), Christopher A. Hall, P.14.

3- Robert L. Wilkon, Remembering the Christian Post (Grand Rapids, Mich.: Eerdmans, 1995), Christopher A. Hall, P. 14.

وأيضاً ما تم باسمه، وهو يذكرنا أن العقل البشري يرفض أن يعمل في فراغ. بل بالأحرى فإنه موجود داخل الأشياء لا خارجها إنه ليس ميزة مطلقة أو صفة مجردة توجد مستقلة في الذهن البشري.

فإن كان الأمر كذلك فإنه من المعقول والمقبول فعلاً وقولاً أن نسمح ليدي المرء أن يرشدهما معلم ما، والأحمق من يذهب بمفرده، وكأن المرء يقدر أن يتعلم العزف على الفيولين أو أن ينحت تمثالاً بدراسته لمجموعة من التوجيهات والتعليمات[1].

وفي حقول كثيرة من العمل الخلاّق فإن الانغماس في التقليد -كما يؤكد روبرت ويلكن - هو الافتراض المحتمل للتفوق والتميز والأصالة، فكّر مثلاً. كما يقول روبرت ويلكن - في الموسقى، إنني استمع في صباح الآحاد إلى عرض لموسيقى الجاز في الراديو الوطني العام الذي يقدم مقابلات مع المشاهير وغير المشاهير من عازفي البيانو في موسيقا الجاز وعازفي آلة السكسفون والطبلة والتروجييت... الخ. وبانتظام يثيرني ويدهشني كيف يتحدثون بمنتهى الوقار والتوقير والاحترام عن معلميهم ومدربيهم وكيف يخاطبون شخصاً كان قد علمهم أول دروس العزف على البيانو وحاكي فيها هذا الشخص أو تعلم كيف ينفخ في التروجييت بتقليد لويس أومسترونج أو أي شخص آخر[2].

إن مفهوم ويلكن والذي شكلته سنوات الانغماس في كتابات آباءالكنيسة. يقدم بديلاً عميقاً للفردية المعرفية واللاهوتية المغالي فيها والشائعة اليوم. ويصر ويلكن أن المسيحيين سوف يجدون هويتهم فقط باستدعاء عالم لا يخضع للخيال والتصور، أو يفوق هذا الخيال والتصور عالم يطلب الحق بالفكر في القلب. عالم هو مجتمع يصر على كيفية عيش المرء في نسيج واحد متكامل لا ينفصل ميسراً قراءة جامعة شاملة للواقع الذي ينعكس بين الحين والآخر في كتابات آباء الكنيسة[3].

إن الصعوبة الأساسية هي — كما يرى أيضاً كريستوفر هول - صَمم القارئ

1- Robert L. Wilkon, Remembering the Christian Post, P. 171. Christopher A. Hall, P. 27.

2- Robert L. Wilkon, Remembering the Christian Post, P. 171.

3- Christopher A. Hall, P.28.

المعاصر وهو صَمم تاريخي تجاه التلميحات الموجودة في الكتاب المقدس. وفي الحقيقة، وبسبب صَممنا هذا، نقدر أن نبدأ في الارتياب ما إذا كانت هذه التلميحات موجودة أصلاً وأن كل الملاحظات الموسيقية حاضرة فعلاً في النص أم لا؟ وقبل أن نختم أو نستنتج أننا نتخيل ببساطة ميلوديات زائفة، فإن أليسون (Dale C. Allison Jr.) برغم ذلك، يمدنا بأمثولة معاصرة تساعدنا[1]. إن أولئك الذين ينصتون من حين لآخر إلى موسيقى المذياع يمكنهم التعرف على أغنية شائعة بعد سماع ولو جزء منها. وهناك أناساً يتعرفون بالاسم على قطعة موسيقية بعد سماع ولو جزء بسيط منها وربما لا يدوم هذا الجزء أكثر من ثوانٍ معدودة، وقد لا تحوي إلا مقامين أو أقل من الأنغام. أما غير المتمرس في الموسيقى فلن يسمع إلا ضجيجاً.

عند هذا المنعطف فإن حدود التأويل أو تقاربيه التفسير عند الآباء للنص الكتابي هي خير معين لنا لأنهم كانوا وبطرق عديدة الأقرب إلى مسيحيين القرن الأول أكثر منا نحن. لأنهم وعكس كثيرين منا قد عاشوا وتحركوا وتأصل كيانهم في الكتب المقدسة. لذا كانت الكتب المقدسة بالنسبة لهم هي الموسيقى المألوفة لديهم.

إن تفسير الآباء للكتاب المقدس قد التقط نغمات مميزة في النص تبقى صامتة بلا صوت لدى القراء المعاصرين، وذلك إذا اعتمد الأكاديمي الدارس أو الراعي فقط على التفسير الحديث. فالآباء يسمعون ويرون بينما نحن نميل أن نكون صمماً وعميان.

التفسير والصحة الروحية

أكد الآباء على علاقة وطيدة بين الصحة الروحية لمفسري الكتاب وقدرتهم على قراءة الكتاب أيضاً. وبالنسبة للآباء، فإن الكتاب لابد من دراسته والتعمق فيه وتفسيره في إطار ومضمون العبادة والتكريم والتقديس. وقد اعتبر الآباء الكتاب كتاباً مقدساً يفتح نفسه لأولئك الذين كانوا هم أنفسهم ينمون في القداسة بنعمة وقوة الروح القدس. إن التفسير وخواص المفسر من الأمور التي تربطها علاقات حميمة.

1- Christopher A. Hall, P.39.

فمثلاً في عملة الذائع الصيت، في التجسد يؤكد القديس أثناسيوس أن البحث والفهم الصحيح للكتب المقدسة (يتطلب) حياة صالحة ونفساً نقية، لا يمكن للمرء أن يفهم تعليم القديسين إن لم يكن للمرء ذهن طاهر وإن لم يحاول محاكاة سيرتهم. إن أي إنسان يريد أن ينظر إلى نور الشمس من الطبيعي أنه يمسح عينيه أولاً لينظفها ليقترب بنقاوة من ذلك الشئ الذي ينظر إليه. والشخص الذي يرغب أن يرى مدينة أو بلداً يذهب إلى موضع ما ليفعل ذلك. هكذا أيضاً فإن أي شخص يريد أن يفهم فكر الكُتّاب القديسين عليه أولاً أن يطهر حياته الخاصة. وأن يقترب من القديسين بمحاكاة أعمالهم تماماً. هكذا يتحد بهم في شركة حياتهم، فيفهم الأمور المستعلنة لهم بواسطة الله. ومن ثم يهرب من الهلاك الذي يهدد الخطاة في يوم الدينونة وينال ما أعده الله للقديسين في ملكوت السموات[1].

ويقدم القديس غريغوريوس النزينزي نفس الأداة في عظاته اللاهوتية إن دراسة أمور الله والحديث عنها جيداً لا يخص أي إنسان، أو كل إنسان، فهذا الأمر ليس لكل المشاهدين أو المستمعين ولا لكل الأزمان، ولا في كل النقاط، بل في مناسبات خاصة، ولدى أشخاص معينين، وفي حدود معينة، ويؤكد القديس غريغوريوس أن الدراسة اللاهوتية مسموح بها فقط لأولئك الذين تم فحصهم وهم معلموا الماضي البارعون في التأملات والذين تطهروا قبلاً نفساً وجسداً أو على أقل تقدير هم في طريقهم للتطهير[2].

لا القديس أثناسيوس ولا القديس غريغوريوس قد أظهر التفسير الكتابي أو اللاهوتي الكتابي على أنه مجرد نشاط أكاديمي لعلماء دارسين للكتاب المقدس أو لاهوتيين انفصلوا عن حياة الكنيسة أو البناء الروحي الشخصي. بل بالحرى هم آباء آمنوا، أن أفضل أنواع التفسير تحدث داخل مجتمع الكنيسة. إن الكُتب المقدسة قد سُلمت للكنيسة وقرئت وكرز بها وسُمعت وفهمت وتم إدراك ما بها داخل المجتمع

1- Christopher A. Hall, P.41.

2- Gregory of Nazianzus, " The First theological oration", in Christotogy of the Later Fathers, (Philadelphia: Westminster Press, 1954), P. 129. Christopher A. Hall, P.75.

الكنسي. ولهذا تم تفسيرها في أمان فقط بواسطة أولئك الذين صاغت الصلاة خصالهم ومميزاتهم وكذلك العبادة والتأملات وفحص الذات والاعتراف ووسائل أخرى تصل نعمة المسيح بواسطتها إلى جسده، بمعنى أنه عند الآباء ، أي انفصال بين السمة الشخصية والمجتمع المسيحي ودراسة الكتاب المقدس سوف يكون خطيراً ومميتاً لأية محاولة لفهم الكتاب المقدس. وهذا المدخل الشمولي والمجتمعي هو منهج مؤكد يوفر فحصاً عميقاً في عالمنا الشديد الفردية والتخصص والانقسام والتشرذم.

إن إصرار الآباء على النمو الروحي وتكاملية السمات الشخصية كلما حاولنا الاقتراب من دراسة الكتاب المقدس هي نصيحة لابد أن نأخذ بها. وللأسف فإن كلماتنا وأقوالنا وحياتنا لا تتناسب دائماً مع هذه الشروط. فنحن نفتقد الوحدة فلسنا وحدة واحدة، إن دعوة الآباء إلى الوحدة داخل المجتمع الكنسي حتى يمكننا فهم الرواية والتواصل معها بشكل أكثر أمانة هو شرط لا مفر منه لفهم كيف ولماذا لجأ الآباء إلى عملهم في التفسير. إن الحوار المتبادل بين النمو الروحي وصياغة الشخصية وفهم الكتاب هي بصيرة آبائية أساسية.

الفرق بين الآباء والفلاسفة[1]:

لقد نادي بعض المفسرين والنقاد بآراء غير مقبولة بالنسبة للكنيسة فى أعمال وكتابات الآباء والفلاسفة. لقد نادوا بأن الآباء كانوا مجبرين على أن يكونوا تقليديين، لقد كانوا فقط حاملين للحق المعلن لهم، فهُم مجرد مفسرين لهذا الحق وهذا العمل ليس شاق، بينما الفلاسفة بدون أي إعلان خارجي أخذوا يبحثون عن الحق. أما الآباء . كما يزعمون . فقد استلموا الحق جاهزًا سواء من الكنيسة أو من الإعلان الإلهي. إذن بحسب زعمهم نجد في أعمال الفلاسفة حقائق لم تكن معروفة من قبل وهذا الأمر يغيب عن كتابات الآباء.

١- أنظر هذا المرجع من المراجع الأساسية

79 Στυλιανοῦ. Γ. Παπα δοπουλου πατρολογία Α, Αθῆνα 1991, σελ. 2

ولدى هؤلاء النقاد المعيار الحقيقي للأب أو للفيلسوف هو مدى الجديد الذي وصل إليه أي منهما.

الجديد هذا يُدعى الفكر الأصلي أو النموذج الأصلي "πρωτοτυπι'α".

كل هذا ما هو إلا جدل نظري يدل على عدم دراية الذي شَرَعَ في القول به أو قبوله.

فالآباء هم حاملين ومعبرين عن الحق الذي هو موجود ومُصاغ في الكتاب المقدس والتقليد. لكن على أي حال هذا الأمر ليس سهلاً ولا هو جاهزًا فالتعبير عن هذا الحق يتطلب مُعايشة هذا الحق.

إعلان الله يُعطى فقط للإنسان الذي يشقي ويتعب من أجل الحق. ثم إن عمل الآباء يوجد أبعد من معايشة الحق. عملهم هو الآتي :

أ- التعبير عن حق التقليد بلُغة العصر من خلال هوية فكرية معينة يتميز بها معاصرينهم. الصعوبة تنشأ من أن التعبير عن الحق ليس هو واقع إستاتيكي. لذلك لكي يتم التعبير عن الحق يتطلب عمل تعليمي إبداعي تمامًا. التعليم اللاهوتي لعصر ما يعبر عن محاولة الأب لكي ينتصر علي المحيط الفكري، وإقناع المؤمن بهذا التعليم. أن يُقنِع بأن الكرازة والتعليم اللاهوتي يحتضنا الإنسان بمشاكله، وتحرره من الأحضان الخادعة المختلفة التي أحيانًا تخنقه.

الكلام هنا عن خلق عالم كامل جديد في كل مرة طالما أن الأب مدعو لكي يرتفع وينتصر علي عوالم كل مرة مختلفة عن عوالم العصور الأخرى أو على مجال فكري في حالة تغيير دائم.

ب- عمل الآباء كان التعمق والتوسع في حقائق إلهية كانت بالفعل معروفة. وهذه عملية في غاية الصعوبة في مجال التعاليم اللاهوتية. أساس هذا العمل هو مواجهة كل مشكلة تتقابل معها الكنيسة. لقد جاهد الآباء وواجهوا صعوبات جمة لكي يقدموا تقدماتهم هذه، التي كانت أمراً جديدًا له جوانب كثيرة أمرًا

يحتوي على أبعد ما وصل إليه الآباء السابقين. لقد بحثوا وفتشوا لذا ما وضعوه يُعتبر الحق في ثوب جديد تمامًا لم يكن من قبل معروفًا، فهُم يعتبروا بذلك نماذج أصيلة ولم يأخذوا شيئاً جاهزًا كما أدعى بعض النقاد. **والآباء يختلفون عن الفلاسفة فيما يخص نوعية المحتوى والنهج والتقدمة، فالفيلسوف يُعبر عن الحقيقة التي أكتشفها داخل إطار نظري لا يتعداه.أما الآباء فعبروا عن الحق بمعايشة التقليد الكنسي، وعبرَّوا بأشكال منطقية عن خبرة الحق الإلهي بأكثر إتساعًا.**

أيضًا **الفيلسوف** نظريًا يفكر ويتأمل في حالة مستقلة تمامًا عن السابقين له من الفلاسفة، أي **أنه غير ملتزم بآراء السابقين** في نفس المشكلة التي يبحثها، يفتخر الفيلسوف أنه يعطي إجابة شخصية جديدة تماماً ويدافع عن صحة رأيه واستقامته بغض النظر عن رأي السابقين له. **هكذا مع كل فيلسوف نجد إجابة جديدة ورؤية جديدة للعالم وللإنسان. على النقيض يحدث مع الأب. الأب لا يعمل وهو غائبًا عن غنى الكنيسة الروحي. فهو حامل ديناميكي ومُفسر لكل عناصر الآباء السابقين له في مجال التعليم وخطوته الجديدة أو تقدمته الشخصية أو مساهمته هي فتح شباك جديد للحق على ما هو موجود بالفعل، أو إضافة خبرات روحية جديدة تُسَّهل فهم ما هو موجود، بينما الفيلسوف يبني مبني جديد مستخدمًا مواد كانت غير مستخدمة من السابقين له. أما الآب يستمر في إقامة وتعلية المبني الذي هو موجود بالفعل. الفيلسوف بفكره المستقل يشكك ويهدم الماضي، أما الآب بفكره المقدس يُجيب على المشاكل ويجعل الماضي مستمر وحاضرًا دائمًا.**

التربية والآباء:

أ- الكُتاب الكنسيين والمعروفون منهم لديهم تربية شاملة وعميقة. يبدوا لنا من القديسين إغناطيوس ويوستينوس وإيرينيؤس أن الآباء من العارفين الممتازين لليهودية وللديانات المتنوعة، وللغنوسية وللهيلينية وللنظم الدينية والثقافية السائدة في عصرهم. معرفة الإنسان التامة أو علي الأقل الدراسة الجيدة للتيارات الفكرية الكبيرة

يدل على أنه مثقف. وليس لدينا أي كاتب كنسي لم يتذوق هذه التيارات الفكرية الكبيرة. وكما قلنا، بدون معرفة المحيط الفكري للعصر لا يستطيع أي أب التعبير عن الحق الإلهي، ولا يمكن أن يكون عمله مفهوم لدى إنسان العصر.

هذا لا يمنع أن بعض الكُتاب الكنسيين كان لهم تحفظ صارم على التربية الهيللينية التي كانت سائدة في عصرهم خوفًا من أن هذه التربية تجذب البسطاء عن التقليد الكنسي من أمثال هؤلاء: إغناطيوس وثيؤفيلوس الأنطاكي وكاتب رسالة الراعي هِرماس. لا يجب أن يُستهان بحقيقة أن العالم الفكري الهيلليني به بعض الحقائق التي ينتج عنها شكوك لدى أعضاء الكنيسة. هذه الحقائق قادت بعض الكُتاب الكنسيين القدامى إلي الرأي بأن الفكر الهيلليني الفلسفي والخلقي به بذور للحق الإلهي، والتي توجد بالفعل في المسيحية. من أمثال هؤلاء: يوستينوس وكليمنضس الإسكندري وأوريجينوس.

أما البعض الذين احتقروا الفكر الهلليني، أجابوا علي سؤال من أين أتت الحقائق الموجودة في هذا الفكر؟ قائلين أن اليونانيين أخذوا هذه الحقائق من ناموس موسي أو من أنبياء العهد القديم (من أمثال هؤلاء تاتيانوس) أو مِن أناس وثنيين كان لديهم فكر ديني سامي (من أمثال هؤلاء: أوريجينوس، إبوليتوس). هذه الردود كانت موجودة في القرن الثاني والثالث، لكن موقف الكنيسة من التربية الكلاسيكية الهيللينية لم ينتهي بعد.

المعيار الذي بمقتضاه أستخدم بعض الآباء التربية الهيللينية ورفضها البعض الآخر تمامًا يرجع إلى مدي التقدم الروحي أو الفكري للمؤمنين في كل حالة تحت ظروف متنوعة. **عندما أحتقر آباء عظام الفكر الكلاسيكي الهيلليني فهذا يعني أن مؤمنين معينين تعرضوا لخطر فقدان تدبيرهم الكنسي الأصيل من إحتضانهم المفرط للحكمة الكلاسيكية. أما حين أعتبر آباء آخرون عظام التربية الهيللينية أن بها جمال حسن فهذا يعني على الجانب الآخر أن أشخاص من المؤمنين احتقروا هذه التربية وتعرضوا لخطر فقدان الجانب التثقيفي في شخصياتهم،**

وكذلك الإمكانيات الذهنية الضرورية لدرجة أنهم نسوا الحقيقة البسيطة التي تقول أنه لكي يكرز أحد إلي أُناس يمارسون تربية فكرية معينة، فلابد أن يعرفها ويعبر بواسطتها عن محتوى كرازته.

هكذا الموقف الشخصي للآباء أمام التربية الكلاسيكية لا يجب أن يكون مشكلة. لأن كتاباتهم تُجيب بوضوح على هذا الأمر. فكل الآباء عايشوا وعَرِفوا بعمق المناخ الفكري المحيط بهم، وتأثروا به واستخدموه بتقنية عالية، لكي يعبروا عن الحق الإلهي. الكلام هنا عن نوعية العلاقة بين الكنيسة والعالم، أي عن إستخدام الكنيسة للعالم المحيط وليس عن استخدام العالم للكنيسة. في الحالة الأولي العالم يصير كنيسة أما في الثانية تصير الكنيسة مثل العالم. في المجال الأول تسير الأرثوذكسية أما في الثاني تسير الهرطقه.

المسيرة الفكرية للكاتب الكنسي لم تكن حدث بسيط وساكن، لكن هامة جدًا وديناميكية، ولها تأثير علي كتاباته، لذلك كان الآباء كُتاب عظام في مجال الأدب والشعر والعِلم. فالعلامة أوريجينوس مثلاً كان ناقدًا أدبيًا عظيمًا في عصره، والقديس باسيليوس كان قانوني مميز ورائد في الإصلاح الإجتماعي، والقديس غريغوريوس اللاهوتي كان شاعرًا عظيمًا وفيلسوفًا، وكان القديس غريغوريوس النيصي فيلسوفًا مميزًا، والقديس يوحنا ذهبي الفم خطيبًا عظيمًا. طبعًا التربية التي كانت للآباء الكنسيين لم تكن مقتصرة على الفلسفة الهيللينية، بل امتدت إلى الخطابة، القانون، الرياضيات، الجغرافيا، الموسيقى، الشعر،...الخ.

الأرثوذكسية والآباء

إحتضنت الكنيسة الآباء وعاشت بتعاليمهم وحكمتهم ونظرت دائمًا لتعليمهم علي أنه تعليم أصيل وأرثوذكسي. الآباء المعلمون كانوا بالنسبة للكنيسة هم إستمرارًا وإمتدادًا للرسل. الأثنى عشر رسولاً سلموا خدمتهم الشخصية والتي هي تسليم التعليم للآباء (إيرينيوس، ضد الهرطقات ١،٣ م). الروح القدس أنار الرسل وينير الآباء.

وحيث إن الآباء يُمثلون استمرارًا للرسل، بالتالي فيما كتبوه يُعتبر أرثوذكسي وأصيل وموضوع تقدير من الكنيسة.

إن تعليم الآباء هو تعليم مستقيم لأنهم أنفسهم إستناروا بالروح القدس في كتاباتهم. هكذا أمنَّت المجامع المسكونية علي تعليم الآباء المعلمين.إن تعليم الآباء يتطابق مع تقليد الكنيسة، بإيمانها وبحكمتها وبكل ما تسلمته من الله، فحفظت هذا التعليم بدون تحريف أو تغيير أو تزييف مثلما حفظت الكتاب المقدس.

الكتاب المقدس والتقليد يُمثلان مسيرة تعليمية ولاهوتية واحدة، التعبير عن الحق الإلهي الذي يُخلص الإنسان في الكنيسة. نرى فيهما(في الكتاب والتقليد) مراحل التدبير من جهة إظهار الحقيقة لكن لا ينفصلان. فالتقليد هو استمرارية، وتوضيح، واتساع للكتاب المقدس.فالكتاب المقدس يُمثل الأساس الثابت والفريد، بدون هذا الأساس لا يقف شيئًا ويثبت. وعندما نتحدث عن التقليد نقصد التعليم وتقدمه الآباء أي مساهمة الآباء الكتابية الخاصة بشرح الإيمان المستقيم.

وعلي العموم فالتقليد لا يبدأ بالآباء، لكن بعمل الرب والرسل. بمعنى أن الكنيسة لديها منذ البداية هذا التقليد، والكتاب المقدس وُلد في أحضانها، والذي هو بمثابة جزء من التقليد المسيحي الأول، الذي أستمر ونما بمساهمة الآباء.

لقد صاغ الآباء التعليم بإستنارة الروح القدس مع الاستفادة من دراساتهم الفلسفية والأدبية والعلمية التي كانت سائدة في عصرهم واكتسبوها وتعلموها لكي يتواصلوا مع العالم المحيط بهم. لكن لا يعني هذا أنه لا توجد آراء للآباء تندرج تحت الآراء الشخصية والتأملات والتي لا تمس أساسيات الإيمان بسوء. أما التعليم الذي أجمعت عليه الكنيسة من خلال آبائها ويتوافق تمامًا مع الكتاب المقدس وتصديق المجامع المسكونية يفيد هذا التعليم من ضمن تقليد الكنيسة.**إذن ما لم تتبناه الكنيسة يندرج تحت الآراء الشخصية، وهذه الآراء قد تنسي من ذاكرة الكنيسة أو تهمل أو تُرفض وذلك إذا كانت هذه الآراء الشخصية لا تتمش مع السياق العام لإيمان الكنيسة.**

فعلي سبيل المثال آراء إيريناؤس عن الملك الألفي، وكذلك أفكار القديس غريغوريوس النيصي عن إعادة أو رَد كل شيء في المسيح الذي يؤدي بنا إلي المناداة بما يُسمي الخلاص الشامل، وأفكار غيرها قالها الآباء دخلت باب النسيان والرفض.

فهم وتفسير كتابات الآباء

عمل الأب المعلم هو بمثابة عمل غامض، ومجال مقدس ومليء بعلامات الاستفهام، وهو عمل حقيقي وله بُعد أساسي ووجودي. إنه غامض لأنه يمثل حدث روحي لا يُقترب منه، ولا يمكن التعبير عنه لمن لا يحيا النعمة الإلهية التي أبدعت هذا العمل. أيضًا بالنسبة للمؤمن أو اللاهوتي لم يتوقف الأب أن يكون غامض ومطلوب لمن يريد التسلل داخل فكر الأب جهاد ونعمة إلهية غنية. الكلام هنا عن حقيقة واقعية ملموسة(النصوص الآبائية) هي موجودة ويراها العالم، إنما هي شيء أخر يختلف عنه، إن هذا المحتوي الحقيقي للنصوص مقدس ومميز عن أي محتوي طبيعي وعادي لأنه يمثل التغيير الديناميكي لإنسان مأسوي إلي كائن يشترك في الوجود مع الحق، ويحيا فيه ولأجله. علاقة الأب الديناميكية والحقيقية مع الحق الإلهي، بمعنى مع الله الثالوث يجعل هذا الشخص مُميَّز وجذاب. العنصر الحقيقي والمقدس والمتباين أي الغريب في تميزه يصير قطب جذب ومدهش بالنسبة للمؤمنين الذين تذوقوا الحق الإلهي. لكن، في نفس الوقت، العناصر التي تحول الأب إلي قطب جاذب، تجعله-إيجابيًا — محل تصادم. الكلام هنا عن الوجه الآخر للإعجاب الذي يحتوى علي خوف وجُبن من جانب المتلقي أو قارئ النص. بقدر ما يتولد داخله الانجذاب نحوه، يتولد بالقدر نفسه الخوف أمام الشيء الجديد والذي هو غامض وصعب الاقتراب إليه. إن خبرة ما هو إلهي أو الحق الإلهي، والاختطاف إلي السموات مثل بولس الرسول، هي بمثابة شيء ليس من المفترض أن يتحقق دائمًا. ليست هي من ضمن الحالات الدائمة. فالأب ليس في كل لحظات حياته هو عظيم. العظمة هذه تُمنح له في لحظات كثيرة أو قليلة في حياته. في هذا الإطار نشأت مشكلة كيف نفهم نصوص الآباء؟ البعض يحصر موضوع فهم الآباء في المناهج التاريخية والأدبية والتي هي بمثابة السطح الظاهري، والإطار الذي يحتوى

علي جوهر العمل. إذن هذه العناصر غير كافية. في موضوعنا هذا الابتعاد عن عالم الأب يمثل السبب الأول للغموض الذي ينتاب المفسر أمام النص. إذن الابتعاد عن فكر الأب وكذلك عن طريقة التعبير أي المنهج والشكل والأدوات التي أستخدمها في كتابة النص يجعلنا غير فاهمين للنص ولا لتعاليم الأب اللاهوتية. والصعوبة الكبيرة تكاد تنحصر في الاقتراب من فكر الأب نفسه، وكذلك مِن طريقة تعبيره لأنها لا ترتبط فقط بفكر الأب بل تعتمد عليه هو نفسه في استخدامها. التعبير عن التعاليم اللاهوتية ليس هو أكلشيه ثابت محفوظ بدون استلزامات وشروط ونتائج. لان الأب أخذ الأدوات المستخدمة في محيطه الفكري المعاصر، وعَّبر عن تعاليمه داخل أبنية فكرية حية في عصره، لكن بطريقة خاصة طوَّعها لخدمة هدفه ولإظهار الحق الإلهي. وهكذا نستطيع أن نقول أن الفهم الصحيح للجوانب الخارجية للتعاليم الآبائية، ونقصد العنصر التاريخي واللغوي والأدبي يتحقق عندما نفهم روح أو فكر الأب نفسه.فبالعناصر الهامة والضرورية: التاريخية والأدبية والاجتماعية المتعلقة بالنص الأبائي إذا جمعها الدارس يستطيع بها أن يعرف الأب ككاتب وأديب ومفكر لكن لن يتعرف عليه كأداة لله والمعبر عن للحق الإلهي الذي يؤَّمن الخلاص. إذن فِهم فكر الأب ليست مشكلة معرفة بسيطة بخصائص النص الخارجية —كما قلنا— بل هي مشكلة اشتراك في فكره و روحه، إنها مشكلة إدراك واستيعاب الأب نفسه والدخول فيه. وانعزال الدارس عن المشاركة والدخول في فكر الأب يعيقه عن فهم النص. في هذه الحالة حيث الدارس يظل منعزلاً بعيدًا عن الله والحق الإلهي الذي ينادي به الأب، لن يستطيع أن يفهم إطلاقًا فكر الأب. لأن الأب تخطي مرحلة العزلة وصار في الحق. إن خبرة الأب تصير قريبة فقط من خلال الطريق الذي أنتهجه الأب نفسه. وهذا الطريق هو تخطي العُزلة والدخول في الحق. وتخطي العزلة يُتَّمم فقط بالتحرر وبالفداء، بتغير الإنسان وتحوله إلي خليقة جديدة. وروح أو فكر الأب كتعبير للحق هو شيء له علاقة مع فكر الإنسان، إذن يتطلب تغيير جذري لفكر الإنسان هذا ليدخل إلي روح أو فكر الأب، ولا يكفي أي تحسين لفكر الإنسان أو أي عمل ذهني.

إذن فِهم نصوص الآباء هو المشاركة في الخبرة الأبائية للحق بالنعمة الإلهية، والدخول في مناخ الأب الروحي. والدخول يتحقق عندما يتحول الدارس ويتغير تغييراً جذريًا ليصير خليقة جديدة ويصبح مشاركًا في الخبرات التي يعبر عنها الآباء. والبداية لفهم أي نص آبائي هو محاولة فِهم شخص الأب وفي نفس الوقت عمله. فدراسة الشخصية تُسهل شرح عمله. فأولاً الاقتراب إلي شخصيتة ثم بعد ذلك الاقتراب إلي عمله.

خاتمة

إن التراث الآبائى له قيمة دائمة لأنه يمثل الدخول المباشر إلى الغنى الروحى للإعلان الكتابى، هذا التراث يُشعِل روحانية الكنيسة. للأسف تيار الحداثة في عصر النهضة والتنوير .كما يسمونه رواده . قد أزاح التقليد جانبًا وبشكل نهائي، وبدأوا تفسير الكتاب بمعزل عن التقليد التفسيري الآبائي. لكن نشهد في السنوات الأخيرة عودة إلى الآباء وكتاباتهم بعدما تيقن البعض من المفسرين المعاصرين أهمية التفسير الآبائي. لذا يقول روجر Roger Lundin: "لابد أن تبقى الحقيقة في إطار التقليد أو التقاليد التي أُهملت أو نُسيت والتي نحن في حاجة إلى إستعادتها"[1].

ويرى روبرت ويلكن Robert Wilkon أن الشك المبالغ فيه حول التقليد أدى إلى عجز التفسير في عصر النهضة على قبول كل ما جاء قبله بشيء من العرفان، ويؤكد روبرت على أن العقل البشري لا يعمل من فراغ وأن الإنسان يحتاج دائمًا لمعُلِم يرشده ويعلمه فمن غير المعقول أن يتعلم أحد العزف على آلة موسيقية أو ينحت تمثالاً بدون مُعَلِم، إذ يقول: "وفي حقول كثيرة من العمل الخلاق فإن الإنغماس في التقليد هو الإفتراض المحتمل للتفوق والتمييز والأصالة. فكِرْ، مثلاً في الموسيقي. إنني أستمع في صباح الآحاد إلى عرض لموسيقي الجاز في الراديو الوطني العام الذي يقدم مقابلات مع المشاهير وغير المشاهير من عازفي البيانو في موسيقي الجاز وعازفي آلة السكسفون والطبلة والترومبيت...الخ. وبإنتظام يثيرني ويدهشني كيف يتحدثون بمنتهي الوقار والتوقير والإحترام عن معلميهم ومدربيهم وكيف يخاطبون شخصًا كان قد عَلَمَهم أول دروس العزف على البيانو وحاكي فيها هذا الشخص أو تعلم كيف ينفخ في الترومبيت بتقليد لويس أرمسترونج أو أي شخص آخر. أيضًا ينبهر المرء للطريقة التي يتحدث بها مُغني مشهور مثل جين ريدباث وهو ذائع الصيت في الأغاني الشعبية نراه يتحدث عن التقليد كحالة ضرورية لتأليف وغناء الموسيقي الشعبية. وكيف نتلقي دائمًا النصائح ألا نهمل وننسي

1- Roger Lundin, the Culture of Interpretation (Grand Rapids, Mich: Ecrdmans, 1993), P.89. Christopher A. Hall, Reading Scripture with Church Fathers, 1998, P.27.

التقاليد القديمة. لماذا؟ بالتأكيد ليس لأسباب تاريخية أو آثارية، بل لأن الموسيقيين مثلهم مثل الرسامين والكُتّاب والنحاتين، يعرفون في أناملهم أو أحبالهم الصوتية أو آذانهم أن المحاكات هي السبيل إلى التميز والتفوق والأصالة"[1]. نفس الشيء نقوله بخصوص العمل التفسيري. مثلما يقول ويلكين: "إن كانت الطريقة التي نتعلم بواسطتها كيف نفكر هي بقراءة أعمال مفكرين بارعين وأن ندع أفكارهم تشكل أفكارنا، فمن الأفضل أن يخضع المرء نفسه ليتعلم من أولئك الكُتّاب الذين أظهروا أعمالاً جديرة بالثقة مع مرور الوقت. أولئك الذين تم إختبارهم على مر هذه السنين كلها فوجدناهم يمكن التعويل عليهم كمفسرين لعمل الله في الخلاص بالمسيح"[2].

هكذا إنغماس ويلكن في كتابات الآباء قادة إلى إيجاد بديل عميق للمعرفة الفردية المغالي فيها، لذا يؤكد على أن المسيحيين سوف يجدون هويتهم عندما يستدعون عالم التقليد الآبائي الذي لا يخضع للخيال والتصور ويطلب الحق من خلال قراءة جامعة وشاملة للواقع الذي ينعكس بين الحين والآخر في كتابات آباء الكنيسة.

لقد عاش الآباء المناخ الفكري لعصرهم. وعملهم يمثل مرآة للتيارات الفلسفية المعاصرة، والقناعات الدينية والأفكار السائدة في وقتها عن العالم والكون، وكذلك عن الأفكار السياسية. إن العوامل التي حددت المناخ الفكري للقرون الأولي للكنيسة هي اليهوديه والهللينيه والغنوسيه، والديانات الأخرى والدولة.

هذا العالم المتنوع والديناميكي كان يمثل مشكلة كبيرة، وفى نفس الوقت، أداة لآباء الكنيسة، المشكلة: إذا حاول الأب أن لا يعبر عن تعاليم الكنيسة اللاهوتية من خلال هذا العالم سيكون معزول وغريب عن أناس عصره الذين تعلموا أن يفكروا فقط بالبنية الفكرية لهذا العصر. وإذا أستخدم لغة العالم الفكري والفلسفي هناك خطر أن يتم تزييف الحق الذي يكرز به.

1- Robertl. Wilken, Remembering the Christion past (Grand Rapids, Mich: Ecrdmans, 1995), P.170-171. Christopher A. Hall, Reading Scripture with Church Fathers, 1998, P.27.

2- Ibid, P.174.

لقد إستخدم الكُتاب الكنسيين بفاعلية المناخ الفكري أو الأداة اللغوية لعصرهم. ومن الجدير بالملاحظة عندما نقول "الأداة اللغوية" نقصد شيئًا أكثر من الشكل اللغوي. نقصد الطريقة التي كان يفكر بها أناس عصرهم وكذلك طريقة معالجتهم للمشاكل. نقصد الروابط الاجتماعية التي بها يعبر ويفهم الإنسان المثقف العالم وكذلك الآخر أخيه في الإنسانية.

إذن لكي يتقابل آباء الكنيسة مع إنسان هذا العالم تحدثوا بلغته. وإن كان الحق الذي كرز به الإنجيل لم يعتريه أي تزييف فهذا يرجع إلي وعي آباء الكنيسة بالاختلاف الجذري بين محتوى المسيحية ومحتوى الفكر السائد لعصرهم. فالأب المعلم كان يدرك تمامًا هذا الاختلاف ويعمل جاهدًا علي حفظ الحق المسيحي. **وفي هذا الموضوع نشأ سوء فهم باتجاهين متعارضين:**

الاتجاه الأول: هذا الاتجاه يؤدي إلي الرفض التام للغة الفكرية للعصر. هذه حالة الثقافة الدينية المتشرنقة داخل ذاتها والتى لا تتورع فى سبيل ان يكون لها الهيمنة وتجييش البسطاء أن تُناصب العداء لعلوم وثقافة وفكر الآخر لخلق حالة إستقطاب حادة لا يعنيها أن تهدم المعبد على رؤوسها.

أما الاتجاه الثاني: يؤدي إلي استخدام لغة العصر بدون تمييز. **الاتجاه الأول** إتبعه الذين التصقوا بحرف الكتاب المقدس والذين لم يفهموا القوة المتسعة للحق الإلهي، وهؤلاء الذين عن معرفة أو غير معرفة حبسوا الكنيسة في نظام مغلق. وهؤلاء بحسب القديس غريغوريوس اللاهوتي سقطوا في الهرطقة والفكر الخاطئ.

أما الاتجاه الثاني: لم يروا بعمق العالمين أي العالم المسيحي والمناخ الفكري فانجذبوا مرات كثيرة إلي الفكر اليوناني والغنوسي واعتقدوا أن هذا الفكر يصل إلي نفس الحقيقة التي يعلنها الإنجيل ، فعلي سبيل المثال أدخل آريوس أفكاراً فلسفية في تعليمه اللاهوتي وكانت النتيجة هي المناداة بهرطقة. لكن آباء الكنيسة المعلمين قد إستخدموا المصطلحات والفكر البنائي لعصرهم وكرزوا بمساعدة هذه العناصر السائدة في عصرهم لكن بمحتوى جديد للمصطلحات، بينما العوامل المساعدة

الأخرى كاللغة وطريقة التفكير السائدة كانت كما هي. **التشديد هنا علي محتوى جديد للمصطلحات غريب تمامًا عن الفكر السائد في عصرهم.**

إذن الآباء لم يجهلوا الفكر الفلسفي الكلاسيكي والفكر الهلليني. قد استخدموا -كما قلنا- النُظم الفلسفية وطُرق التفكير لكن الأمر الهام هو إعطاء محتوى جديد تمامًا للمصطلحات. آباء كثيرون خُطباء وشعراء أُعجبوا كثيرًا بجمال اللغة اليونانية فصارت لُباسًا للحق الإلهي. نظر الآباء إلى طرق التفكير الغنوسي التي كانت تتصارع لاكتساب المعرفة والخلاص. واستطاعوا أن يميزوا الحق الإلهي ويكرزوا به ويحاربوا الفكر الغنوسي الذي كان يهمش المحتوى المسيحي الجديد. وكذلك بالنسبة للديانات التي كانت موجودة في عصرهم مثل اليهودية، استخدموا التعاليم الموسوية ولكن بمحتوي جديد تمامًا وأصبح العهد القديم بالنسبة للكنيسة هو إنجيل المسيحيين، لأن المسيح كان هو الموضوع الرئيسي له.

نرجع إلي موضوعنا، ونقول أن آباء الكنيسة أجمعوا علي أنه لابد أن يتحدثوا بلغة عصرهم لكي يؤثروا بتعاليمهم علي إنسان عصرهم. هذا ما يجعلنا أن نركز علي أننا **لكي نفهم كتابات آباء الكنيسة، فلابد من فهم المناخ الفكري لعصرهم وكذلك طُرق التفكير والنُظم التي كانت سائدة علي المستوى الثقافي والاجتماعي والسياسي.**

وأيضًا وهو الأهم، الخبرة الروحية والاختبار الحي الذي عاشه الآباء بإستنارة الروح القدس وعمله في النفس. **التمييز الواضح** من جانبنا بين الشكل الخارجي للنصوص الخاص باستخدام أدوات العصر، وطرق التفكير البنائي الثقافي، وكذلك الظروف الاجتماعية والسياسية وبين المحتوي الجديد وجوهر تعليم الآباء الخاص بالإيمان المستقيم والشهادة الحية للإنجيل هو الأمر الهام والضروري لفهم المناهج التعليمية للآباء ونصوصهم.

لم يتبنى الآباء منهجاً معينً أو طريقة معينة في التعبير عن الإيمان بل تحركوا بحُرية واستخدموا المنهج الذي اقتضاه الموقف والمناسبة والتوقيت لكي يكون

منهجًا فعالاً. فالهدف بالنسبة لهم ليس المنهج ولا نظام معين. لم يكن هدف الآباء ربط المسيحية بالهللينيه أو إلباس الرسالة الكتابية بثوب فلسفي هيلليني. هدف الآباء الوحيد هو التعبير عن اختبارهم الإلهي وهذا التعبير صار من خلال أشكال متنوعة لم تكن بالنسبة لهم أشكال مُطلقة. لذلك لم يتردد الآباء في استخدام أشكال خارجية فقط مع محتوي جديد تمامًا من:

اليهودية والغنوسيه والأفلاطونية المحدثة وفكر أرسطو الفلسفي، والأفكار السياسية البيزنطية.

لذلك نقول اعتبار هذه الأشكال مُطلقة ولا يمكن الحياد عنها هو خطأ كما أن اعتبار الروح الآبائية الأصيلة هي نسبية أيضًا خطأ.

الاتجاه الأول يطلق عليه الاتجاه المحافظ أو الأصولي أما الثاني يُطلق عليه الاتجاه التحرري ويغيب عن الاتجاهين الفضيلة التي تُسميها الكنيسة: فضيلة التمييز.

بالرغم من أنه منذ عصر الآباء إلي الآن حدث تغيير للنُظم الاجتماعية والثقافية والفكرية لكن الإنسان يتعرض لنفس المشاكل الكيانيه: أين أذهب؟ من أكون؟ لماذا الألم؟ لماذا الموت؟... الخ.

والروابط البنائية الفكرية للقرون الأولي المسيحية لم تختلف اختلافًا جذريًا عن عصرنا فلم نبتعد كثيرًا عنهم لدرجة إستحاله فهم البنية الفكرية التي كانت وقتذاك. الأهم بالنسبة لنا هو القدرة علي تمييز الدور الذي لعبه النظام الفكري السائد في كتابات الآباء. وانتقال الروح الآبائية لتقليد الكنيسة إلينا مرهون بإعادة التعبير عنه بلغة عصرنا، وإلا سيظل هذا الإرث الآبائي غريبا عنا أو علي الأقل سيكون من الصعب فِهم هذه الكتابات.

عدم التمييز بين جوهر الكتابات الآبائية والأشكال المستخدمة للتعبير عن هذا الجوهر أدى إلي المناداة بأن الآباء قد طوروا الرسالة المسيحية الأولى أو غيروها وأضافوا عليها الكثير. بينما مسألة أن الآباء أخذوا الأشكال الفكرية لعصرهم قد

أظهر بلا شك مدى حيوية وأصالة التقليد الكنسي.

وإن كان بعض الكُتاب الكنسيين الذين أضفوا فقط على الأفكار الفلسفية صبغة مسيحية بدون محتوى مسيحي جديد تمامًا **أمثال:** أثيناغوراس- تاتيانوس لم تتبنى الكنيسة أفكارهم ولا جعلتها من ضمن التقليد الكنسي .

إن المناهج الآبائية لا يجب إختزالها فى مجرد أحداث ومشاهد قديمة للأجداد ندرسها بصورة تلقينية، بل يجب أن نتعرف في هذا التراث على فكر وأساليب وخبرات الآباء لنؤسس مسيرتنا لتكون إمتداداً لمسيرتهم من جيل إلى جيل . يجب علينا أن نستفيد من هذا التراث مميزين ثوابته من متغيراته ونحتفظ بتجاربه فى الذاكرة لنستدعيها حتى لا نكرر أفعال الماضي بطريقة آلية ، ومن هنا نتميز كبشر عاقلين مخلوقين بحسب صورة الله ومثاله عن المخلوقات غير العاقلة. ولكن للأسف كثيراً ما نكرر أخطاء الماضي كوننا لا نقرأ التاريخ أو نقرأه كنص تلقيني.

ففي بلادنا للأسف الأغلبية لا تقرأ تراثها التاريخي وذلك إما جهلاً أو عدم إكتراث.. ومَنْ لا يقرأ التاريخ – كما يقول أحد المفكرين – فعليه أن يعيد مشاهده من البداية ، فعدم إستيعابه للخبرات القديمة يقوده إلى خوض التجربة من جديد ليقع ويتعثر ويتعلم. للأسف نحن نهوى السير على محيط دائرة ما نلبث الإنطلاق من نقطة البداية حتى نرجع إليها وهلم جرى. أيضاً لا ينبغي أن نغرق منشغلين في محاكمة تراث الآباء فهو ماضي مِلك زمانه وظرفه الموضوعى ، ولكن يجب أن نُقيمه ونفحصه برؤية ثاقبة مميزين ثوابته الدينية عن متغيراته حتى نتعاطى مع الواقع بكل نضوج وخبرة ودراية.

مقدمة دراسية عن المنهج التفسيري للقديس كيرلس الأسكندري

الملامح الأساسية للتفسير عند القديس كيرلس

١ــ الأساس الخريستولوجي.

٢ــ الأساس الروحي.

٣ــ الأساس الكنسي.

ونتناول هذه الملامح في شيءٍ من التفصيل كالآتي:

أولاً: الأساس الخريستولوجي لتفسير للكتاب المقدس

يعتبر القديس كيرلس أن الإيمان الصحيح بسر التجسد هو ضرورة أساسية للتفسير، إذ أن **الكلمة** المتجسد هو القانون والمعيار الذي يُقاس عليه التفسير الصحيح (تفسير يوحنا: ٩ P.G. 74, 189C).

فالأساس الخريستولوجي هو دعامة لكل شروحاته، وأيضاً صياغاته للعقيدة، فالمسيح ظلّ بعد التجسد هو الواحد ـ الله ـ **الكلمة**. وبالتجسد اتحد اللاهوت بالناسوت بغير اختلاط أو تغيير، وهذا الاتحاد في شخص المسيح ليس مجرد اعتراف نظري، بل هو حدث واقعي في تاريخ التدبير الإلهي وأساس التفسير الصحيح للكتاب المقدس وتعاليم الكنيسة. لذلك ففي رأي القديس كيرلس، لكي نفهم ما قاله المسيح وندرك أيضاً أفعاله المدوّنة في الأناجيل، لابد وأن نراها في إطار الاتحاد الكامل بين اللاهوت والناسوت في شخص المسيح، فالكلمة المتجسد لم يكن ببساطة إنساناً "حاملاً لله (θεοφόρος)" مثلما كان يعتقد نسطور، بل العكس، فكل ما قاله وما فعله المسيح كان صادراً من شخص الله **الكلمة**، ويتعلق



بإقرار الإيمان الصحيح عن الاتحاد الذي تم بين اللاهوت والناسوت والذي نتج عنه ما يُسمي "بتبادل الخواص"، فطبيعة الناسوت قبلت المجد الإلهي وذلك باتحادها بطبيعة اللاهوت "(عن التجسد: P.G. 75, 1244, 1249)".

فالإخلاء "أخلي ذاته" هو الذي جعل **الكلمة** داخل المعايير البشرية (تفسير يوحنا: P.G. 73, 132A).

ولكي نفهم أقوال وأعمال المسيح الإنسانية كما دُوِّنت في الأناجيل، هناك حاجة لأن نحافظ على الوحدة غير المنفصلة وغير المختلطة بين اللاهوت والناسوت في شخص المسيح، فلا يجب أن ننسب الأقوال والأعمال الإنسانية للمسيح للاهوت فقط ولا للناسوت فقط (تفسير لوقا: P.G. 72, 509D) بل لشخص المسيح الواحد، ويطبق هذا على المعجزات، التي هي أعمال إلهية، ولكنها تمت بواسطة الجسد (الناسوت). (الكنز 23: P.G. 75, 388C).

لكن علينا أن نعرف ونميِّز متى تُنسب الأقوال للاهوت ومتى تُنسب للناسوت، دون أي انفصال بينهما. فمثلاً عندما يقول المسيح: "قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن" (يو ١٤: ٨) أو (يو ١٠: ٣) "أنا والآب واحد"، واضح أن هذه الكلمات منسوبة للاهوت. أمَّا قوله مثلاً في (يو ٨: ٤٠) "ولكنكم تسعون إلى قتلي وأنا إنسان كلمتكم بالحق الذي سمعته من الله .. "، هنا الكلام منسوب إلى إنسانيته الكاملة (تفسير لوقا P.G. 72, 672C).

واللوغوس (كلمة الله) لو لم يَصِر إنساناً كاملاً لما كان لنا ان نراه يتكلم بشرياً. وبناء على ذلك، مَنْ ينكر هذه الأقوال والأفعال الإنسانية للمسيح ينكر تدبير التجسد (الدفاع: P.G. 76, 413CD).

فهذه الأقوال تُعلن عن حقيقة التأنس، فلو لم يتكلم المسيح كإنسان كامل، لما آمن أحدٌ بإخلاء الله **الكلمة** (رسالة ١٧: P.G. 77, 116BC).

وقد رفض كيرلس قول نسطور بأن أعمال الجسد التي للمسيح تُنقص من شأن المجد الإلهي، فإن القديس كيرلس يرى أن بواسطتها نستطيع أن نعرف عظمة الجوهر



الإلهي السامي، وهكذا علو اللاهوت نعرفه من التواضع والإخلاء الإلهي (الكنز ٧: P.G. 75, 120AB).

إن هذا الاتحاد الأقنومى بين اللاهوت والناسوت، في رأي القديس كيرلس، كان هو الوسيلة الوحيدة لخلاص البشرية، وعلينا أن لا نقف عند الحرف مثلما فعل نسطور لكي يبرهن على سمو وتفوق الطبيعة الإلهية على الطبيعة الإنسانية للمسيح، وانتهي إلى أن المسيح كان إنساناً حاملاً للإله فقط، وأنكر التجسد الحقيقي للكلمة. وبذلك فإن كل ما قام به المسيح إنسانياً، أي بالجسد ليس له بُعد خلاصي حقيقي لدى نسطور.

يُشدّد القديس كيرلس على أن الأقوال التي ينسبها البعض إلى طبيعة لاهوت المسيح أو إلى طبيعة ناسوته، يجب أن تُنسب لشخص المسيح الواحد، فالتمييز بينهما هو تمييز تدبيري ولا يتعلق بأي فصل بين الاثنين. (الكنز ٢٤: P.G. 75, 429C).

ثانياً: الأساس الروحي لتفسير للكتاب المقدس:

كان القديس كيرلس كأسكندري أصيل، تابعاً متحمساً للتفسير الروحي للكتاب المقدس، وأيضاً في إطار التعليم عن شخص المسيح يشرح لنا التفسير الروحي. فكما أن ناسوت المسيح يؤكد ألوهيته تاريخياً، هكذا أيضاً الحرف أو التاريخ يُعلنان المعنى الروحي الإلهي المقصود من الكلام المكتوب.

والتفسير الروحي، بحسب القديس كيرلس، يتخذ الحرف أو التاريخ أساساً له؛ إذ فيه يتعرف على سر المسيح "سر التدبير الإلهي". فالتجسد يُعلن هدف التدبير الإلهي ويتعرف عليه عندما ننظر إلى أقوال وأعمال المسيح المدونة في الكتاب المقدس وفق هذا التجسد "الإخلاء" (عن الإيمان المستقيم ٣٠، P.G. 76, 1373C).

لذلك، بحسب القديس كيرلس، يجب أن نعبر من حرف الكتاب والذى يصف **الكلمة** بطريقة بشرية، أي وفق مقاييس بشرية، إلى الفهم الروحي الإلهي. إذن التفسير الروحي عند القديس كيرلس يستلزم التمييز الواضح بين عالَمين: العالم



المحسوس المادي؛ والعالم الروحي الذهني، ويستلزم أيضاً التأكيد على الاتحاد بين هذين العالمين بدون امتزاج، كما تحقق هذا الاتحاد في شخص المخلِّص الواحد ربنا يسوع المسيح. وبناء على ذلك، يُنظر إلى تطبيق التفسير الروحي على أنه تجلٍّ وتغيُّر للعنصر التاريخي والإنساني (الحرفي) وتحوله إلى العنصر الإلهي والروحي والذي هو متحد معه بغير امتزاج ولا انفصال.

والآن نسرد بعض المبادئ الأساسية لفهم التفسير الروحي لكيرلس:

١. يؤكد القديس كيرلس على أن الكتاب المقدس يتكلم عن الله بشرياً لأن الله لا يستطيع أن يتكلم أو يُعلن عن نفسه إلَّا بطريقة بشرية قريبة من الإنسان ومفهومة لديه (تفسير المزامير P.G. 69, 792). وهذه الطريقة لا تقلل من سمو المجد الإلهي، ولكن على العكس، فإن عجز العقل البشري واللغة البشرية هما السبب الذي جعل الكتاب يتكلم بطريقة بشرية عن الله. وهكذا فالكلام عن الله يحاكي ويتكيف بحسب الحاجة مع مقاييس الكلام البشري. ولكي نعرف سمو المجد الإلهي، علينا أن نفهم الشواهد التاريخية والإنسانية عن الله، المدونة في الكتاب المقدس وذلك بطريقة خاصة. إذ أن الإنسان موجود في كثافة جسدية وتحكمه قوانين بيولوجية، ويجب عليه ألَّا ينحصر في الفهم البشري للكلمات ''اللاهوتية''، ولا يعيها بطريقة حرفية صارمة أو بطريقة تاريخية فقط، ولكن وفق العنصر الإلهي.

ستظل الكلمة البشرية قاصرة وغير كافية لوصف الإلهيات، فتعبيرها دائماً نسبي، فهي محصورة داخل حدود اللغز والنموذج والعلامة والمثال. وبواسطة **الكلمة** نستطيع أن نفهم جانباً ما من العنصر الإلهي الروحي. فالكلمة الكتابية لا تعلن ماهية الله بالضبط، ولكن تعلن وتعلِّم بعض مفاهيم عن الله (ضد نسطور ١ :٣ P.G. 76, 33C).

والذي حدد هذه المفاهيم ليست الكلمات اللغوية أو المفاهيم التاريخية في حد ذاتها، ولكن المعني الروحي المختفي والعميق السري، وذلك بحسب التدبير. والتدبير هو الذي يقودنا إلى الفهم الصحيح للأقوال البشرية (تفسير إشعياء٣:١، P.G. 70, 565C).

إذن، فالتفسير الروحي للكتاب ليس قضيةً لغويةً أدبيةً صارمةً، تقتصر فقط على الفهم الحرفي أو التاريخي، ولكن هدف التفسير هو "المعرفة الإلهية" التي تستلزم عدم بقاءنا في الحرف أو التاريخ، ولكن نعبُر فيه إلى الروح، فما يرمي إليه التفسير هو المعرفة الخلاصية لعمل التدبير الإلهي. لا يمكن أن نظل في الحرف (الكلمة المكتوبة) لأن الغرض منها هو الصعود الدائم نحو الأسمى، من المحسوس إلى الروحي. فالحرف يخدم سر التدبير الإلهي، والمحسوسات البشرية تتغير وتتجلى بفضل التجسد، نحو الحالة الإلهية في المسيح يسوع (تفسير متى، P.G. 75, 429C).

بحسب القديس كيرلس، فإن الكلمة في الفلسفة اليونانية هي بلا جسد (ἄσαρκος) أما الكلمة الكتابية فهي متجسدة وهي حاملة لقوة سر الإلوهية، فهي المثال والنموذج للروحيات، ولذلك ترفع العقل من الماديات إلى الروحيات.

٢. يشدد القديس كيرلس على عدم احتقار الحرف أو التاريخ، فلكي نصل إلى التفسير الروحي لابد أن نفهم أولاً الخاصية التاريخية واللغوية للنص، وعن طريق هذا الفهم يستطيع المفسر أن يتعرف على قوة الكلمة التي تقود إلى الرؤية الروحية. فالتفسير التاريخي والحرفي عند القديس كيرلس مهم لأنه:

أ- يعتبر الظل الذي يقود إلى عمق الروحيات (العبادة بالروح والحق٣، P.G. 68, 540B).

ب- يؤمن حقيقة المفاهيم الروحية الإلهية بعيداً عن التأمل الروحي المريض، لأن التاريخيات أو الحروف هي نماذج وظلال للحقيقة.

جـ - له هدف تربوي، وتعليمي، وأدبي لأن مختارى الله سواء في العهد القديم أو العهد الجديد هم نماذج وقدوة للحياة المسيحية الحقيقية.

الكلمة المكتوبة لها مفهومان: تاريخي وروحي، والذي يقودنا إلى التفسير الصحيح هو الإيمان؛ لأن الإيمان يسبق المعرفة، إذ بواسطة الإيمان يصل الإنسان إلى المعرفة الكاملة (شرح إنجيل يوحنا٤، ٤:٢، P.G. 73, 576D). والإيمان هنا هو المعرفة الصحيحة عن الله داخل حياة الفضيلة (شرح يوحنا١٢، P.G. 74, 756D).



الإيمان بالاتحاد بين الطبيعتين الإلهية والإنسانية بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير في شخص المسيح، أعاد الوحدة بين المحسوس والروحي، وأيضاً بين أنشطة الإنسان الجسدية والحياة الروحية. ولكي نصل إلى المفهوم العميق والسري للكلمة الكتابية، هناك احتياج دائم لتطبيق الهدف العام، بمعنى أن نتعرف داخل شخصيات وأحداث وروايات الكتاب على فعل التدبير الإلهي وبالتحديد سر المسيح. هذه الطريقة تمنع وجود أي مسافة فاصلة بين العهدين القديم والجديد كما أنها تمنع وجود خلط بين العهدين. فالعهد القديم والعهد الجديد بينهما علاقة لا تنقطع، والتقليد الأسكندرى الذي ينتمي إليه كيرلس يستند على تفسير (٢ كو ٣:٦) "الذي جعلنا كفاةً لأن نكون خدام عهد جديد. لا الحرف بل الروح. لأن الحرف يقتل ولكن الروح يحيي"، و(عب ١٠:١) "لأن الناموس إذ له ظل الخيرات العتيدة لا نفس صورة الأشياء، لا يقدر أبداً بنفس الذبائح كل سنة التي يقدمونها على الدوام أن يكمل الذين يتقدمون".

فالعهد القديم هو نصٌ نبوي له شكل الظل والمثال والنموذج، فهو يتنبأ عن سر المسيح، وهذا يسري على أسفار موسى الخمسة وأيضاً على كل الكتب النبوية. (السجود والعبادة والروح والحق٦، P.G. 68, 440A)، (تفسير إشعياء٢:٥، P.G. 70, 545D) .

العهد القديم هو ظلٌ للعهد الجديد، وذلك في حالة فهمه بالتفسير الروحي، لأن طبيعة الكلمة الكتابية هي لغز وظل ومثال. وبدون اللجوء للمحتوى الذي يُعلَن بواسطة الكلمة، فهى تظل بلا فائدة (شرح يوحنا٥:٤، P.G 73, 661) .

عند القديس كيرلس هناك ثلاث أسباب تجعلنا نتمسك بالعهد القديم:

١- بالعهد القديم نرى أن سر المسيح ليس شيئاً جديداً ولا مستحدثاً، بل هو موجود منذ الأزل، وقد عُبِّر عنه في شكل الرمز والظل في الأحداث والأعمال التعبدية وأيضاً في الأعياد المذكورة في العهد القديم (مختارات على سفر الخروج ص٢، P.G. 69, 424B) (على سفر ملاخي ص٢، P.G. 72, 364C).

٢- كان المسيح حاضراً في أحداث وشخصيات العهد القديم، وإن كان ذلك أيضاً بالرمز والمثال، وذلك بسبب ضعف السامعين (تفسير لوقا، P.G. 72, 901C).

٣- حضور المسيح في العهد القديم يُبرهن على أن الكتب المقدسة أوحيت بنور روح المسيح (السجود والعبادة بالروح والحق٥: ٤، P.G. 68, 1313D).

وهكذا يُشدّد القديس كيرلس على أن نقبل العهد القديم لا بالمفهوم الحرفي بل بالمفهوم الروحي.

ثالثاً: الأساس الكنسي لتفسير للكتاب المقدس

تنتمي الأسرار الإلهية للعالم الروحي، بينما الإنسان محدود وإدراكه ضعيف مما يعوق المعاينة الكاملة للمجد الإلهي، ولذلك فأي مفسر يحتاج إلى أساسيات تتعلق بالإيمان والحياة الكنسية، وعلى هذا الأساس يلجأ دائماً القديس كيرلس إلى التعاليم والخبرة الكنسية، ويعتبر أن التقليد الكنسي هو المرشد الضروري للتفسير الكتابي، والأساسيات الكنسية في نظر القديس كيرلس هي:

١ـــ الوحي وحضور الروح القدس في الكنيسة.

٢ـــ التقليد الحي في الكنيسة الذي يشمل الإيمان المستقيم والعقيدة الصحيحة، أي التقليد التفسيري والعقيدي.

٣ـــ العمل الليتورجي داخل الكنيسة والحياة الروحية النُسكية (حياة الفضيلة).

وذلك على التفصيل التالي:

أولاً: فيما يتعلق بالوحي، فالقديس كيرلس يعتمد على أن (٢تي ٣: ١٦) "كل الكتاب هو موحى به من الله ونافع للتعليم". وعندما يتعرض للطريقة التي كتب بها الكُتّاب المقدسين، النصوص المقدسة، فهو يعتمد التقليد الأسكندري الذي يؤمن بأن الكُتَّاب قد قبلوا الكلمة الإلهية بإعلان مباشر من فم الرب وكتبوه بإلهام مباشر من الروح القدس الذي هو وسيط يعلن الكلمة الإلهية لأنه هو الذي يعرف ويفحص أعماق الله (١ كو ٢: ١٠). الروح القدس يمنح الكاتب الأذن الروحية ليسمع كلمة

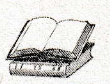


الله (تفسير إشعياء ٢: ٢ P.G. 70, 349D). وفي هذه الحالة لا يفقد النبي قوته ووعيه الذهني، ولا يصير كمجرد أداة ميكانيكية في يد الروح القدس، ولكن بطريقة واعية وتفكير في الأشياء المعلَنة كانوا يكتبون الإعلان الإلهي سواء كان عن طريق السمع أو الرؤى، وهو على ذلك ناقصٌ وليس كاملاً؛ لأنه يتجاوب ويتمشى مع محدودية الطبيعة البشرية. فالكلمة الإلهية المكتوبة في علاقتها بجوهر الشيء الذي تريد أن تعلن عنه، هي نموذج ومثال وظل وسر وتحتاج لحضور الروح القدس لكي يعلن المفهوم الروحي العميق المستتر وراء الكلمة. وبناء على ذلك، فالكتاب المقدس يُفهم فقط داخل الكنيسة، وذلك بالروح القدس الحاضر في الكنيسة. الطبيعة البشرية بمفردها لا تستطيع أن تكشف الأسرار الإلهية (شرح يوحنا: ١١ P.G. 74, 464B). لذلك، فالحاجة دائمة إلى عمل الروح القدس في تنقية الذهن وفي تحرره من أي انشغال مادي أو اضطراب معيشي (P.G. 71, 868).

الروح القدس ينير الذهن ليفهم ما هو مخفي ومستتر وراء النص اللغوي، لأن الكلمة الكتابية كما قلنا سابقاً هي عادةً كلمة تخفي داخلها المعنى الروحي. إن سر الله هو عطية إلهية للإنسان، لكنه يستطيع أن يصل إلى معرفة هذا السر وذلك فقط بغنى النعمة الإلهية (شرح يوحنا ٤: 1P.G. 73, 552C). هذا العمل يتممه الروح القدس، الذي يمنح الطبيعة الإنسانية الصلاح، أي معرفة الأسرار الإلهية، هذه المعرفة تنير القلب والعقل. لذلك، الفهم السليم للكلمة الكتابية يتطلب صلاة نحو الله لكي يرسل نوره لينير العقل (شرح يوحنا: ٤: ٣ P.G. 73, 605D).

إذن التفسير الصحيح للكتاب والذي ينتهي إلى الرؤية الروحية، إلى جمال الحق هو عطية الله وعطية المسيح وعطية الروح القدس. (شرح يوحنا ٣: ٢ P.G. 73, 412D ، تفسير إشعياء ٣: 4P.G. 70, 800B).

ثانياً: من أجل فهم صحيح للكتاب، اتبع القديس كيرلس، القديس أثناسيوس في أنه لا بُد من أن نعرف الهدف العام للكتاب، الذي هو سر المسيح، أي التأنس. ولكن عند القديس كيرلس يرتبط الهدف العام أيضاً بالوحدة الغير المنفصلة بين



الآب والابن (شرح يوحنا ١١ P.G. 74, 509)، أو بسر الثالوث (شرح يوحنا ٩، P.G. 74, 237A).

وبناء على ذلك فإن هدف الكتاب المقدس يتطابق مع الإيمان المستقيم وكل ما يتعلق بعمل تدبير الثالوث. هذا الإيمان يسميه القديس كيرلس: "المعرفة الكاملة" التي تتقابل مع دقة العقيدة وتتجاوب مع الهدف الداخلي للكتاب الذي نراه باستنارة الروح القدس. وبهذا المعنى، فإن المعرفة الكاملة هي ثمرة التفسير الروحي للكتاب. أيضاً يشدد القديس كيرلس على أن استقامة الإيمان أو المعرفة الكاملة ليست هي فقط الهدف الداخلي للكتاب، ولكن يتعلق أيضاً بـ "فكر" الآباء (شرح يوحنا ٩، P.G. 74, 216C). إن الفكر الآبائي هو المفهوم الأصح للكتب الإلهية، فنحن ملتزمون بالتقليد الحي للآباء والذي يرجع إلى استنارة وعمل الروح الذي صِيغ في اعترافات الإيمان (P.G. 77, 109D). هذا التقليد يمثل معياراً وعلامةً محورية للتفسير الكتابي، ولذلك من الضروري أن نقتفي آثار "هدف" الحكمة الآبائية.

ثالثاً: إن هدف الكتاب المقدس يحيا ويعمل داخل الحياة الليتورجية في الكنيسة. الكنيسة ترتبط مباشرة بتدبير التجسد، وتبعاً لذلك بهدف الكتاب. لذلك يعطي القديس كيرلس تفسيراً لجبل صهيون، وجبل الجليل وأورشليم على أنها الكنيسة (تفسير إشعياء ١: ٢ P.G. 70, 68D).

إن سر التدبير الإلهي يُتمم بطريقة سرية في الكنيسة، لذلك هي "البيت المقدس للمخلِّص". كل من يجهل هذا البيت ويكتفي بالتفسير الجسدي (الحرفي) للكتاب ليس لديه إمكانية الخلاص.

يشدد القديس كيرلس على أن داخل الكنيسة يستطيع المؤمن أن يري ويشارك ما تممه المخلص، وبذلك يستطيع أن يخلص (شرح يوحنا ٢: ١ P.G. 73, 217AB).

إن حياة الإيمان المعاش في الكنيسة والمشاركة في الأسرار الكنسية واختبار حياة الفضيلة اليومية، أمور ضرورية وأساسية للتفسير الصحيح للكتاب.

أخيراً من كل ما سبق نري أن القديس كيرلس يرد على التراث غير الأرثوذكسي

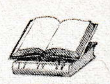
في التفسير، والمبادئ التي شرحها لنا هي مبادئ مهمة جداً لنا اليوم لكي نميِّز بين التفسير الأرثوذكسي والتفسير غير الأرثوذكسي للكتاب، فالقضية ليست قضية فردية، ولكن هي موضوع الكنيسة الحاملة للإعلان الإلهي والتي بدونها الكتاب المقدس ليس له أي معنى حقيقي، إذ يظل لغزاً وظلاً ومثالاً وأموراً نظرية مجردة، أما في الكنيسة فيتحقق سر التدبير، أي كل ما تممه المسيح عن طريق الأسرار، ويصبح الكتاب متجسداً ينير العقل ويطهِّر القلب ويقود الإنسان في مسيرة شركة واتحاد مع الله بواسطة المسيح في الروح القدس، حتى يستطيع المؤمن أن يقول مع القديس يوحنا: "الذي سمعناه، الذي رأيناه بعيوننا، الذي شاهدناه ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة" (١ يو ١: ١).

كتابات القديس كيرلس

القديس كيرلس هو واحد من أعظم رموز الفكر المسيحي في القرون الأولى. فكتاباته تملأ عشرة مجلدات ضخمة من مجموعة *Migne* اليونانية: مجلدات من ٦٨ إلى ٧٧ *PG*. وتتميز كتابات القديس كيرلس بالعمق وثراء الأفكار، والدقة والوضوح في النقاش مما يثبت موهبته التأملية والجدلية، ومما يجعل من كتاباته مصادر من الدرجة الأولى في الأهمية لتاريخ العقيدة والتعليم الإيماني. ودرج علماء الآباء على تقسيم كتابات القديس كيرلس إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى: تنتهي بظهور البدعة النسطورية سنة ٤٢٨م، وهذه المرحلة كانت مكرسة لتفسير أسفار الكتاب المقدس بعهديه، والدفاع عن الإيمان ضد البدعة الأريوسية.

المرحلة الثانية: تبدأ من سنة ٤٢٨م بظهور البدعة النسطورية وتنتهي بنياحة القديس كيرلس، ومعظم كتابات هذه المرحلة مكرسة للدفاع عن التعليم الصحيح في التجسد، ضد البدعة النسطورية.



أ ــ الكتابات التفسيرية:

لأسفار العهدين القديم والجديد، وتشكل الجزء الأكبر من إنتاجه اللاهوتي، إذ تشغل ٧ مجلدات من مجموعة ميني، وهي المجلدات من ٦٨ . ٧٤ من بترولوجيا جريكا. تشغل شروحاته على أسفار العهد القديم خمسة مجلدات منها (من ٦٨ . ٧٢) بينما تشغل شروحه للعهد الجديد مجلدي ٧٣، ٧٤ من مجموعة ميني وشذرات في مجلد ٧٢، وجزء صغير من مجلد ٧٧.

١ــ تفاسيره للعهد القديم

أ - السجود والعبادة بالروح والحق

يقع في ١٧ مقالة وتشكل مجلد ٦٨ كله من مجموعة *Migne* اليونانية. وهو على شكل حوار بين كيرلس وبلاديوس عن تفسير مقاطع منتخبة من الأسفار الخمسة (من تكوين . تثنية)، يبيِّن فيه أن الناموس أُبطل حرفياً، ولكنه باق روحياً. وأن فرائض العهد القديم هي رموز مسبقة للعبادة بالروح. (ترجمه المركز في ٨ أجزاء ثم أصدره المركز في مجلد واحد).

ب - جلافيرا (Glaphyra)

١٣ مقالة من "تفسيرات لامعة" وهذا هو معنى العنوان وتعتبر مكملة "للعبادة بالروح والحق". وهو أيضاً تفسير مقاطع مختارة من الأسفار الخمسة الأولى ولكن ليس على شكل حوار كالكتاب الأول. ٧ مقالات مخصصة لسفر التكوين، و٣ للخروج، ومقالة واحدة لكل من اللاويين والعدد والتثنية (ويشمل حوالي نصف مجلد ٦٩ من *Migne*). وقد نُشر بالكامل في الكتاب الشهري للشباب والخدام الذي يصدره بيت التكريس لخدمة الكرازة. (وهو الآن تحت الطبع، مجلد واحد من إصدار المركز الأرثوذكسي).

جـ - تفسير أشعياء

مكون من ٥ كتب يفسّر فيها جميع إصحاحات سفر أشعياء. ويشمل المجلد رقم ٧٠ من مجموعة *Migne*. وجاري ترجمة هذا السفر في المركز

الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، وينشر في الكتاب الشهري للشباب والخدام الذي يصدره بيت التكريس لخدمة الكرازة.

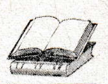
د ــ تفسير الأنبياء الإثنى عشر الصغار

يحوى ١٢ جزءاً لكل سفر من الأنبياء الصغار. (ويشغل مجلد ٧١ كله، وحوالي ثلث مجلد ٧٢ من *Migne*). وقد نشر المركز تفسير القديس كيرلس لسفر يونان في يناير ٢٠١١ وكذلك نشر المركز تفسير القديس كيرلس لسفري حجي ويونان وجاري ترجمة بقية أسفار الأنبياء الصغار.

+ وإضافة إلى هذه التفاسير الكبيرة للعهد القديم وصلتنا شذرات من تفاسير أخرى في سلاسل التفسير الـ *Catenae*، بعضٌ منها كبير جداً؛ وهى شذرات من أسفار الملوك، والمزامير، بعض الأناشيد، والأمثال، نشيد الأنشاد، أرميا، حزقيال، دانيال. ويوجد مخطوط بالأرمينية بمكتبة *Bodleian* (أكسفورد) يحوى شذرات من تفسير حزقيال منسوب لكيرلس، وبعضها مماثل لما نشره *Migne* باليونانية لتفسير حزقيال.

٢ــ تفاسيره للعهد الجديد

أ– من أهم تفاسيره للعهد الجديد هو شرحه لإنجيل القديس يوحنا الذي يشغل مجلد ٧٣ كله ونصف مجلد ٧٤ في باترولوجيا ميني. وقد نشر المركز هذا التفسير على أجزاء ثم تم بحمد الله إصدار التفسير كله في مجلدين. أما تفسيره لإنجيل لوقا فلم يبق من الأصل اليوناني سوى ٣ عظات كاملة وبعض شذرات متفرقة. ولكن وصلتنا نسخة مترجمة للسريانية ترجع إلى القرن السادس الميلادي تحوي ١٥٦ عظة على إنجيل لوقا وهي التي ترجمها *Payne Smith* "باين سميث" إلى الإنجليزية ونشرها بأكسفورد سنة ١٨٥٩م وقد ترجمها المركز على أجزاء ثم في مجلد واحد في سنة ٢٠٠٧. ويحوي مجلد ٧٤ عدة أجزاء من تفاسير مفقودة للقديس كيرلس على رسالة رومية وعلى رسالتي كورنثوس، وعلى الرسالة إلى العبرانيين وعلى إنجيل متى.



ب- كتاباته العقيدية ــ الدفاعية ضد الأريوسيين:

كتابان:

١- الكنز أو الكنوز في الثالوث، وهذا الكتاب قد نشره المركز. وهذه الدراسة عن الثالوث مأخوذ من المقدمة المنشورة مع هذا الكتاب.

٢- حوارات حول الثالوث، ويتكون من ٧ حوارات، وقد ترجمه المركز خمسة أجزاء، وجاري إصداره مجمع في مجلد واحد.

وهذان الكتابان يشغلان معظم مجلد ٧٥ من باترلوجيا ميني.

ج ــ كتاباته العقيدية ــ الدفاعية ضد النسطورية:

وهي ثمانية كتب:

١- ضد تجاديف نسطوريوس.

٢- قاعدة الإيمان *De Recta Fide*

٣- الحروم الإثنى عشر ضد نسطوريوس ترجمها نيافة الأنبا غريغوريوس في "مذكرة النسطورية"، ثم ترجمها ونشرها مركز دراسات الآباء سنة ١٩٨٨م ضمن الرسالة ١٧ وهى ترجمة جديدة للدكتور موريس تاوضروس والدكتور نصحي عبد الشهيد.

٤- الاحتجاج لدى الإمبراطور ثاؤدوسيوس الصغير.

٥- شرح تجسد الابن الوحيد (نُشِرَ باللغة العربية سنة ١٩٧٥م بالقاهرة).

٦- ضد من ينكرون أن العذراء مريم هي والدة الإله (نشره المركز باللغة العربية يونيو سنة ٢٠١١ بعنوان والدة الإله).

٧- ضد ديودوروس الطرسوسي وثيئودوروس أسقف المصيصة معلمي نسطوريوس.

٨- المسيح واحد: وهو حوار حول وحدة شخص المسيح. (نشره مركز دراسات الآباء بالعربية سنة ١٩٨٧م بالقاهرة).

وتشغل هذه الكتب جزءً من مجلد ٧٥ وجزءً من مجلد ٧٦.

د- الرد على كتب يوليانوس الجاحد ضد المسيحيين:

ويشغل جزءً من مجلد ٧٦ من باترلوجيا ميني ويرجح أنه كُتب بين سنتي ٤٣٣و٤٤١م.

هـ- الرسائل الفصحية:

وعددها ٢٩ رسالة للسنوات من ٤١٤ إلى ٤٤٢ وتشغل جزءً كبيراً من مجلد ٧٧. نُشرت الرسالة الفصحية الأولى للقديس كيرلس سنة ٢٠٠٤ والرسالة الفصحية الثانية سنة ٢٠٠٨.

و- العظات:

لم يتبق من كل العظات التي ألقاها القديس كيرلس طوال سنين بطريركيته الطويلة (٤١٢ إلى ٤٤٤) سوى ٢٢ عظة، وقد وضعها الناشرون تحت عنوان "عظات متنوعة" للتمييز بينها وبين العظات الفصحية أو الرسائل الفصحية.

العظات الثمانية الأولى من هذه المجموعة ألقاها القديس كيرلس في صيف سنة ٤٣١م أثناء انعقاد مجمع أفسس المسكوني، العظة رقم ٤ هي العظة الشهيرة جداً عن والدة الإله التي ألقاها في كنيسة القديسة مريم بأفسس في ٢٣ يونيه ٤٣١م. وهذه العظات تشغل جزءً صغيراً من مجلد ٧٧.

ز- الرسائل:

عدد كبير من مراسلات القديس كيرلس لا تزال باقية، فقد نُشرت في مجلد رقم ٧٧ من مجموعة ميني *Migne* ١٠٥ رسالة؛ ٨٨ رسالة منها أرسلها القديس كيرلس و١٧ مرسلة إليه من آخرين. كما نشر شوارتز *E. Shwartz* خمس رسائل أخرى فتكون جملة الرسائل ١١٠ رسالة.

هذه الرسائل هامة جداً بالنسبة لتاريخ "الكنيسة والدولة"، وبالنسبة للتعليم

الكنسي، والقانون الكنسي، وللعلاقات بين الشرق والغرب والتنافس القائم بين المدارس اللاهوتية والكراسي الأسقفية:

١- رسالة رقم ٥٥ تحوي شرحاً لقانون الإيمان. نشرها مركز دراسات الآباء سنة ١٩٨٤م.

٢- بينما هناك ٣ رسائل لها الأهمية الأولي في تاريخ العقيدة المسيحية وهي الرسالتان الثانية والثالثة إلى نسطوريوس (رقم ٤ ورقم ١٧) والرسالة إلى يوحنا الأنطاكي (رقم ٣٩). هذه الرسائل الثلاثة تسمي الرسائل المسكونية. رسالة رقم (٤) سُميت بالرسالة العقائدية. وقد اعتمدها مجمع أفسس بالإجماع في جلسته الأولى في ٢٢ يونيو ٤٣١م وشهد لها الجميع بأنها تتفق تماماً مع قانون إيمان مجمع نيقية. ورسالة رقم (١٧) تحوي الحروم الإثني عشر وقد ضُمت إلى أعمال مجمع أفسس المسكوني، وقد اعتمدها مجمع خلقيدونية أيضاً فيما بعد سنة ٤٥١م.

أما الرسالة رقم ٣٩ والتي سميت "قانون إيمان أفسس"، فتحوي بيان الإيمان بخصوص طبيعة المسيح الذي على أساسه تم الاتحاد بين يوحنا الأنطاكي وكنيسة أنطاكية من جهة وبين القديس كيرلس وكنيسة الإسكندرية من جهة أخرى سنة ٤٣٣م بعد انشقاق استمر سنتين بعد مجمع أفسس المسكوني، ولذلك سميت "رسالة الاتحاد". وهذه الرسائل الثلاثة تُرجمت إلى العربية ونشرها مركز دراسات الآباء بالقاهرة سنة ١٩٨٨م في كتاب واحد. وطبعت طبعة ثانية سنة ٢٠٠١م.

٣- كما نشر المركز باقي الرسائل على أربع أجزاء.

قبل صراعه مع نسطور كتب القديس كيرلس أعمال هامة ضد الهرطقات القديمة من ضمنها كتاب "**الكنز في الثالوث القدوس والمُساوي**".

Θησαυρός περί ἁγίας καί ὁμοουσίου τριάδος"

وفيما بعد صار عنوانه: الكنوز أو كتاب الكنوز، وهو موجود في PG 75, 656-9، وتمت الترجمة عن النص اليوناني الموجود في سلسلة آباء الكنيسة اليونانيين ΕΠΕ إصدار τό Βυζαντιόν في مجلدين ΕΠΕ6,9-507 و ΕΠΕ7,8-540.



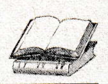
وهذا العمل يحتوي على ٣٥ مقالة: يتناول فيها الحديث عن الآب في المقالات (١ . ٣) ويتحدث عن الابن في المقالات من (٤ . ٣٢)، والمقالتين من (٣٣ . ٣٤) قد تحدث فيها عن الروح القدس، أما المقالة ٣٥ فقد خصصها لشواهد كتابية عن أن الإبن مولود من الآب وليس مخلوقًا[١].

أسلوب القديس كيرلس في هذه المقالات هو عرض رأي الهراطقة ثم يقوم بالرد مستخدماً إذا اقتضى الأمر مبررات منطقية وشواهد كثيرة من الكتاب المقدس ومن كتابات الآباء خاصةً كتابات القديس أثناسيوس ضد الأريوسيين وأعمال الآباء الكبادوك وآخرون. ويعتبر هذا الكتاب من أقوى الكتب التي كُتبت ضد الأريوسيين. والأغلب أن هذا العمل كتبه القديس كيرلس قبل عام٤٢٥م. والقديس كيرلس في شرحه لإنجيل يوحنا الذي كُتِب قبل عام ٤٢٩م قد ذكر في شرحه للإصحاح الأول، الفصل السابع، ما يلي: ""أما عن أزلية **الكلمة** مع الآب، فقد ذكرت ما فيه الكفاية في هذا الكتاب، وفي الكتاب المعروف باسم ""الكنز""، ولذلك أكتفي بما ذكرت...""[٢]. وبناء على ذلك، فإن هذا العمل قد كتبه قبل ٤٢٥م وعلي الأغلب قبل حواره حول الثالوث الذي أرسله أيضاً لنفس الشخص الذي أرسل له كتاب الكنوز، هو الأخ نيميسينوس Νεμεσίνος ربما لأنه وجد هذا العمل صعباً في عرضه للمحتوى، فكتب عمله الثاني حول الثالوث في صورة حوار بينه وبين شخص أسماه أرميا، فجاء في سبعة حوارات أكثر وضوحاً ورصانةً. وقد قام المركز الأرثوذكسي بترجمة هذا الحوار بواسطة الدكتور جوزيف موريس فلتس على أجزاء، وسوف يتم إصداره في مجلد واحد قريبًا.

الجدير بالذكر أنه توجد مخطوطة تحتوي على كتاب الكنوز تُدعى مخطوطة *3_Leningrad`s Manuscript 1141* في المركز الثقافي القبطي، وسوف نقارنها

1- Στυλιανός Γ. Παπαδόπουλος, ο ΑΓΙΟΣ ΚΥΡΙΛΛΟΣ ΑΛΞΑΝΔΡΕΙΑΣ, Βιος, Θεολογία, Χριστολογία, Ἑρμηνευτική, Αποστολική Διακονία, Ἔκδοση Α. 2004, σελ. 48.

٢- شرح إنجيل يوحنا، الإصحاح الأول، الفصل السابع، ص ٨٨.

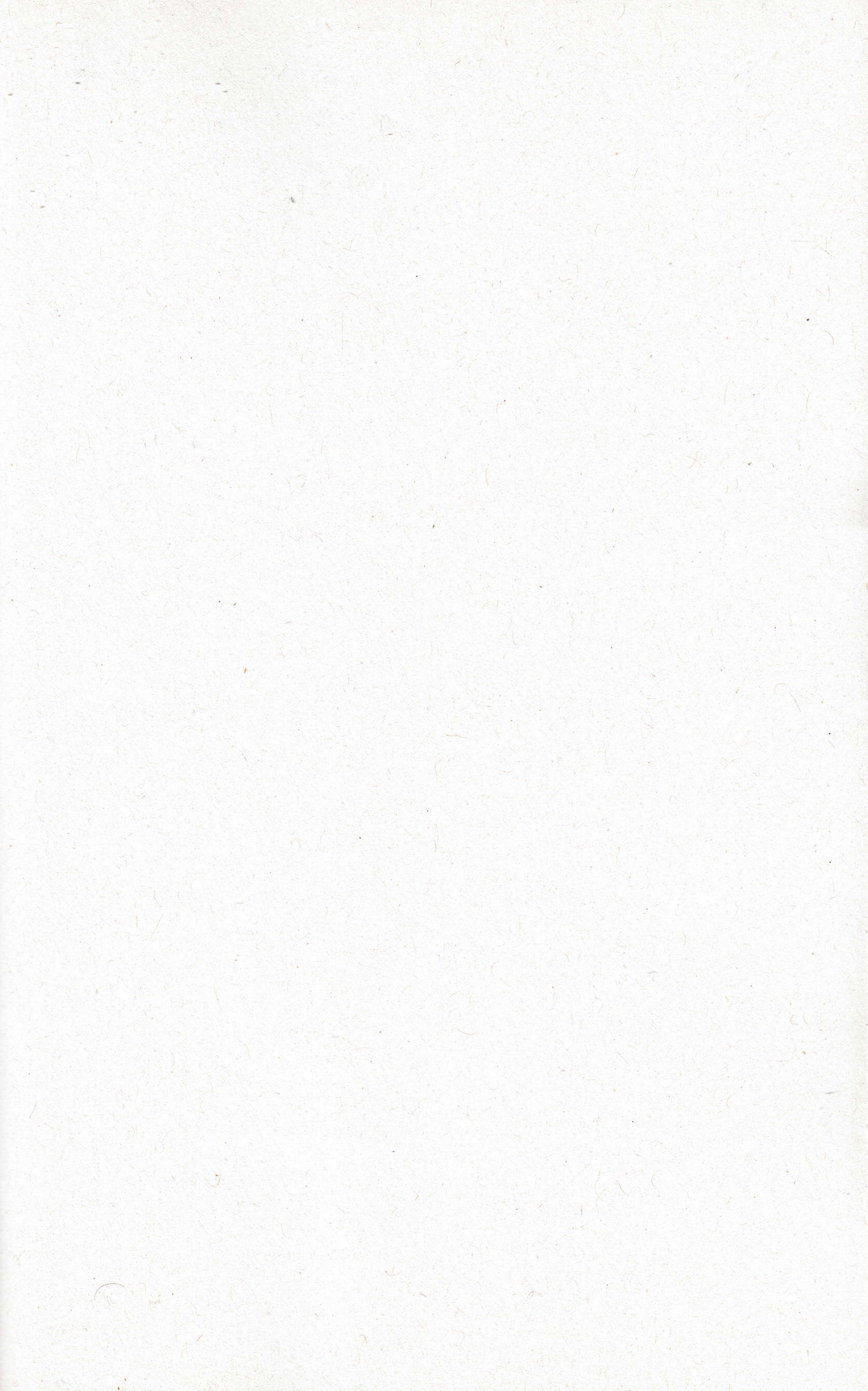


مع النص الذي ترجمناه من المجلدين اليونانيين الثامن والتاسع الصادرين عن ΕΠΕ وهذا يتطلب جهداً شاقاً ونصلي أن يعطينا الرب بركة إتمامه في كتاب منفصل بنعمة المسيح.

التعليم عن الثالوث بحسب تعليم القديس كيرلس

سوف نقوم بمناقشة الأُسس اللاهوتية الخاصة بالتعليم عن الثالوث الآب والابن والروح القدس، كما تسلمته الكنيسة من الرسل، وعبَّر عنه القديس كيرلس عمود الدين البطريرك الرابع والعشرون في كتابه الكنوز في الثالوث القدوس والمساوي، وذلك من خلال تقسيم هذه الأسس إلى **ثلاثة أقسام**. نتناول في **القسم الأول** منها التعليم عن الثالوث بوجه عام، وفي **القسم الثاني** نتناول التعليم عن الابن، وفي **القسم الثالث** نعرض التعليم عن الروح القدس، وذلك من خلال مجموعة من العناصر في كل قسم تسمح بالعرض الواضح لهذا التعليم[١].

١- أنظر:
ΤΟ ΚΩΝΣΤΑΝΤΙΝΟΥ ΗΛ. ΔΙΑΚΟΥΡΑ, ΜΥΣΤΗΡΙΟΝ ΤΗΣ ΑΓΙΑΣ ΤΡΙΑΔΟΣ ΚΑΤΑ ΤΟΝ ΘΗΣΑΥΡΟΝ ΤΟΥ ΚΥΡΙΛΛΟΥ ΑΛΕΞΑΝΔΡΕΙΑΣ, Σπουδή στήν ἀντιαρειαωική τπιαδολογική διδασκαλία τοῦ κυρίλλου Ἀλεξανδρείας, ΑΘΗΝΑ 2005



القسم الأول

التعليم عن الثالوث بوجه عام

نعرض للتعليم العام عن الثالوث من خلال العناصر الآتية:

١ــ الآب بداءة ἀρχή وعِلة αἰτία الوجود الأقنومي للابن والروح القدس.

٢ــ الحلول أو الاحتواء أو السُكنى المتبادلة Ἡ ἀλληλοπεριχώρηση لأقانيم الثالوث بغير امتزاج أو اختلاط.

٣ــ خواص طبيعة الثالوث وتمايزها عن الجوهر الإلهي.

٤ــ التمييز بين ما يخص الأقانيم الثلاثة وما يخص الطبيعة الإلهية.

٥ــ مفهوم أسماء الأقانيم ودلالاتها:

أ- الأسماء الإلهية كدلالة وإعلان δηλωτικά لخواص طبيعة الله الثالوث، وليس لجوهره.

ب- أسماء أقانيم الثالوث كدلالة وإعلان للعلاقة الوجودية لهم.

جـ - المفهوم الحقيقي لمصطلح "غير الصائر ἀγένητος".

٦ــ إمكانية معرفة الله الثالوث:

أ. عدم إمكانية إدراك الثالوث بحسب جوهره.

ب. إمكانية إدراك الثالوث بحسب أفعاله.

أولاً: الآب بداءة ἀρχή وعِلة αἰτία الوجود الأقنومي للابن والروح القدس

الرأي العقيدي بخصوص اعتبار الآب بداءة اللابداءة "ἀνάρχου ἀρχή" للابن والروح القدس يمثل واحداً من التعاليم الأساسية عن الثالوث عند القديس كيرلس الأسكندري في شرحه للعلاقة الأزلية بين الآب والابن والروح القدس. وقد شرح هذا التعليم رداً على موقف الأريوسيين الرافض لأزلية الابن والروح القدس؛ لأنهم يدعون أن المساواة في الأزلية تحتم . حسب إعتقادهم . الكلمة ليس إبنًا، إذ يقولون: "إن لم يكن هناك زمن لم يكن فيه الابن موجوداً، بل هو أبدي وكائن مع الآب، عندئذٍ عليكم أن لا تدعوه ابناً، بل أخاً (للآب)"[1] (الكنوز ٤ : ٩). ويرد القديس كيرلس عليهم مؤكداً أن الآب والابن ليسا من بدايةٍ كانت موجودةً من قبل حتى نعتبرهما أخَّين، فيقول: "الآب والابن لم يُولدا من بدايةٍ كانت توجد من قبل حتى يمكن أن نعتبرهما أخَّين. لكن بداية الابن هو الآب[2] الذي وَلَدَ الابن، ويظل آباً ولا يُقال إنه ابنٌ لأي أحد. والابن هو الابن، ويظل على ما هو عليه، ولا يُقال إنه أخٌ لأي أحد بحسب الطبيعة. وعلى ذلك، فأي موضع يمكن للأخوّة أن تأخذه بينهما؟" (الكنوز ٤ : ١٢). وهناك اختلاف بين البداية الزمنية للمخلوقات، والآب الذي هو البداية الأزلية للابن.

١- يفند القديس أثناسيوس هذا الرأي قائلاً: "فالآب والابن لم يولدا من أصل سابق عليهما في الوجود، حتى يمكن اعتبارهما أخوين، ولكن الآب هو أصل الابن، وهو والده والآب هو آب، وهو لم يكن ابناً لأحد، والابن هو ابن وليس بأخ". المقالة الأولي ضد الأريوسيين، عربها عن اليونانية أ. صموئيل كامل عبد السيد ود. نصحي عبد الشهيد، إصدار المَركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية طبعة ثالثة سنة ٢٠٠٢م، المقالة الأولى ص٥٨.

٢- حقيقةُ أن الآب هو بدء الابن يقولها بكل وضوح القديس كيرلس في شرحه لإنجيل يوحنا موضحاً أن **الكلمة** دُعي الابن لأنه مولود من البدء، ولا ذِكر لكلمة أخٍ، إذ يقول: "وكما أن هذه الأشياء (الشمس - الشعاع، النار - الحرارة) التي تصدر بعضها عن البعض تجعل وجودها معاً أمراً ضرورياً لا انفصال فيه بل تظّل دائماً بمصدرها وتحتفظ بطبيعة المصدر، هكذا الأمر مع الآب والابن. لأننا نعتقد ونقول إنه في الآب ومن الآب. وهذا يعني أنه ليس كائناً غريباً أو جاء في الترتيب بعد الآب، بل هو فيه ومعه دائماً. ويشرق منه دائماً حسب الميلاد الإلهي الأزليّ غير المُدرَك. ولذلك وصف القديسون الله الآب أنه هو "بدء" الابن، وكانوا يقصدون من ذلك أنه مع الآب". أنظر المجلد الأول، المرجع السابق، الإصحاح الأول ص ٤٤. والقديس غريغوريوس اللاهوتي يشرح هذا الأمر بكل وضوح، قائلاً: "فما لا مبدأ له أزلي. ولكن ما هو أزلي ليس بالضرورة بلا مبدأ، ما دام ذلك يتعلق بالآب الذي هو المبدأ. فليسا بلا مبدأ من حيث العلة، ولكنه من الظاهر أن هذه العلة غير سابقة لمَنْ كانا معلولين عنها كما لا تكون الشمس سابقة لنورها. فهما بغير مبدأ من حيث الزمن .... إذ لا يخضع للزمن مَنْ يصدر عنهم الزمن (عب ١: ٢)". غريغوريوس النزينزى، الخطب ٢٧ - ٣١ اللاهوتية، نقلها من اليونانية إلي العربية الأب حنا الفاخوري، منشورات المكتبة البوليسية، طبعة اولي١٩٩٣، الخطاب ٢٩ ص ٨٢.

ويقول القديس كيرلس: ''بالنسبة للمخلوقات، البداية هي الزمن، بينما بالنسبة **لكلمة** الله، الكائن منذ الأزل، فإن البداية ἀρχή هي فقط أباه الأزلي الذي ليس له بداية، طالما أنه كائن معه أزلياً'' (الكنوز ١٥: ٥٠).

والتعبير عن الآب بأنه بداية اللابداية للابن ''ἀνάρχου ἀρχή'' هو تعبير يصف العلاقة السببية الأزلية بين الآب والابن، أي العلاقة السببية التي توجد بين الآب كعلةٍ أزليةٍ، والابن كنتيجة أزلية لهذه العِلة، وبذلك فهو يخص المفهوم اللاهوتي للولادة الأزلية للابن من الآب: ''بالرغم من أن الابن يختلف عن أبيه، في أن الآب هو البداية بينما الابن يأتي من هذه البداية، إلاَّ أنه بالرغم من ذلك لم يتوقف عن أن يتطابق معه ويكون من نفس جوهره'' (الكنوز ٩: ٢).

ويؤكد القديس كيرلس على أن الابن المتجسِّد يدعو الآب بأنه أعظم ''μείζονα'' على أساس أنه بلا بداية ''ἄναρχον'' أو أنه علِةٌ لوجوده، وأن الآب ذاته هو بداية ''ἀρχήν'' لوجوده الأقنومي بحسب ولادته الأزلية منه: ''الابن مساوٍ للآب من جهة الجوهر ومتماثلٌ معه في كل شيء، لكنه يقول عن الآب إنه أعظم لأنه اتخذ الآب الذي بلا بداية ''ἄναρχον'' بدايةً له، فقط بسبب أنه يأتي منه، بالرغم من أنه كائنٌ أزليٌ معه'' (الكنوز ١١: ٤).

ونلاحظ أن ما قاله القديس كيرلس عن الابن، قاله أيضاً عن الروح القدس المنبثق من الآب، إذ يقول: ''هكذا نعتبر أن **كلمة** الله قد خرج منه بحسب الطبيعة منسجماً ومزروعاً فيه، بينما الروح منبثقٌ بحسب الطبيعة من الآب في الابن، يقدِّس ماسحاً الكل. بالتالي، لا يبدو الروح القدس من طبيعة غريبة عن طبيعة الله، بل يأتي منها ويوجد فيها بحسب الطبيعة. ومثلما ينتمي أصبع اليد لنفس جنس الجسد، لا يكون لليد جوهراً آخر غير هذا الجسد، فإذا كان الأمر على هذا النحو، فالروح بالتالي هو الله وليس شيئاً مختلفاً'' (الكنوز ٣٤: ٤).

هكذا يريد القديس كيرلس أن يشدد على أن الآب هو بداية اللابداية ''ἀνάρχου ἀρχή'' ليؤكد على أنه هو البداية ἀρχή والعلِة αιτία للوجود الأزلي لأقنومي الابن والروح القدس.



ثانياً: الحلول أو الاحتواء أو السُكنى المتبادلة
Ἡ ἀλληλοπεριχώρηση
لأقانيم الثالوث بغير امتزاج أو اختلاط.

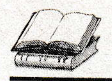
لقد أعطى القديس كيرلس أهميةً عظيمةً لمفهوم الاحتواء أو السُكنى المتبادلة للأقانيم الإلهية. إعتمادًا على نص يوحنا (١٤: ١٠): "أنا في الآب والآب فيَّ"، على أساس أن هذا النص يحدد بكل وضوح السُكنى المتبادلة على أساس المساواة في الجوهر الواحد "ὁμοούσιον" لكل من الآب والابن، لكن الأريوسيين فسروا هذا النص بمفهوم ما ورد في (أع ١٧: ٢٨) "به نحيا ونتحرك ونوجد". ومن وجهة نظرهم، من المستحيل أن يُحتوى الأعظم "μείζονος" أي الآب بواسطة الأصغر أي الابن الأدنى من الآب. وعبَّروا عن تفكيرهم الخاطئ هذا قائلين: "ليس غريباً أن يكون الآب في الابن والابن في الآب، طالما أن الكتب المقدسة تقول بالنسبة لنا: "لأَنَّنَا بِهِ نَحْيَا وَنَتَحَرَّكُ وَنُوجَدُ"(أع ١٧: ٢٨). إذن، فكما نحن نحيا ونتحرك ونوجد فيه، كما قيل، هكذا أيضاً الابن يُوجد في الآب. أيضاً كيف يمكن أن يُحتوَى الآب في الابن، إذا كان الآب أعظم من الابن؟ وكيف للابن الذي هو أصغر جداً من الآب أن يحتوي الآب، ويملأ هذا الذي هو أعظم منه؟" (الكنوز ١٢: ١).

ونلاحظ أن الرأي الهرطوقي عن عدم إمكانية الاحتواء المتبادل والسُكنى المتبادلة لأقنومي الآب والابن بسبب أن الواحد هو أعظم من الآخر هو رأيٌ يمكن قبوله عند القديس كيرلس لو كُنَّا ندرك الآب والابن بمفهوم الكائنات التي لديها جسد مادي، ويحتوي الواحد منها الآخر. وهو يعبِّر عن قناعته هذه بقوله: "لو ظننتم، أن الابن يُحتوَى في الآب كأنه جسد، فحسناً تبحثون كيف يدخل الواحد في الآخر، والعكس. لأنه بالنسبة لإناء مصنوع من الفخار أو أية مادة أخرى، نستطيع أن نقول، إنه لا يمكن للأكبر أن يُحتَوى في الأصغر، ولا أيضاً الأصغر في الأكبر" (الكنوز ١٢: ٢). لذا يؤكد لهم القديس كيرلس أن الوجود الإلهي هو غير مادي وغير جسدي حيث لا نجد في الأقانيم ما هو مناسب للأجساد كالحجم والطول والعرض وعدم المساواة وعدم المشابهة، ولذلك لا يمكن أن يُدرَك الاحتواء المتبادل



للأقانيم الإلهية بنفس الطريقة التي تسري على المخلوقات المادية. ويقول: "لكن بالنسبة لغير الجسديات، والكائنات غير المصنوعة من مادةٍ ما بحسب طبيعتها، أيُ مبررٍ يسند اقتراحكم؟ وما نقوله الآن متغاضين عن هذا الذي تدركونه عن جهل، إذ أنتم في ضلالٍ، إذ آمنتم بأن الآب هو أكبر من الابن، بينما الحقيقة ليست هكذا، لأن الابنَ معادلٌ للآب في كِل شيء" (المرجع السابق).

وعندما يفنِّد القديس كيرلس تفسيرهم الخاطئ لنص (يو ١٤: ١٠): "أنا في الآب والآب فيَّ" بقولهم إنه يتطابق مع ما ورد في (أع ١٧: ٢٨) "به نحيا ونتحرك ونوجد"، يشدد القديس كيرلس على أن الابن يوجد "في الآب"، والآب "في الابن" بسبب إتيان الابن أزلياً مِن جوهر الآب، فيقول: "وجود الابن في الآب، والآب في الابن يجب أن يُدرَك بحسب الطريقة الآتية: الابن أتى من جوهر الآب دون أن يأتي مثل المخلوقات من العدم، أو أن يكون وجوده من الخارج، لكنه هو ذاته مولود من جوهر الآب. مثلما يخرج الشعاع من النور أو النهر من منبعٍ ما" (الكنوز ١٢: ٦). فمجيء الابن من الآب لا يجب أن يُدرك بمفهوم مجيء الكائنات المخلوقة من العدم إلى الوجود، ولا بمفهوم أنه نال الوجود مِن الخارج وبطريقة ليست لها علاقة مع جوهر الآب. الابن مولودٌ ولادةً أزليةً من الآب، أتى من جوهره، وهكذا هو واحد مع الآب في الجوهر "ὁμοούσιον"، وكائن أزلياً في الآب "ἐν τῷ πατρί". لذا يستمر القديس كيرلس في شرحه لهذا الأمر، قائلاً: "ولذلك يستطيع أولئك الذين يرون الابن أن يروا الآب أيضاً، ويدركوا منه الملمح الخاص لذاك الذي ولده، بمعني أنه بسبب أن كيان الابن بالكامل يأتي من جوهر الآب، هكذا يوجد في الآب، والعكس أيضاً الآب يوجد في الابن؛ لأن الابن هو ابنٌ بحسب الطبيعة، وهو الله **الكلمة** الذي أتى من الآب. بمعني أنه (الآب) يوجد في الابن مثل الشمس في الشعاع الآتي منها، والعقل في الكلمة، والنبع في النهر الذي يتدفق منه. فلأن الملمح الخاص لجوهر الآب وهيئة الإلوهية توجد في الابن؛ لذا يظهره للكل في ذاته" (الكنوز ١٢: ٦). إذن الآب أيضاً يوجد في الابن "ἐν τῷ γἱῷ" بمفهوم أنه آب الابن بحسب الجوهر والذي أتى منه الابن



أزلياً. والابن بالنسبة للآب هو الوليد الأصيل "γνήσιον γέννημα" لجوهر الآب، الذي يحمل في ذاته الآب، وبهذه الطريقة هو صورة الآب المنظورة: "كما في أيقونةٍ مرسومةٍ رسماً ممتازاً حتى ما أن يراها أحدٌ حتى يُعجب بهيئة الملك، وكل ما هو موجود فيه، فيريد أن يراها ويملكها، ولا يكتفي بذلك، بل يتمنى في نفسه أن يرى أيضاً الملك نفسه. كان يمكن للأيقونة أن تقول بفصاحةٍ له، مَنْ يراني يرى الملك، وأنا أيضاً والملك نكون واحداً، واحداً في كل ما يخص التماثل وبدقة كبيرة، كذلك أيضاً، أنا في الملك والملك فيَّ، من جهة شكل الهيئة (لأن الأيقونة تحمل هيئة ذاك وهيئة الأيقونة حُفِظت في ذاك)، هكذا يقول الابن أيضاً: "اَلَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ" (يو ١٤: ٩)، و"أَنَا وَالآبُ وَاحِدٌ" (يو ١٠: ٣٠)، و"أَنَا فِي الآبِ وَالآبَ فِيَّ" (يو ١٤: ١١). أي أن الابن يأخذ ملمح جوهر الآب الخاص الذي ليس له مثيل، إنه أيقونة الآب الصادقة وشكل ذاك الذي ولده مُظهراً الوالد في ذاته "τόν γεννήτορα" (الكنوز ١٢: ١٠).

الاحتواء أو الحلول المتبادل بين الآب والابن يظهر أيضاً بوضوح بحسب القديس كيرلس من مفهوم الأسماء: "آب"، و"ابن الله"، فالآب يُدعى آب، وهذه التسمية تعبِّر عن وجود الابن. بهذا المفهوم لا يمكن أن يوجد الآب لو لم يوجد الابن المولود منه أزلياً. وكذلك تسمية الابن تستلزم وجود الآب. طالما الآب يعلن وجود الابن، والابن يعلن وجود الآب: "يُدعى الله آبٌ؛ لأن وجود الابن يُدرَك بهذه التسمية. لأنه لن يكون آباً إن لم يكن لديه ابنٌ أتى منه. والعكس، تسمية الابن تشير إلى وجود الآب. لأن الواحد يُعلَن بعلاقة مع الآخر. إذن، فبما أن كل واحد من الإثنين يوجد حتماً في الآخر، ويُدعى آب مع هذا الذي ولده، وأيضاً ابن مع ذاك الذي ولده، عندئذٍ فهو يقول الحق حين قال: "أَنَا فِي الآبِ وَالآبَ فِيَّ" (الكنوز ١٢: ١٢).

وقد شرح القديس كيرلس مفهوم الاحتواء أو الحلول المتبادل لأقانيم الثالوث للآب والابن في إطار الإشارة إلى التفسير الخاطئ للأريوسيين لنص (لو ٢: ٥٢)، إذ يقول: "أمَّا يسوع فكان يتقدم في الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس"، حين تساءل الأريوسيون قائلين: "كيف يمكن أن يكون معادلاً للآب من جهة

الجوهر، هذا الذي هو غير كامل؟ لأنه يبدو أنه يتقدم في الحكمة، بينما الآب الذي لديه كل شيء كامل، لا يقبل إرتفاءً أو تقدماً" (الكنوز ٢٧: ١).

يجيب القديس كيرلس، موضحاً الفهم السليم لهذه الآية، ومعبراً عن إيمان الكنيسة فيما يخص الاحتواء المتبادَل، قائلاً: "غير الكامل يسعى دائماً نحو الكمال غير مكتفٍ بوضعه الأول الموجود فيه، بل يطلب دائماً الأعظم والأحسن. فمثلما يتقدّم الناس في الحكمة آخذين فضائل أخرى فيتحسّنون تدريجياً، هكذا ننطلق إلى كمال الحياة. لكن **كلمة** الله الذي يوجد كاملاً في الآب أين يذهب؟ وأيُ نمو يمكن أن يقبله، طالما هو كامل حيث إن كل الآب فيه، وهو بالكامل في الآب؟ لأنه إذا كان هو ملء كل الآب (دعنا نقول هذا الأمر كمثال) وكان قد قَبِلَ تقدماً ما أو نمواً، عندئذٍ لَخَرَجَ من الآب وصار أعظم من ذاك الذي كان موجوداً فيه، ولَمَا ظل كاملاً في كاملٍ ولديه الكمال فيه. بالتالي لم يتقدم بكونه **الكلمة**، بل هو كاملٌ، ويظل هو نفسه بدون أن يتغيَّر" (الكنوز ٢٨: ٧).

ويؤكد القديس كيرلس في شرحه للاحتواء المتبادل لأقانيم الثالوث على عدم وجود امتزاج أو اختلاط أو تطابق بين أقانيم الثالوث، بل هناك تمايز تام، فالآب ليس هو الابن والابن ليس هو الآب، فيقول: "بالتأكيد، الآب يُوجد في الابن والابن يوجد في الآب، لكنهما ليسا متطابقين ولا هما واحداً في العدد. لأن الآب يوجد بخاصيته، والابن بخاصيته، وهذا هو الاختلاف الوحيد للآب عن ذاك الذي ولده. لأن الآب كائنٌ بذاته، وليس هو الابن، والابن كائنٌ بذاته وليس هو الآب" (الكنوز ٧: ٣٦).

واضحٌ إذن أن تأكيد القديس كيرلس على أن اعتراف الإيمان بإله واحد، إنما يخص وحدة جوهر أقانيم الثالوث القدوس، وليس التأكيد على الإيمان بأقنوم إلهي واحد. الأمر الذي نادى به سابليوس الهرطوقي[1]، لهذا نجده يكتب معبراً عن إيمان الكنيسة بالأقانيم الثلاثة والجوهر الواحد، قائلاً: "الآب والابن هما واحدٌ من جهة

١- كان سابيليوس كاهناً في برقة في الخمس مدن الغربية في ليبيا، نشر تعاليمه في روما في أوائل القرن الثالث الميلادي (حوالي ٢١٠م) نادى بأنه لا يوجد تمييز حقيقي بين أقانيم اللاهوت، ويقول إن الله هو أقنوم واحد يقوم بأدوار مختلفة. فالآب يقوم بدور الابن عند التجسد، وهو نفسه يظهر بعد ذلك باسم الروح القدس.



الطبيعة، لكنهما اثنان من جهة العدد، ليس بمفهوم أن شيئاً واحداً جُزِّء إلى جزئين، دون أن يكون بينهما شركة وعلاقة، ولا أيضاً الواحد فيهما يُدعىَ بإسمين للدرجة التي فيها قوة الإثنين تبدو فقط في التسمية. وليس أيضاً بمفهوم أنه هو ذاته أحياناً يدعىَ آب ومرة أخرى ابن؛ لأن هذا هو بمثابة تعليم سابليوس، لكنهما اثنان من جهة العدد. لأن الآب هو دائماً آبٌ دون أن يتغير أبداً إلى ابنٍ، والابن إطلاقاً لا يتغير إلى آب" (الكنوز ١٢: ٧).

والغرض من تشديد القديس كيرلس على العدد حين يشرح الثالوث ليس هو تجزئه الثالوث إلى أجزاء، بل لإظهار تمايز الأقانيم وخواصهم الأقنومية. فالآب هو آب، والابن هو ابنٌ، والروح القدس هو الروح القدس بدون أي امتزاج أو اختلاط أو انفصال. فالله ليس ثلاثة أشخاص[1] (أقانيم) مثل أشخاص البشر، ولكن الأقنوم هو الشخص الذي لا يوجد منفرداً أو لا يوجد مستقلاً وحده، بل كائنٌ في شخص آخر، وهكذا الأقانيم الثلاثة هم ثلاثة أشخاص يجمعهم الجوهر الإلهي الواحد. ولأن الجوهر الإلهي واحد، فإن كل أقنوم من أقانيم الثالوث كاملٌ وكائنٌ بسبب اشتراكه في الأقنومين الآخرين. بالتالي لا نادي بثلاثة آلهة بل بإله واحد لأن كل أقنوم ليس إلهاً مستقلاً، ولكنه إلهٌ بسبب اشتراكه في الجوهر الواحد والطبيعة الواحدة مع الأقنومين الآخرين. وهذا هو الاحتواء المتبادل بين الأقانيم الثلاثة، فالآب هو الله ولكن ليس بدون الابن والروح القدس. والروح القدس هو الله ولكن ليس بدون الآب والابن.

١ - نتجنب في شرحنا للثالوث مصطلح "ثلاثة أشخاص" ونفضل مصطلح "ثلاثة أقانيم" حتى لا يظن أحد أننا نعبد ثلاثة آلهة، لكن هم ثلاثة أشخاص يجمعهم الجوهر الواحد والطبيعة الواحدة ولا يوجد الواحد بمعزل عن الاثنين الآخرين، لذا نؤمن بإلهٍ واحد مثلث الأقانيم.

ثالثاً: خواص أقانيم الثالوث، وتمايُزها عن الجوهر الإلهي

إنَّ فَهم خواص الطبيعة الإلهية والتي تمثل أفعال الثالوث غير المخلوقة وتمايُزها عن الجوهر الإلهي هو الأساس اللاهوتي لإدراك عقيدة الثالوث. فالخواص لا تعبِّر عن الجوهر، وإلاَّ سيكون لدينا جواهر كثيرة للكائن الواحد (أنظر الكنوز ٣١: ٢٧)، "وإذا كنا نستخدم كثيراً من الأسماء عن الله، إلَّا أن كل اسمٍ من هذه الأسماء لا يُظهِر ماذا يكون الله في الجوهر، بل يقتصر على أن يعلن إمَّا ما لا يكون، أو يعلن عن علاقته بشيءٍ يميِّزه. ف "عدم الفساد"، و"عدم الموت"، يُظهران ما لا يكون، بينما "الآب"، أو "غير المخلوق" يكشفان عن أنه والدٌ مميَّزاً بذلك عن الابن" (أنظر الكنوز ٣١: ١٦).

ويذكر القديس كيرلس نص (١ تس ٣: ١١): "والله نفسه أبونا وربنا يسوع المسيح يهدي طريقنا إليكم" ليشدد على أن النعمة يمنحها الآب بواسطة الابن، وهذا يدل على الوحدة بين الآب والابن، فعندما يعمل الابن يعمل الآب وعندما يذهب الابن إلى القديسين يذهب أيضاً الآب "إليه نأتي وعنده نصنع منزلاً" (يو ١٤: ٢٣). ويشرح ما جاء فى رسالة بولس الرسول إلى أهل تسالونيكى الأولى (١ تس ٣: ١١) فيقول: "فلو لم تكن هناك أيةُ وحدةٍ بين الآب والابن، هل كان يمكن أن يقول "يهديان طريقنا إليكم" لكي يعلن الاثنين؟ لكنه لم يفعل ذلك، بل محافظاً بوضوح على وحدة الآب والابن، وضع "يهدي" في صيغة شخص مفرد، ليس كأن الآب يمنح بمفرده، والابن بمفرده، لكن بسبب أن المواهب تُرسل للقديسين من الآب بواسطة الابن بالروح القدس، أي من إلوهية واحدة" (الكنوز ١٢: ١٩).

إذن فهناك مواهب كثيرة تُعطى بواسطة الثالوث القدوس للبشر، وهذا يعني عند القديس كيرلس وحدة وتطابق الفعل الإلهي أو الأفعال الإلهية في الأقانيم الثلاثة. لذا نراه يشدد على هذا الأمر وهو يفسر النص الوارد في رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية: "نعمة لكم وسلام من الله أبينا والرب يسوع المسيح" (رو ١: ٧)، ويتساءل، كيف لا يكون إلهاً مَنْ يمنح مع الآب العطايا الإلهية للقديسين؟ (أنظر الكنوز ٣٢: ٢).

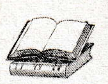


ويحذرنا القديس كيرلس من أنه من غير الممكن أن يُدرَك فعل الله كأنه مثل فعل البشر، أو أن نطابق الفعل الإلهي بنفس الطريقة مع الفعل الإنساني، فيقول: "نحن لا نقبل بالتأكيد أن يكون هناك تطابقٌ بين فعل الله الطبيعي وفعل المخلوق، فلا نرتفع بالمخلوق إلى الجوهر الإلهي، ولا نهبط بالطبيعة الإلهية السامية إلى مكانة المخلوقات" (الكنوز ٣٢: ٢).

وطالما بالنسبة للموجودات والكائنات نلاحظ الوحدة والتناظر بين فعلهم وقوتهم، فالأفعال التي تقوم بها المخلوقات تعبِّر عن قوتها المحدودة إذ تتناسب هذه الأفعال مع كونها مخلوقات محدودة، ومن المنطقي التحقق من هذه الحالة التي تبرهن على الوحدة والتطابق لنوعية طبيعة هذه الكائنات: "لأن الفعل بالنسبة للمخلوقات يتناسب مع قوتها، أي من نفس نوعية طبيعة المخلوقات المحدودة. على الجانب الآخر عندما يقول إشعياء النبي: "يا رب تجعل لنا سلاما" (إش ٢٦: ١٢)، يُظهِر أن الابن يمنح السلام مع الآب. إذن هو الله وإلهٌ حقيقي، هذا الذي يفعل كل شيء بالله الآب ومع الآب" (الكنوز ٣٢: ٢).

فسرُّ الوحدة هنا بين الآب والابن هو الاشتراك في طبيعة واحدة إلهية غير مخلوقة لها أفعال واحدة مشتركة للأقانيم الثلاثة التي تشترك في طبيعة وجوهر واحد. ويشرح هذا الأمر القديس كيرلس بكل وضوح في المقالة الثامنة، مبرهناً على أن الكائنات التي تقوم بنفس الفعل، تستخدم نفس القدرات الطبيعية، "فالكائنات التي لها نفس الطبيعة تستخدم خواصاً معينةً. والكائنات التي لها نفس الجوهر تكون متماثلةً فيما بينها في كل شيء. إذن، فبما أن فعل الآب والابن متماثلان، وفي كل شيء تظهر القوة ذاتها، فالواحد ليس له جوهر مختلف عن الآخر. وإذا كان الأمر على هذا النحو، فالابن هو مثل الآب، من جهة نفس الجوهر وليس صورةً لإرادته" (الكنوز ٨: ٧).

أيضاً يشدد القديس كيرلس على التمييز بين الجوهر الإلهي والفعل الإلهي، وذلك حين يميِّز بين ولادة الابن من الآب وخلق العالم بواسطة الآب، إذ يحثنا على ضرورة التمييز بين فعل "خَلَقَ أو صَنَعَ. ποιεῖν"، وفعل "وَلَدَ. γεννᾶν" إذ أن



الأول يُعلِن فعل الله الخلاق والثاني الولادة من جوهر الله الآب: "إن كان الخلق هو ذاته الولادة، لأمكن لمن يلد أن يخلق مَن يولد، ومَن يولد يلد مَن يُخلق. فإذا كان الخلق هو نتيجة فعل، بينما الولادة هي عمل الطبيعة، إذن فالطبيعة والفعل ليسا هما ذات الشيء، وعلى ذلك لا يكون الخلق هو ذاته الولادة" (الكنوز ١٨: ١٧).

هكذا يلد الآب، وهذه الولادة هي ولادة "بحسب الطبيعة". أمّا الخلق بواسطة الابن، فهو عملٌ مِن صُنع الخالق بواسطة الابن، وهذا العمل يندرج ضمن أفعال أقانيم الثالوث القدوس. وبالرغم من أن التمييز بين الولادة "γεννᾶν"، والخلق بواسطة الابن "κτίζειν δι› γίοῦ" يعلن وجود التمييز بين الجوهر الإلهي والفعل الإلهي، إلاَّ أن هذا التمييز يستحيل أن يلغي بساطة الثالوث القدوس (أنظر الكنوز ١١:١١).

ويفترض القديس كيرلس أنه لو كان التطابق وارداً بين طبيعة الله وفعله الخلاق، لنتج عن ذلك تطابق طريقة وجود الكائنات المخلوقة مع طريقة الولادة الأزلية للابن من الآب، الأمر الذي يجعل الابن كأنه آبٌ، طالما أن الابن هو خالق مع الآب وفق الكتب المقدسة. ومن جهة أخرى يكون الابن كائناً مخلوقاً طالما يُوجد بنفس الطريقة التي وُجدت بها المخلوقات، ويسخر القديس كيرلس من تلك النتائج العبثية لهذا التطابق الذي ينادي به محاربو المسيح (أنظر الكنوز ١٨: ٧).

ويبرز القديس كيرلس دائماً إدراك الوجود الأزلي لأفعال أقانيم الثالوث المشتركة والتمييز بينهما وبين الجوهر الإلهي. هكذا بدافع مواجهة رأي إفنوميوس بأن مصطلح غير المخلوق أو غير الصائر "ἀγενητος" يعبِّر عن جوهر الله، فيشرح القديس كيرلس شرحاً وافياً خواص طبيعة الله والتمييز بينها وبين ما يخص كل جوهر. فـ"غير المخلوق" هي صفة لله والتي تعبِّر عن أنه ليس هو مخلوق مثل المخلوقات، بمعني أن الله كائن ليس بالطريقة التي وجُدت بها الكائنات المخلوقة بواسطة الخلق. هكذا كلمة "غير المخلوق" هي صفة لجوهر الله، وليست تمثل أو تُكوِّن جوهر الله، فهي تمثل الملمح غير المخلوق لهذا الجوهر. وبالرغم من أن كلمة "غير المخلوق" تُدرَك

بغير انفصال عن جوهر الله، إذ تحدد ملمحه غير المخلوق، إلاَّ أنها لا يمكن أن تُدرَك على أنها تطابق جوهر الله. هذا المفهوم يبرهن عليه القديس كيرلس بوضوح من الطبيعة المخلوقة حيث أن جوهر المخلوقات لا يُدرك كموجودات من خلال ما تتميز بها، فالمرءُ ـ كما يقول القديس كيرلس ـ لا يمكنه أن يميِّز بين البجع والثلج من حيث طبيعة كلٍ منهما، إذا عَلِمَ فقط أن كلاهما لونه أبيض؛ لأن اللون الأبيض لا يُدرَكُ كجوهرٍ، لكن كملمح يصف الجوهر" (أنظر الكنوز ٣١: ٧).



رابعاً: التمييز بين ما يخص الأقانيم الثلاثة، وما يخص الطبيعة الإلهية

التمييز بين الخواص الأقنومية وخواص طبيعة الثالوث هو أحد التعاليم الأساسية للقديس كيرلس في شرحه لسر الثالوث. فالخواص الأقنومية تنتمي فقط للأقانيم الإلهية. وحين شرح نص (يو ١٦: ١٥) "كل ما للآب هو لي"، أكد على أن الأقانيم هي واحد في الجوهر ولها خواص الطبيعة الواحدة وأفعال إلهية واحدة، إذ شدد على أن الابن هو **الكلمة** الأزلي "شعاع" الآب، ولديه كل ما للآب بحسب الطبيعة إلاَّ صفة الأبوة التي تنتمي فقط لأقنوم الآب: "لا يُقال إن الابن قد أخذ من الآب لأنه لم يكن لديه (لأنه لديه بحسب الطبيعة كل ما للآب فيما عدا الأبوة، إذ أنه كلمته وشعاعه)" (الكنوز ٢٣: ٣).

ويبرز القديس كيرلس موضوع التمييز بين الخواص الأقنومية وخواص الطبيعة الواحدة للثالوث حين يشدد على أن الآب هو البداية "ἀρχῆ" للوجود الأزلي لأقنوم الابن، إذ أن الابن يأتي من الآب (البداية) بعلاقة سببية: "بالرغم من أن الابن يختلف عن أبيه، في أن الآب هو البداية بينما الابن يأتي من هذه البداية، إلاَّ أنه بالرغم من ذلك لم يتوقف عن أن يتطابق معه ويكون من نفس جوهره" (الكنوز ٩: ٢).

وعلى ذلك، فكون أن الآب فقط هو البداية "ἀρχῆ" والعلِة "αἰτία" لأقنوم الابن والروح القدس، يبرهن على أن البداية والعلِة هما صفتان إقنوميتان للآب فقط، الأمر الذي يؤكد على التمييز بين الصفات الأقنومية وصفات طبيعة أقانيم الثالوث الواحدة.

خامساً: مفهوم أسماء الأقانيم ودلالاتها

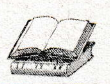
إن الأسماء أو الألقاب التي تذكرها الكتب المقدسة عن الله ليست هي في حد ذاتها جواهر، بل هي صفات لله، فهي تُظهِر خواصه، وإلاَّ كما يقول القديس كيرلس يتكوَّن الله من جواهر كثيرة، فالكتب المقدسة تقول عن الله إنه ملكٌ، وربٌ، وغيرُ مائتٍ، وغيرُ منظورٍ، إلى غير ذلك من آلاف الصفات الأخرى. فإذا كانت كل صفة من هذه الصفات، تُدرَك كجوهر، فكيف لا يكون مركباً مَن هو في الأساس بسيط؟ الأمر الذي يعد التفكير فيه عبثٌ من العبث (أنظر الكنوز ٣١: ٣)[1].

من الواضح أن هذه الصفات أو الأسماء المحددة تعلن خواص الثالوث الطبيعية أو الجوهرية والتي توجد "بحسب الطبيعة" جوهرياً فيه وتمثل أفعاله غير المخلوقة.

أ- الأسماء الإلهية كدلالة وإعلان δηλωτικά لخواص طبيعة الله الثالوث، وليس لجوهره:

بحسب القديس كيرلس، الألقاب مثل "غير الفاسد"، "غير المائت"، "غير المنظور" و "الصالح" تخص الأقانيم الإلهية الثلاثة، ويُدعى بهذه الألقاب "الله" و "الرب" (أنظر الكنوز ٣١: ١٦): "رغم أن الكتب المقدسة تقول الكثير أيضاً عن أقنوم الآب وأقنوم الابن، إلاَّ أن اختلاف الأسماء لا يجعل تحديد الجوهر يختلف للدرجة التي توجد فيها حالة عدم التماثل الجوهري فيما بينهما. لأنه توجد ألوهية واحدة للآب والابن حتى لو كان كل واحد من الإثنين يُعلَنَ بطريقة مختلفة بتنوع التسمية، فاختلاف التسميّة لا يعني أن كل واحد لديه شيء يختلف عن الآخر، بل كل شيء يوجد في الإثنين يُنسب للجوهر الواحد، فيما عدا فقط تسمية (الأقانيم)، وحقيقة أن الواحد هو آبٌ والآخر هو ابنٌ، لأن الآب هو دائماً آبٌ، ولا يمكن بتاتاً أن يصير ابناً. والابن هو دائماً ابنٌ ولا يمكن أبداً أن يصير آباً" (الكنوز ٩: ١٠). ويوضح القديس كيرلس أن خواص الطبيعة الإلهية الواحدة

١- أنظر:
Σ.ΠΑΠΑΔΟΠΟΥΛΟΥ, "ὁ ἅγιος Κύριλλος Ἀλεξανδρείας θεολογεῖ ἑπμηνεύοντας καί ἑπμηνεύει θεολογώντας", θελογία 74 (2003), σ. 486-487.



هي خواصٌ مشتركة للثلاثة أقانيم، فعندما تُنسب خاصية مثل "الصلاح" لأحد الأقانيم، فإنها تكون أيضاً للاثنين الآخرين، ويتساءل القديس كيرلس، قائلاً: "ما موقف المرء مما قاله بولس: "لكِنْ لَنا إِلهٌ وَاحِدٌ: الآبُ الَّذِي مِنْهُ جَمِيعُ الأَشْيَاءِ، وَنَحْنُ لَهُ. وَرَبٌّ وَاحِدٌ: يَسُوعُ الْمَسِيحُ، الَّذِي بِهِ جَمِيعُ الأَشْيَاءِ، وَنَحْنُ بِهِ" (١ كو ٨: ٦). فها هو الرسول بولس ينسب للآب خاصية الله الواحد، وللابن أيضاً خاصية الربِّ الواحد. فهل بسبب أن الآب يُدعى إلهٌ واحدٌ، لا يكون الابن هو الله؟ وهل لا يكون الآب ربّاً؛ لأن الابن يدعى ربٌ واحدٌ؟ لا يمكن أن يحدث هذا بالطبع؛ لأنه بما أن الآب إلهٌ، يكون الابن أيضاً إلهاً، وطالما كان الابن ربّاً، هكذا يكون الآب أيضاً ربّاً" (الكنوز ٩: ١٠).

كما يميِّز القديس كيرلس بالطبع الوظائف أو الخواص الأقنومية مثل الأبوة والبنوة عن خواص الطبيعة الواحدة. فالآب هو آب ولا يمكن أن يكون ابناً، والابن ابنٌ ولا يمكن أن يكون أباً. وتشديد القديس كيرلس على الخصائص الطبيعية المشتركة واضح حين فسر (١ كو ٨: ٦) "لنا إله واحد الآب الذي منه جميع الأشياء ونحن له. ورب واحد يسوع المسيح الذي به جميع الأشياء ونحن له". فالكتاب المقدس ينسب للآب مصطلح "الله" بينما للمسيح لقب "رب"، فإن لم تكن خواص الطبيعة مشتركة سنصل إلى نتيجة خطيرة، فالآب في هذه الحالة ليس رباً، والابن ليس إلهاً (أنظر الكنوز٩: ١٠). ويوجّه سؤاله للهراطقة: "حين ترى الكتاب المقدس يُسمي الابن ربّاً، هل تعترف بالتالي أنه حقاً ربٌّ، أم أنك سوف تنكر هذا أيضاً ضمن ما تنكر من أمور كثيرة تنكرها؟ لأنه، إذا قُلت إنه ليس ربّاً، عندئذٍ تؤمن بأمورٍ متناقضة مع الكتب المقدسة، ومع الروح الذي قال هذه الحقائق. بينما إذا وافقت وقلت إنه ربٌّ، فسوف يُحكمُ عليك كمجدِّف داعياً إياه ربّاً وتسجد لذلك الذي تزعم أنه ليس مساوياً للآب في الجوهر" (الكنوز ٩: ٩).

وهكذا يفند. بذكاءٍ شديد. إنكارهم للابن بأنه إلهٌ وأن لديه خواص الطبيعة الإلهية، ومنها طبعاً لقب "صالح" الذي أنكروه حين فسَّروا قول المسيح "لماذا تدعوني صالحاً ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله" (مر ١٠: ١٨). إذن طالما

أن لقب "صالح" هو من ضمن خواص الطبيعة الإلهية، فهو مشتركٌ أيضاً للابن لأن له نفس الطبيعة الإلهية التي للآب، ومن نفس جوهره. وقد سبق للقديس تطبيق هذا الأمر في المقالة الأولى حين قال إن الكتب المقدسة تنسب للآب لقب "ضابط الكل"، وكذلك "الرب". ويستمر في الحديث قائلاً: "في ذات الوقت لا يُدرك الابن على أن أحداً يسود ويتسلط عليه؛ لأنه يسود ويتسلط، وله السيادة مع الآب. لأنه حقاً هو أيضاً ضابط الكل، وكذلك هو الرب" (الكنوز ١: ٤). ويستشهد القديس كيرلس بما جاء في (يو ١٧: ١٠) "كُلُّ مَا هُوَ لِي فَهُوَ لَكَ، وَمَا هُوَ لَكَ فَهُوَ لِي" (يو ١٧: ١٠). إذن، فبما أن كلَّ الخصائص مشتركة، والصلاح المطلق هو أحد هذه الخصائص، فالابن إذن يمتلك هذه الخاصية أيضاً، خاصةً وأنه من طبيعة الآب المولود منه. والابن الذي له كل خصائص جوهر الآب، هو . على أية حال . مساوٍ للآب في الجوهر" (الكنوز ٩: ١١).

ب – أسماء أقانيم الثالوث كدلالة وإعلان عن العلاقة الوجودية بينهم:

بحسب القديس كيرلس تعبّر أسماء أقانيم الثالوث القدوس . كما قلنا . عن خصائص أقانيم الثالوث غير المخلوقة، فالواحد هو آبٌ والآخر هو ابنٌ، لأن الآب هو دائماً آبٌ، ولا يمكن بتاتاً أن يصير ابناً.

أيضاً يؤكد القديس كيرلس على أن اسم "الآب" هو يعلن العلاقة بين الآب والابن، أي يعبّر عن العلاقة بين أقنوم الآب وأقنوم الابن (أنظر الكنوز ٣١). هكذا لو كان اسم "الآب" يعبّر عن جوهر الآب، عندئذٍ يُحرَم الابن من كونه من نفس جوهر الآب، لأنه سيكون الابن طبقاً لاسمه من جوهر آخر. إذن اسم "الآب" يعبّر عن طريقة وجود أقنوم الآب، وليس عن فعل الله الآب، وإلاَّ يترادف اسم "الآب" مع اسم "خالق" أو "صانع". وبالتالي طريقة وجود الابن هي نفسها طريقة وجود المخلوقات، ويصبح الابن بذلك مخلوقاً. ويشدد القديس كيرلس على حقيقة يقبلها الكل بأن الله بسيطٌ، وكيف للبسيط أن يتكون من جواهر كثيرة، إذن



الأسماء لا تعبِّر عن الجوهر[١]، بل في حالة أسماء الآب والابن والروح القدس، فإنها تعبِّر عن طريقة وجود كل أقنوم والعلاقة بينهم، أمَّا خواص طبيعة الثالوث الواحدة فهي تعبِّر عن خصائص مشتركة للثلاثة أقانيم. هكذا حين تقول الكتب المقدسة بأنه "ملك" و"رب" و"غير مائت"...الخ. وكل واحد من هذه المميزات يُدرك كجوهر, يتساءل القديس كيرلس: "كيف لا يكون مركباً مَن هو في الأساس بسيط؟" (الكنوز ٣١: ٣). هكذا فنّد القديس كيرلس آراء إفنوميوس[٢] الخاصة بأسماء الأقانيم، إذ نادى بأن الأسماء تعبر عن جوهر كل أقنوم وانتهى إلى أن كل أقنوم له جوهر مختلف عن الآخر.

ج ـ المفهوم الحقيقي لمصطلح "غير الصائر ἀγένητος"

لقد أعطى القديس كيرلس أهمية لشرح بعض المصطلحات والتي استُخدِمَت في تفسير عقيدة الثالوث القدوس. فقد اهتم هكذا بمصطلح "غير الصائر، أو "غير المخلوق" ἀγένητος" والتي ينسبها الأريوسيون فقط لله الآب بكونه البداية غير المخلوقة لكل شيء، وبذلك يضعون الابن من ضمن الكائنات المخلوقة، فيجيب القديس كيرلس على الأريوسيين موضحاً أن مصطلح "غير الصائر أو غير المخلوق ἀγένητος" له دلالات كثيرة: "فـ" غير الصائر" هو مَن أو ما لم يَصِر بعد، وإن كان وارداً أن يصير في قابل الأيام، وذلك مثل المركب الذي يمكن أن يصير من الخشب، أو التمثال الذي يمكن أن يصير من النحاس. وتعبير "غير الصائر" أيضاً يمكن أن يُطلق على ما لم يَصِر بتاتاً، ولا يمكن أن يصير. فالمثلث -كشكل- على سبيل المثال، لا يمكن أن يتغير بحيث يصبح مستطيلاً؛ لأن المثلث عندئذٍ يتلاشى

١- أنظر

ΓΡΗΓΟΡΙΟΥ ΘΕΟΛΟΓΟΥ, Λόγος , θεολογικός Γ,' περί Υιοῦ,16, GALLAY, SC,250, σ.210, 12-14 = PG36,96A. - Σ.ΠΑΠΑΔΟΠΟΥΛΟΥ, Πατρολογία, τ.2, Αθήνα 1999², σ.505.

٢- أنظر

ΕΥΝΟΜΙΟΥ, Ἀπολογητικός, 8, R.P.VAGIONE, Eunomius the extant works (oxford Early Christian texts), oxford (clarendon press) 1987, p.43,14-18.

كان إفنوميوس ينادي بأنه مادام الآب غير مولود، والإبن مولود، إذن فإن الإبن لا يشبه الآب في شيء، ونفس الأمر ينطبق علي الروح القدس.



تماماً، ويصير شيئاً مختلفاً عما كان عليه". ثم يتساءل القديس كيرلس، قائلاً: "فإذا كان تعبير "غير الصائر" يمكن أن يُفهم بمعانٍ مختلفة، فما الذي يعنيه هذا التعبير بالنسبة لله بحسب رأيهم؟". ثم يفترض أنهم سوف يقولون إنها تعني هذا الذي لم يصِر بعد. فيقول: "بما أنهم طرحوا سؤالهم بكل سهولة"، ويستمر، قائلاً: "وإذا قلنا نحن أيضاً إن "غير الصائر" هو واحد. فمن المتوقع أن يقولوا لنا: طالما إن "غير الصائر" هو واحد، وهو الآب، إذن فالضرورة تحتم عليكم أن تقبلوا بصيرورة الابن. عندئذٍ يكون جوابنا عليهم أنه طالما أن الابن هو حكمة وقوة وكلمة الآب، وأن **الكلمة والحكمة والقوة** هي دائماً في الآب، وإذا كان الابن يُدعى بهذه الألقاب، إذن فالابنُ كائنٌ، وليس متأخراً زمنياً عن الآب" (الكنوز ١: ١).

ويستخدم القديس كيرلس نص (تك ١: ٢٦) "نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا" في إثبات أن الابن مساوٍ للآب في الجوهر، وبالتالي هو "غير صائر" مثل الآب: "وبقوله: "صورتنا كشبهنا" يقصد إنه يتحدث للأقنومين الآخرين، وهو ما يعني أن الروح القدس حاضرٌ أيضاً، ووُصف بأنه إلهٌ. إذن، الابن ليس "صائراً" أي ليس مخلوقاً. وأيضاً يستخدم القديس كيرلس نص (يو ١٤: ٩) "من رآني فقد رأى الآب" ليبرهن على أن الابن هو غير مخلوق أو غير صائر (الكنوز ١: ٣).



سادساً: إمكانية معرفة الله الثالوث

أ ـ عدم إدراك الثالوث بحسب جوهره

عرض القديس كيرلس للتعليم اللاهوتي عن استحالة معرفة جوهر الثالوث البسيط وغير المخلوق من جانب الإنسان، وتوسَّع فيه رداً على رأي إفنوميوس بأن إمكانية معرفة مفهوم مصطلح "غير الصائر" تتيح لنا معرفة جوهر الثالوث. لذا يؤكد القديس كيرلس في مقدمة كتاب الكنوز على ضعف البحث العقلي عن أن يعبِّر عن سر الوجود الأزلي للثلاثة أقانيم في الثالوث القدوس، لذا علينا أن نبذل أقصى الجهد لأنه لا توجد رؤية صعبة الإدراك ولا يمكن الاقتراب إليها مثل الرؤية الخاصة بالثالوث القدوس والحديث الخاص به لا يسلم أبداً من أية إدانةٍ (أنظر مقدمة القديس كيرلس لكتاب الكنوز).

يشدد القديس كيرلس على أن القدرة الذهنية للإنسان وكذلك قدرته اللغوية غير كافية لتحديد سر الثالوث القدوس: "لأن ذهن الإنسان يتصف بالرقة والسطحية، وبالحري يوصف بأنه ضعيفٌ جداً، يمكن للغة . بالجهد . أن تشرح هذه المواضيع التي ينشغل بها. على الجانب الآخر، جمال الحق عصيٌ على المنال، ومن طبيعته ألاَّ يُعلَن للكثيرين، بل فقط لأولئك الذين يبحثون عنه بذهن صالح وفكر صريح، وينقبون عنه ويسلِّطون عليه النور، كأنه كنزٌ سماوي. لذلك يستحقون سماع: "طوبى لعيونكم لأنها تبصر ولآذانكم لأنها تسمع" (مت ١٦: ١٣)"[١] (أنظر مقدمة القديس كيرلس لكتاب الكنوز).

يشرح القديس كيرلس مسألة عدم إدراك الله بحسب الجوهر مبرهناً على ذلك بشرحه لمصطلح "غير المخلوق أو غير الصائر" ليفند ما قاله إفنوميوس بخصوص إن مَنْ يعرف مصطلح "غير الصائر" يعرف الله بحسب الجوهر، فكلمة "غير المخلوق"، بالرغم من أنها تعبِّر عن إحدى الصفات غير المنفصلة عن الله، لا يمكن — وفقاً لرأي الهراطقة — أن تكون هي ذاتها جوهر الله. ولأن هذا هو الصواب، فلا

١- ويؤكد أيضاً القديس هيلاريون على أن معرفة الله ذاته هي غير محدودة وتفوق الإدراك- Hilary, De Trin, 107-26 ,18-6 ,301-11 ,205 ,16, أنظر: توماس ف. تورانس, الإيمان بالثالوث: الفكر اللاهوتي الكتابي للكنيسة الجامعة في القرون الأولي، ترجمة د. عماد موريس إسكندر، مراجعة د. جوزيف موريس فلتس، نوفمبر ٢٠٠٧م، ص٣٤.



يمكن لمن يعرف أن الله هو "غير المخلوق"، أن يعرف ماذا يكون بحسب الجوهر، بالرغم من أن "غير المخلوق" هي صفة لجوهره" (الكنوز ٣١: ١).

كما يواجه القديس كيرلس آراء إفنوميوس بخصوص الخلط الذي يقع فيه باعتبار أن خواص الطبيعة الإلهية هي جواهر، موضحاً له أن اعتبار أسماء مثل الآب غير المخلوق، غير الفاسد، غير المائت، غير المنظور وغيرها من الأسماء بأنها تعبر عن جواهر، عندئذٍ ستكون النتيجة خطيرة، وهي تحول طبيعة الله البسيطة إلى مركبة. وكذلك كل اسم من الأسماء التي ذُكرت مثل: المخلوق، الفاسد، المنظور هو جوهر، وإن كان الأمر هكذا، فالنتيجة أيضاً خطيرة، وهي إمكانية أن يتساوى أي مخلوق مع الابن المولود من الآب قبل كل الدهور، هكذا نظام الأشياء ينتابه الفوضى (أنظر الكنوز ٣١: ٢).

ويوضح القديس كيرلس أيضاً أن تحديد مصطلح جوهر "οὐσία" يصير ليس بأن نتحدث عن ما ليس هو جوهراً، بل عن ما هو جوهر. فعندما نحدد ما هو الإنسان لا نقول أنه ليس به أجنحة أو أربعة أرجل، بل بكل وضوح نحدد ما هو الإنسان عن طريق تلك العناصر الموجودة في الإنسان وتظهره كإنسان، فنقول إن الإنسان هو كائن عاقل وفانٍ. إذن طالما أن مصطلح "غير مخلوق" يعلن ما لا يكونه الله بحسب الطبيعة بل العكس ما الذي لا يكونه الله، أي ليس هو مخلوق ولا صائر ولا يُوجد بطريقة مخلوقة مثل الكائنات المخلوقة. وبالتالي لا يمكن أن نعتبر أن مصطلح "غير المخلوق" يعبر عن جوهر الله (الكنوز ٣١: ٤).

يستدعي أيضاً القديس كيرلس مبرراً عقلانياً ليؤكد على أن "غير المخلوق" لا يعبِّر عن، ولا يُكوِّن هو جوهر الله. هذا المبرر يأخذه من أرسطو الذي حدّد أربعة عناصر أو صفات أساسية لتحديد جوهر ما. إن أية صفة أساسية في شيءٍ ما، تفصح . على وجه العموم . عما يكون هذا الشيء في الأساس، وهي تعلن إمَّا جنسه، أو نوعه، أو ما يختلف فيه عن غيره، أو تعريفه. فإذا كان الأمر على هذا النحو، فكيف إذن تُظهر لنا كلمة "غير المخلوق" جوهر الله؟: " ليت أولئك الذين وضعوا هذه الاقتراحات الجاهلة يقولون لنا كيف؟؛ لأن هذه الكلمة لا يمكن

أن تُفصح لنا عن جنس أو نوع هذا الكائن طبقاً لفلسفة أرسطو. لأن الجنس والنوع يختصان بالأكثر بالأشياء التي تختلف من جهة النوع والعدد، بينما كلمة "غير المخلوق" لا تخص أحداً آخر غير الله، وتنصرف إليه وحده، ولهذا تقال له فقط؛ لأن مَنْ هو غير مخلوق إلاَّ الله؟ ومن ذلك يتضح لنا أنه لا يمكن أن يكون "جنساً" مَن لا يقبل التقسيم إلى أنواع، وعدد، واختلاف الصفات.

ولكن قد يقول البعض إن كلمة "غير المخلوق" تحدد ماهية كائنٍ ما، هنا ينكشف ما ينطوي عليه هذا القول من كذب؛ لأن ما يحدد ماهية الكائن هو المبدأ (لوغس[1] λόγος) الذي يُحدد ماذا يكون كائنٌ ما من جهة الجوهر، بينما كلمة "غير المخلوق" لا تُطلق لتحدد ماهية كائن ما، بل هي مجرد صفة، وبالتالي يتضح لنا أن كلمة "غير المخلوق" تختلف جوهرياً عن المصطلح المستخدم للتحديد. ودعنا نمعن النظر في هذا الأمر، بالنسبة إلى الله حتى لا نرتكب خطأً ما: إن كل ما يقبل الصفة وعكسها يكون مركباً وليس بسيطاً، لكن بما أن الله بسيطٌ، وهو الأمر الذي يعترف به كل إنسان، إذن فمصطلح "غير المخلوق" الذي يصف الله لا يقبل الإختلاف أو الصفة العكسية "مخلوق" لأن الله دائماً هو غير المخلوق. لا يمكن أن يكون الله "غير مخلوق" و"مخلوق"، إذن كينونة وجود الله ليست في عدم مخلوقيته؛ لأن "غير المخلوق" لا ينصرف معناها إلى الجوهر، حتى وإن كانت تبدو هكذا". (الكنوز ٣١: ٥).

فإذا كانت صفة "غير المخلوق" تعلن جوهر الله، إذن يُمكن أن يُستنتج من خاصية أن الإنسان يمكنه أن يضحك. كخاصية ينفرد بها الإنسان عند القديس كيرلس. إنها تعلن جوهر الإنسان وليست صفة من الصفات الطبيعية أو ميزة من مميزات الإنسان وحقاً هي هكذا. وبنفس الطريقة كل الخواص تُدرك على أنها جواهر للإنسان وبذلك يكون للإنسان جواهر كثيرة وليس جوهر واحد. وهذا الكلام غير

١- الكلمة المستخدمة هنا هي كلمة (λόγος لوغس) ولكنها تبدأ بحرف "λ" صغير غير كلمة لوغوس التي تُكتب بحرف لمذا "Λ" (ذو الشكل الكبير وتعني الكلمة، الأقنوم الثاني. وكلمة لوغس بحرف لمذا صغير تستخدم للمخلوقات وتحدد ماهية هذا المخلوق، فكل مخلوق له لوغوس أي تحديد ماهيته وهدفه المعين من الله. ويري الآباء أن هذا اللوغوس له علاقة بالكلمة اللوغوس أي الأقنوم الثاني، الذي كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان. والقديس كيرلس يريد أن يقول أن مصطلح "غير المخلوق" ليس تحديداً لله؛ لأنه ليس لوغوس، بل مجرد إسم أو صفة عادية. لذلك لا يمكن أن يكون مصطلح "غير مخلوق" هو مصطلح يُحدد جوهرياً ماهية الله.



معقول. كذلك أيضاً مصطلح "غير المخلوق" لا يمكن أن يعبر عن جوهر الله أو عن ماذا يكون الله بحسب الطبيعة" (الكنوز ٣١: ٦). ويركز القديس كيرلس على أن اختلافات وجهات النظر أو استخدام أفكار مختلفة عن أفكار أخرى أثناء الإجابة لا يعني أن الواحد يقول الصدق والآخر يقول الكذب. ويضرب لنا مثالاً قائلاً: " دعنا نفترض أننا سألنا اثنين من البشر عما إذا كان الحصان هو ذاته الإنسان، فأجاب أحدهما بالنفي؛ لأن الإنسان هو كائنٌ ضاحك، والحصان ليس كذلك، بينما أجاب الآخر بقوله إن الإنسان ليس هو الحصان؛ لأن جوهره يفتقد إلى خاصية الصهيل. أليس الاثنين يقولان الحقيقة؟ هل لم يجيبا بالصواب لأنهما لم يستخدما الأفكار نفسها؟" (الكنوز ٣١: ١٤)، وبذلك يصل إلى نتيجة مفادها، إن كان لدينا وجهة نظر أخرى عن أي من الكائنات لا يعني هذا أن لنا رأي كاذب ومنحرف، هكذا نحن البشر ندرك الله قليلاً، لكن ليس بسبب هذا يكون لدينا، على أية حال، أفكار كاذبة عنه (المرجع السابق).

يستمر القديس كيرلس في استنتاجاته: " لو أن كل اسم من هذه الأسماء: . كما يدعى الهراطقة . آب، غير مخلوق، غير فاسد، غير مائت، غير منظور يعبر عن الجوهر، بالتالي فإن الله البسيط سيكون مركباً مِن جواهر كثيرة لأن كل اسم أو صفة من الصفات التي ذكرناها تكون جوهراً. الاستنتاج الآخر من رأى الهراطقة أيضاً، يبين أن الأسماء التي تصف المخلوقات مثل المخلوق، والفاسد والمنظور تكون أيضاً جواهر. وبالتالي يتساءل القديس كيرلس، ما الذي يمنع أن نقول إن الخشب المخلوق يصير جوهراً ويتطابق مع الابن، أو الحجر مع مَنْ يُولد. هكذا نظام الأشياء ينتابه الفوضى. ويخلص القديس كيرلس إلى نتيجة مفادها أن كل ما يُقال من صفات على الله مثل: غير مخلوق وغير فاسد وغير مائت يُمثل خواص طبيعة الله وليس تعبيراً عن جواهر مختلفة طبقاً لكل صفه. إذن هذه الأسماء هي بمثابة خواص وليست جواهر في حد ذاتها (أنظر الكنوز ٣١: ١١).

ثم يتطرق القديس كيرلس لمسألة التعبيرات البشرية اللغوية موضحاً أن الإنسان يستخدم تعبيرات معتادة وبشرية حين يتحدث عن الله لأنه لا يملك غير هذه اللغة،

هكذا هناك ضعف في الإنسان من أن يصف أو يتحدث عن الله. ويؤكد القديس كيرلس على أن الله لا يمكن إدراكه بحسب الجوهر مستشهداً بالكتاب المقدسْ إذ يذكر ما جاء في سفر أشعياء: "مَنْ كَالَ بِكَفِّهِ الْمِيَاهَ، وَقَاسَ السَّمَاوَاتِ بِالشِّبْرِ، وَكَالَ بِالْكَيْلِ تُرَابَ الأَرْضِ، وَوَزَنَ الْجِبَالَ بِالْقَبَّانِ، وَالآكَامَ بِالْمِيزَانِ؟ مَنْ قَاسَ رُوحَ الرَّبِّ، وَمَنْ مُشِيرُهُ يُعَلِّمُهُ؟" (أش ٤٠: ١٢ ـ ١٣). هكذا بحسب القديس كيرلس، فإن هؤلاء الذين يدَّعون أنهم يعرفون طبيعة الله التي لا تُقاس ولا تُدرك بالأفكار البشرية، مثل أولئك الذين يقيسون السماء بالشبر (أنظر الكنوز ٣١: ٢).

أيضاً يقول الهراطقة، إن الله يعرف طبيعته وطالما نحن لا نعرفه هكذا مثلما يعرف هو ذاته، إذن نحن نكوّن آراءً خاطئةً ومنحرفةً عنه. أي نحن في ضلال إن لم نعرف الله بحسب طبيعته أو جوهره. والقديس كيرلس يفند هذا الرأي أيضاً بكل فطنة وذكاء، إذ يجسد مأساة أصحاب هذا الرأي بأنهم يخافون ربما يظهرون أنهم أدنى من فهم الله ويرتعبون من حقيقة أنهم غير حاذقين في المعرفة لدرجة أنه يمكن لأحد منهم أن يدرك الجوهر الإلهي. والسبب في كل هذا بالنسبة للقديس كيرلس هو أنهم لا يعرفون أن الجوهر الإلهي يفوق كثيراً ويسمو على المخلوقات، وذلك بقدر اختلافه عنهم بحسب الطبيعة. أما بخصوص مبررهم بأن مَنْ لا يعرف أو الذي يعرف قليلاً هو ضال، فيقول القديس كيرلس، على سبيل المثال لو أن أحداً يعرف أنه يحدث اختفاء للقمر، لكن يجهل كيف وبأية وسيلة، وآخر يعرف جيداً هذا الأمر. هل الذي يعرف الاثنين أي اختفاء القمر وأيضاً كيفية اختفاءه أحكم من الآخر الذي هو أدنى من جهة الفهم لأنه يعرف فقط أمراً واحداً، وهل يكذب هذا الشخص حين يقول تحدث اختفاءات للقمر؟ ويختم حديثه بتساؤل معقول: ما الذي يمنعنا نحن البشر أن نعرف أقل مما يعرفه الله عن ذاته، ماذا يكون من جهة الجوهر؟ بالتالي معرفتنا ليست كاذبة ولا هي محرَّفة (أنظر الكنوز ٣١: ١٣).

أيضاً على نفس المنوال يستعرض القديس كيرلس مسألة أن المعرفة بالنسبة للمخلوقات هي متفاوتة في الدرجة بين مخلوق وآخر قياساً بجنسه، فمعرفة الملائكة تختلف عن الإنسان وهي أعظم منها وكذلك معرفة رؤساء الملائكة هي أعظم من



معرفة الملائكة وأيضاً معرفة القوات العظمي هي أسمى من الكل. إذن كيف من الممكن .كما يقول القديس كيرلس . هذا الذي ليس هو عظيماً في المعرفة أن يعرف الله، حتى لو افترض المرء بأن هذا الإنسان هو ملاك، طالما أن معرفة الله تتخطى كل عقل وكل إدراك؟ (أنظر الكنوز ٣١: ١٥)[1] هكذا يستخدم القديس كيرلس المنطق لكي يرد على هؤلاء الهراطقة، وهذا الأمر نجده واضحاً في أسلوبه وردوده على الهراطقة في كل نصوص كتاب الكنوز في الثالوث.

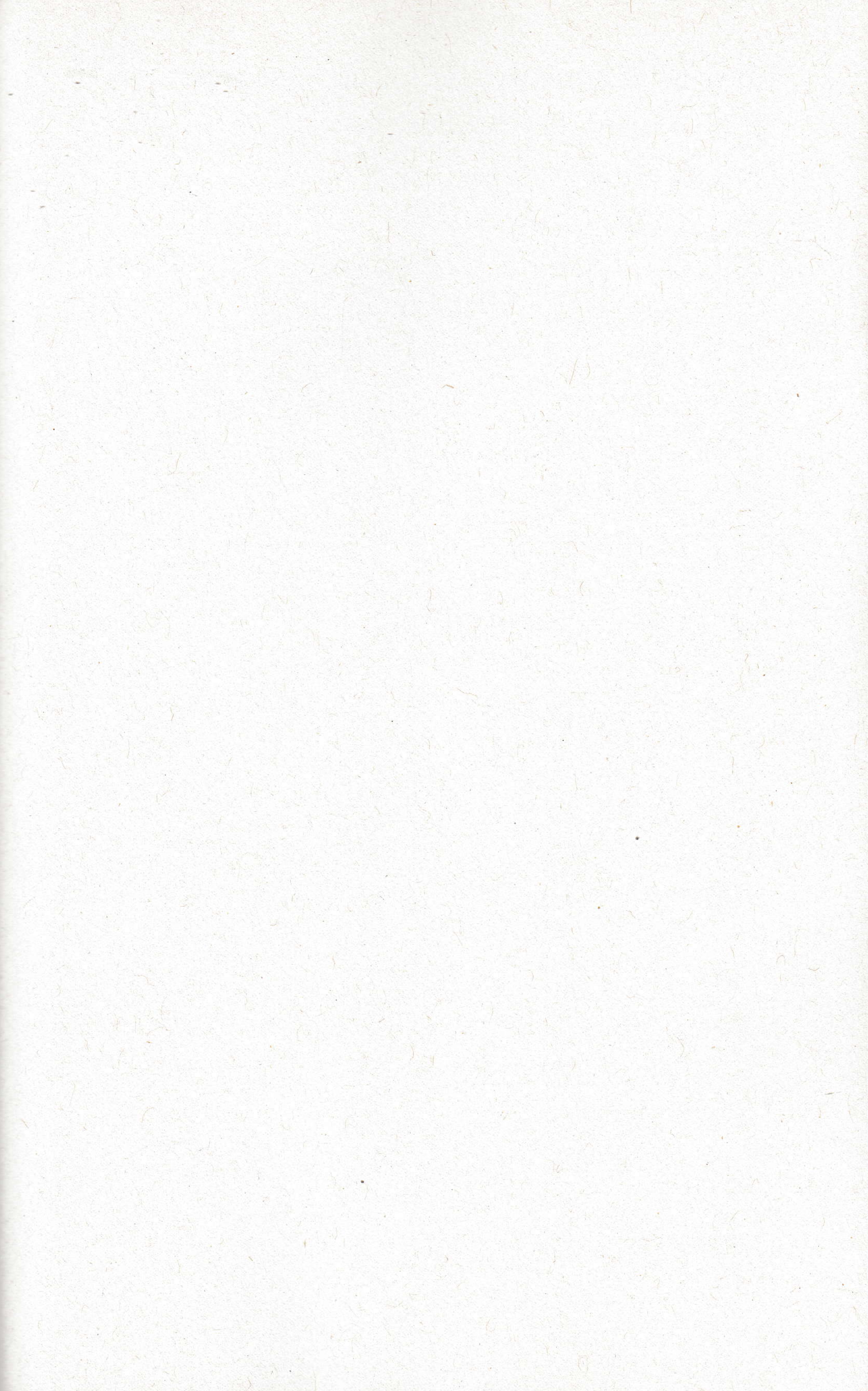
ب ـــ إدراك الثالوث القدوس بحسب أفعاله

أثناء رد القديس كيرلس على رأي إفنوميوس الذي يزعم بأن مصطلح "غير المخلوق" يعبِّر عن جوهر الله، يؤكد القديس كيرلس على أن معرفة الثالوث القدوس هي ممكنه فقط من جانب البشر عن طريق أفعال الله أو خصائص طبيعته وحسب القدرة المعرفية للمخلوق. وقد سبق لإفنوميوس وأتباعه التأكيد على إمكانية معرفة الله بحسب الجوهر من جانب البشر فهي في متناولهم. أما القديس كيرلس يؤكد على أن الله لا يمكن إدراكه بحسب الجوهر لكن من خلال أفعاله غير المخلوقة، وبالتالي الأسماء المختلفة لله مثل "غير المخلوق" و "غير الفاسد"، وغيرها تعلن أفعال الله ولا تعلن جوهر الله الذي هو غير قابل للإدراك من جانب البشر. فأسماء وصفات الله لا تعلن مَاهية الله بحسب الجوهر لكن تعلن أوصاف علاقة الله بنا. هكذا هذه الأسماء والصفات هي بمثابة خواص للجوهر. فمثلاً على سبيل المثال: "عدم الفساد" و "عدم الموت" يظهران ما لا يكونه الله بينما، اسم إقنوم "الآب" يُظهِره بأنه والد مميِّزاً إياه بذلك عن الابن. القديس كيرلس فيؤكد، أن ولا واحد من أسماء الأقانيم يعبِّر عن جوهر مختلف عن الآخر ، أما الصفات الخاصة بطبيعة الله الثالوث التي تعلن لنا الله في علاقته معنا مثل المحبة والصلاح والحياة .....الخ لا

١ـ نحن لا نستطيع أن نستوعب كل ما هو الله داخل معرفتنا، لأنه يتخطى كل مفاهيمنا وإدراكنا العقلي، لكن كما يقول القديس هيلاريون: "بينما الله في كليته يفلت من إدراك عقولنا، فهو مع ذلك يترك لنا شيئاً من ذاته ضمن حدود إدراكنا" (Hilary. De Trim, 207,206). ويفضل القديس هيلاريون الإيمان ليحل محل المعرفة العقلية مؤكداً على أنه يجب أن نؤمن به وينبغي أن ندركه ونعبده بكل وقار لأن هذه العبادة هي التي يجب أن تحل محل تعريفنا له (Hilary, De Trin, 301-5. أنظر توماس ف. تورانس، الإيمان بالثالوث: الفكر اللاهوتي الكتابي للكنيسة الجامعة في القرون الأولي، ترجمة د. عماد موريس إسكندر، مراجعة د. جوزيف موريس فلتس، نوفمبر ٢٠٠٧م ص ٧٥.

يمكننا بها أن نعرف الله بحسب الجوهر" (الكنوز ٣١: ١٦).

هكذا يكون من الممكن . بحسب القديس كيرلس . أن يظل الله معروفاً فقط بحسب خواص طبيعته أو بحسب أفعاله التي تُعلن بواسطة هذه الخواص. إذن لقب "غير المخلوق" للثالوث القدوس يحدد فهم الثالوث القدوس بكونه الله غير المخلوق، وليس مثل المخلوقات التي خُلِقت من العدم. وكذلك الصفات مثل: "غير الفاسد" و "غير المائت" و"غير المنظور" والذي "لا يُوصف" تعلن الثالوث الأزلي غير المخلوق وعدم خضوعه للفساد والموت كما يحدث للكائنات المخلوقة، وأنه لا يُرى ولا يُوصف مثل البشر بسبب خواص جوهره غير الجسدي وغير المركب وغير المرئي والذي لا يوصف. هكذا معرفة الإنسان بخواص طبيعة الله لا يمكن أن تعني إمكانية معرفة جوهر الله.



القسم الثاني

التعليم اللاهوتي عن الابن

أولاً: أقنوم الابن غير المخلوق

أ ـــ الابن ليس مخلوقاً ولا مصنوعاً

يرد القديس كيرلس على أتباع أريوس الذين ينكرون أن الابن هو واحدٌ مع الآب في الجوهر بكونه الأقنوم الثاني من الثالوث القدوس، وكذلك أتباع إفنوميوس، ويكشف القديس كيرلس خداعهم إذ يُجمِّلون آرائهم[1] ويقولون "إن الابن مخلوقٌ، لكن ليس كواحدٍ من المخلوقات الأخرى. إنه مصنوعٌ، لكن ليس كواحدٍ من المصنوعات. إنه صائرٌ γέννημα ولكن ليس مثل المخلوقات الأخرى ἀλλα γεννήματα" (الكنوز ١٥: ١).

لكن القديس كيرلس يبرهن لهم حقيقة أزلية أقنوم الابن. ويواجه هذه الآراء الخاطئة بما يراه من تضاد منطقي يحتويه رأيهم، فيقول: "إن كان الابنُ مخلوقاً، فلماذا هو ليس واحداً من المخلوقات؟ وإن كان الابن مصنوعاً، فلماذا ليس هو واحداً من المصنوعات؟ إنه أمرٌ مضحكٌ كثيراً أن يؤمن أحدٌ بمثل هذا الكلام. حقاً، بما أن الابن لا يُحسب ضمن المصنوعات أو المخلوقات، فلا يمكن أن يكون مخلوقاً ولا مصنوعاً. وإذا كان قد صُنِعَ أو خُلِقَ، كما تقولون، فلماذا لا يمكن اعتباره مثل واحدٍ من المصنوعات؟" (الكنوز ١٥: ٢).

١- أنظر

ΑΡΕΙΟΥ, Ἀλεξανδρείας, 2, H. – G. OPIZ,Athanasius Werke, t.3, I, P. 12,9-10. ΕΥΝΟΜΙΟΥ, Ἀπολογητικός,28, R. P. VAGGIONE, Eunomius the extant works (oxford Early Christian texts), oxford (Clarendon press) 1987,P.74, 20-22.



ويؤكد القديس كيرلس لهؤلاء الهراطقة، إن وصفهم للابن بأنه مخلوق ولكنه ليس كواحد من المخلوقات الأخرى، لا يجعل الابن في كرامة فائقة لأنهم يعترفون بأنه مخلوق. وبذلك لا يختلف الابن بحسب الجوهر عن بقية الكائنات المخلوقة، بل سيظل مجرد مخلوق بغض النظر عن تفوقه بحسب طبيعته المخلوقة ومكانته المميَّزة مقارنةً بالمخلوقات الأخرى: "لأن من يُنسب إليه أنه قد "خُلِقَ"، نؤمن أنه مخلوق، ولا يختلف جوهرياً عن المخلوقات الأخرى في شيء، حتى وإن اختلف عن غيره بحسب الطبيعة المخلوقة، أو بأية طريقة أخرى. لأنه هكذا يرى المرء كل مخلوقات الله مقارناً بعضها البعض. ويجد في مرات كثيرة أن بعضها يتفوّق على البعض الآخر، ويتباينون من جهة طبيعتهم، حتى أنه يمكن لأحد أن يقول عن كل واحدة من تلك أنها مخلوقة، لكن ليست كواحدة من المخلوقات. فالشمس على سبيل المثال هي بالطبع مخلوقة، لكن ليست مثل واحدة من المخلوقات؛ لأنه لا توجد شمسٌ أخرى. نفس الأمر بالنسبة للقمر، والسماء، والنجوم والأرض.

كل هذه تعد ضمن المخلوقات، وكل واحدة منها ليست مثل واحدة من المخلوقات الأخرى. العامل المشترك الوحيد لدى هذه المخلوقات هو أنها خُلِقَت، بينما من جهة الشكل والطبيعة، تختلف كل واحدة منها عن الأخرى.

بالتالي لا يوجد شيءٌ أكثر في الابن عندما يُقال عنه إنه خُلِقَ، حتى لو كان يوجد فيه شيء أكبر وفائق في مقارنته بالمخلوقات الأخرى؛ لأنه ماذا يعود على الشمس من فائدة إن قلنا إنها مخلوقة، لو كانت حقيقةً تفوق كثيراً النجوم؟ نفس الأمر يسري أيضاً بالنسبة للقوات العاقلة في السماء، إذ بينهم عامل مشترك، هو أنها خُلِقت. بينما من جهة ماذا تكون كل واحدة، فهي تختلف" (الكنوز ١٥: ٣).

يعود دائماً القديس كيرلس إلى النتائج العبثية المستخرجة من آراء الهراطقة ويواجههم بها، فيقول: "إن كان الابن مخلوقاً، وكان الآب يفعل كل شيء بواسطته، إذن كان على الابن أن يخلق نفسه ويصنع ذاته. لكن تفكيراً من هذا النوع، لهو من الأمور غير المعقولة. لأنه كيف يمكن لهذا الذي. وفق آرائكم — هو غير موجود، أن يخلق ذاته؟ بالتالي ليس هو مخلوق، ولا مصنوع، بل بالحري هو ثمرة جوهر الآب،

وبكونه الله لديه إمكانية أن يصنع وأن يخلق" (الكنوز ١٥: ٦).

يستخدم أيضًا القديس كيرلس الكلام المنطقي لكي يفنِّد آراء الهراطقة، فيقول لهم: "إن كان الابن مخلوقاً، فكيف يمكن أن توجد فيه القدرة على الخلق، وأن يُحضِر المخلوقات إلى الوجود من العدم؟ فحتى لو افترضنا جدلاً أن هناك طبيعة مخلوقة يمكن أن تُحضِر إلى الوجود مخلوقات من العدم، عندئذٍ يمكن لمخلوقات أخرى أن تكون لديها إمكانية الخلق حتى لو بدا أنها لم تحقق هذا عملياً. فعلى سبيل المثال لو افترضنا أن الولد الذي ما يزال صغير السن، يمكنه أن يأتي بنسل في سن الرجولة، إلاَّ أنه الآن لا يحدث هذا الأمر لأنه مازال طفلاً بعد. فهذا الذي لديه بحسب طبيعته شيءٌ ما، لا يمكن أن يُقال إنه ليس لديه، حتى ولو لم يظهر بعد؛ لأن الفعل الطبيعي يختفي في الحاضر لسببٍ ما، أو بسبب الزمن. وبالتالي يمكننا القول إن المخلوقات الأخرى هي خلاقةٌ أيضاً وبالتالي لا يوجد في الله شيءٌ أكثر. لكن هذا غير معقول؛ لأن أحداً من المخلوقات ليس لديه القدرة على الخلق. إذن، فالابنُ الذي الكل صار بواسطته، ليس مخلوقاً، حتى لا يبدو هو ذاته يَخلق ويُخلَق، يصنع ويُصنع، لكنه بالحري هو الله الذي أتى من الله الآب" (الكنوز ١٥: ٧).

ويعتبر القديس كيرلس شواهد الكتاب المقدس هي المبررات القوية والمقنعة للرد على مزاعم الأريوسيين بشأن أن الابن هو مخلوق، فيذكر نص (مت ١١: ٢٧): "كُلُّ شَيْءٍ قَدْ دُفِعَ إلى مِنْ أَبِي، وَلَيْسَ أَحَدٌ يَعْرِفُ الابن إلاَّ الآبُ، وَلاَ أَحَدٌ يَعْرِفُ الآبَ إلاَّ الابن وَمَنْ أَرَادَ الابن أَنْ يُعْلِنَ لَهُ"، (يو ١: ١٨): "اَللهُ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ قَطُّ. الابن الْوَحِيدُ الَّذِي هُوَ فِي حِضْنِ الآبِ هُوَ خَبَّرَ". (يو ٦: ٤٦): "لَيْسَ أَنَّ أَحَداً رَأَى الآبَ إلاَّ الَّذِي مِنَ اللهِ. هذَا قَدْ رَأَى الآبَ". وبالتحديد لو افترضنا أن الابن يُحسب من بين مخلوقات الله، فكيف كان من الممكن أن ندرك بالمنطق أنه هو الوحيد من كل الكائنات المخلوقة الذي له القدرة أن يرى، وأن يعرف وأن يُعلِن الله الآب مصادراً بهذه الطريقة حق كل المخلوقات الأخرى من القدرة على مثل هذه الأمور؟ إذن بحسب القديس كيرلس، فإن شهادة الكتاب بأن الابن هو الوحيد الذي يرى ويعرف ويعلن الله الآب هي المعيار الذي لا يقهر لإدراك الابن بكونه



كلمة الله الآب الأزلي وبكونه مساوٍ له في الجوهر وليس مخلوقاً في الزمن بواسطة الآب، طالما أن أيًا من المخلوقات ليس في مكانة أن يعرف الآب بحسب الجوهر ويعلنه (راجع الكنوز ١٥: ٨).

والمبرر الجدير بالتسجيل والذي يبرهن على الاختلاف المطلق بين وجود الابن ووجود المخلوقات وإثبات أقنوم الابن الأزلي. بحسب القديس كيرلس. هو أن أي من الخواص التي تنتمي بحسب الطبيعة للابن لا توجد بحسب الطبيعة في الكائنات المخلوقة. وكل ما هو موجود في الكائنات المخلوقة العاقلة يوجد فيها بسبب ونتيجة شركتهم بحسب النعمة للطبيعة الإلهية وبفضل التشبه بذاك الذي يعطي هذه العطايا: "لا توجد في الخليقة أي صفة من صفات الابن بحسب الطبيعة، لكن الكل لديه هذه الصفات إمّا بالمشاركة أو بالتشبه بذاك الذي يعطي هذه الصفات. لكن الابن ليس هكذا. لأجل هذا هو مختلف عن الخليقة. وطالما هو هكذا، إذن فهو ليس مخلوقاً" (عنوان الكنوز ١٧).

على الجانب الآخر، طالما أي كائن مخلوق لا يمكن أن يعتبر مشاركاً. بحسب الطبيعة. لمجد الله غير المخلوق وفق المكتوب "مجدي لا أعطيه لآخر" (أش ٤٢: ٨)، وطالما أن الابن فقط هو الشريك الأزلي لمجد الله غير المخلوق "الآتي في مجد أبيه"، إذن ليس مخلوقًا هذا الذي يحمل مجد غير المخلوق (الكنوز ١٧: ٣).

ولأن الكتاب المقدس يشهد بأن الابن فقط يرى الآب وليس أحد آخر (أنظر يو ٦: ٤٦)، الأمر الذي يبرهن على أن الابن هو واحد مع الآب في الجوهر. وبالتالي أي أحد من الموجودات لا يمكنه أن يكون صورة ورسم جوهر الله الآب. إذن الابن لا يمكن أن يُحسب كمخلوق: "بما أن أحداً من المخلوقات ليس مثل الله الآب بحسب الطبيعة، بينما الابن هو مثل الآب بحسب الطبيعة، طالما أن مَنْ يراه يرى الآب (أنظر يو ١٤: ٩)، بالتالي، ليس مخلوقاً مَنْ هو مثل الآب بحسب الجوهر[1]" (الكنوز ١٧: ٨).

١- المبدأ هنا هو أن الأقل لا يعلن الأعظم وبما أن الابن يعلن الآب إذ هو صورته إذن فهو مساوٍ للآب، وهذا يؤكده في موضع آخر القديس كيرلس، قائلاً: "يقول المسيح لتلاميذه موضحاً أنه مساوٍ للآب: "الَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ" (يو ١٤: ٩)، فكيف يُعلن الذي هو بطبيعته كائن بذاته، ذلك، وهو أقلّ من الآب؟ فإذ كان أقلّ من الآب وهو يُعلِن الآب بدون وساطة أو تغيير فإنه إذا استمر في إعلان الآب سوف يصبح مثل الآب، لأن الابن صورة الآب. ولكن هذا مستحيل.



أيضاً التعليم الكتابي الذي يعلن أن إمكانية فعل الخطية ينحصر فقط في طبيعة المخلوقات العاقلة وفي نفس الوقت يكرز بأن ربنا يسوع المسيح قدوس ولم يفعل خطية قط (أنظر ١ بط ٢: ٢٢، ٢ كو٥: ٢١)، يبرهن على إلوهية **الكلمة** المتأنس: "بما أن إمكانية الخطأ هي إحدى صفات المخلوقات، دون أن تكون هذه الصفة واحدة من خواص الابن (أنظر ١ بط ٢: ٢٢)، إذن فالابن ليس بمخلوقٍ" (أنظر الكنوز ١٧: ١١). أيضاً يستخدم القديس كيرلس شاهداً آخراً من الكتاب يعطي للابن فقط تعبير "إله الكل" مؤكداً أن لا أحد من المخلوقات دُعيَّ هكذا. إذن لو افترضنا، بحسب رأي الهراطقة، أن الابن هو مخلوق، بالتالي الآب أيضاً يكون مخلوقًا لأن الكتاب يقول عنه أيضاً أنه "إله الكل".

أيضاً يركز القديس كيرلس على النتائج المحزنة في حالة كون الابن مخلوقاً. طالما الكتاب يكرز بأن ربنا يسوع المسيح هو الوسيط بين الله والبشر (أنظر ١ تيمو ٢: ٥) بواسطة تأنسه، فلو صار الرأي الذي يقول إن الابن مخلوقٌ مقبولاً، "فكيف يكون متَّحداً بالله بحسب الجوهر؟ بأيةِ طريقةٍ يكون واحداً مع ذاك؟ لأن المختلفان بحسب الجوهر، لا يستطيعان أن يتَّحدا بطريقةٍ طبيعيةٍ أبداً فيما بينهما. وكيف نخلص بواسطته إن كان مخلوقاً، وكان الكتاب المقدس يقول: "بمحبته ورأفته هو فكَّهم ورفعهم وحملهم كل الأيام القديمة" (أش ٦٣: ٩)؟ ولو كان مخلوقاً، فكيف نتبرر حين نؤمن به؟ بل كيف أُلغيت بواسطته عبارة: "لأنك تراب وإلى تراب تعود" (تك ٣: ١٩). لأنه لم يكن عملاً يتناسب مع المخلوق، أن يُغيِّر القرار الذي أُعطيَ من الله. ولو كان مخلوقاً، فكيف يُبطل الخطية، لأن النبي يقول عنه: "مَنْ هو إلهٌ مثلك غافر الإثم وصافح عن الذنب كبقية ميراثه" (ميخا ٧: ١٨)؟ ولو كان مخلوقاً لَمَا استطاع أن يقول: "فإن حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً" (يو ٨: ٣٦). لقد حرَّرنا إذن؛ لأنه وريث الآب، وليس مخلوقاً، وفق هوس محاربي الله" (الكنوز ١٥: ٥٦).

فالأقلّ لا يمكن أن يعلن الأعظم منه، إذن الذي فيه الآب والذي يعلن الآب لابد وأن يكون كاملاً لأنه صورة الكامل أي الآب". شرح إنجيل يوحنا، المجلد الأول، الإصحاح الأول ص ٦٠.

أيضاً يستمر القديس كيرلس في البرهنة على خطأ رأي الهراطقة باعتبار الابن مخلوقًا مستخدماً شواهد الكتاب المقدس. هكذا لو افترضنا أن الابن مخلوق وأيضاً يُدعى أنه حكمة الآب (أنظر ١ كو ١: ٢٤)، الذي خلق الكل بالحكمة (أنظر مز ١٠٤: ٢٤) بالتالي فإن الحكمة خلقت ذاتها. بالتالي . كما يقول القديس كيرلس . علينا أن نعترف أن الابن ليس مخلوقاً (الكنوز ٢١: ١).

على الجانب الآخر، لو افترضنا "إن كان الابن قد خُلق، ودُعيَ أيضاً في الكتاب المقدس قوة الله وحكمة الله (أنظر ١ كور ١: ٢٤)، لَكان هناك زمنٌ كان الله فيه بلا قوة أو حكمة، طالما أن الابن لم يكن موجوداً؛ لأن المخلوق يصير من العدم. لكن الآب كان دائماً وأبداً حكيماً وقوياً، لذلك فالابن كان أيضاً دائماً موجوداً؛ لأنه هو حكمة الله وقوته" (الكنوز ٢١: ٣).

إن اعتبار الابن مخلوق ينشئ مشكلة تفسيرية خطيرة لنص (يو ١٤: ٩): "مَنْ رآني فقد رأي الآب" لأنه بذلك، صورة الآب تظهر في المخلوقات. والنتيجة الخطيرة عندئذٍ هي أنه لا يوجد أي اختلاف بين الخليقة والله، ويكون هو أيضاً مخلوق "لكن بما أن الله الآب ليس مخلوقاً وتظهر صورته كاملة في الابن على أساس أن مَنْ يرى الابن يرى أيضاً الآب، بالتالي فإن الابن ليس مخلوقًا إذ هو صورة الآب"(الكنوز ٢١: ٤).

إن إصرار الأريوسيين على رأيهم الخاطئ بأن الابن مخلوقٌ، يحمل نتيجةً لاهوتيةً مباشرةً مفادها أنه لا يُعتبر ولا يُدعى الابن "كلمة" و"حكمة" و "قوة" و"شعاع" الآب، طالما لا يمكن لكائن مخلوق أن يوصف بهذه الخواص، أو طالما نقر بأن كل المخلوقات الأخرى تمتلك هذه الامتيازات طالما يمتلكها الابن الذي هو مخلوق بحسب زعم الهراطقة. "لكن بما أن هذه الامتيازات وهذه الأقوال لا تنصرف إلى أي مخلوق آخر؛ لأنها تتناسب فقط مع الابن، فالابن إذن ليس مخلوقاً ضمن المخلوقات، بل هو ثمرة جوهر الآب" (الكنوز ٢١: ٨).

ب ـ الابن بحسب الطبيعة هو الوليد "γέννημα" الأزلي للآب

أخذ القديس كيرلس على عاتقة تفنيد آراء الأريوسيين[1] التي تفترض مخلوقية الابن، وتزعم أنه يوجد تطابق بين تعبيري "مخلوق" و"مولود"، وكذلك بين فعل "ألد" وفعل "أخلق". وقد استعرض القديس كيرلس في المقالة الثامنة عشر من كتاب الكنوز نتائج هذه الآراء الخاطئة كالآتي:

١- لو كان المولود من الله هو نفسه المخلوق من الله عندئذٍ لَما قيل لوحيد الجنس: "هذا هو ابني الحبيب" (مت ٣: ١٧)، لأن بحسب هذا التطابق تصبح المخلوقات الجامدة هي أبناء لله بحسب الطبيعة.

٢- لن يتفوق الابن في شيء عنا، طالما أيضاً هو في الأساس مخلوق ومولود.

٣- لو أن كل مخلوق في الأساس أيضاً مولود، عندئذٍ لا أحد من المخلوقات ليس هو أيضاً ابن لله. عندئذٍ كيف وعَدنا الله بالبنوة حين قال الإنجيلي يوحنا: "وَأَمَّا كُلُّ الَّذِينَ قَبِلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ سُلْطَاناً أَنْ يَصِيرُوا أَوْلاَدَ اللَّهِ أَيِ الْمُؤْمِنُونَ بِاسْمِهِ".

٤- طالما أن المخلوق بحسب الطبيعة هو أيضاً مولود بحسب الطبيعة مثل الابن المساوي للآب في الجوهر عندئذٍ كل ما خُلِق سيكون إلهاً بحسب الطبيعة وليس بالمشاركة.

٥- لو أن هذا المولود هو أيضاً مخلوق، عندئذٍ الذي يخلق سيكون أيضاً آباً. وطالما الابن يخلق إذن هو ذاته سيكون أيضاً الآب وسيكون غير الصائر هو آب الآب، وفى نفس الوقت يكون مثلنا ولديه نفس معرفتنا لله.

٦- لو أن المولود هو ذاته المخلوق. والمخلوق كما يقولون . هو أيضاً الروح، بالتالي الروح هو مولود. وبما أن الابن هو وليد الآب، عندئذٍ ليس هو المولود الوحيد.

١- أنظر
ΕΥΝΟΜΙΟΥ, Ἀπολογητικός, 12, R. P. VAGGIONE, Eunomius the extant works (oxford Early Christian texts), oxford (Clarendon press) 1987, P. 46, 1-48.

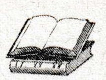
٧- لو أن المخلوق هو أيضاً مولود مثل الابن، عندئذٍ الابن سيكون أخاً للكل، وليس هو الرب الإله. لكن بما أنه هو الرب الإله، عندئذٍ فهو ليس أخاً لأحد من المخلوقات. وبما أن الابن هو المولود الوحيد، إذن أي من المخلوقات لا يكون أخاً. بالتالي كيف يكون المخلوق هو نفسه المولود؟!

٨. لو مسألة أن يلد وأن يخلق هما نفس الأمر عند الله الآب، وهو يَلِد الابن بدون وسيط، فمن الواضح أيضاً أن كل ما يلده ويخلقه يكون بدون وسيط. لكن بما أنه هو يلد بدون وساطة أحد وأيضاً يخلق الكل ولكن ليس بدون وسيط "كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان" (يو ١ : ٣) إذن كيف تكون الولادة عند الله هي نفسها الخلق؟ فلو أن الولادة عند الآب هي نفسها الخلق عندئذٍ هو يلد المخلوقات التي يصنعها. لكن واضح طبعاً أن ولادة الابن هي من جوهر الآب أما الخلق فهو ليس من جوهر الآب.

٩. لو أن الولادة هي نفسها الخلق عندئذٍ سيكون الذي يلد يخلق الذي يُولَد ويَلِد الذي يُخلق. وبما أن الخلق ليس من جوهر الآب، بينما الولادة هي من جوهره. إذن الخلق ليس هو نفسه الولادة.

تلك هي النتائج الخطيرة التي استعرضها القديس كيرلس من جراء التطابق الذي يصنعه الأريوسيون بين "الولادة" و"الخلق". فمصطلح "مولود" يجب أن لا يدرك بمفهوم "الخلق"، بل فقط بمفهوم أن الابن هو المولود الوحيد الأزلي من الآب فهو "وليد" الآب الأزلي بحسب الطبيعة[1].

١- أنظر أيضاً القديس أثناسيوس الرسولي، ضد الأريوسيين، المقالة الأولي: ٩, المرجع السابق ص ٤٦.



ج ـ الابن ليس (مجرد) أداة يعمل بها الآب

ὁ Υἱός όχι"ὑπουργικόν" ὄργανο τοῦ πατρός

يبرر أريوس وأتباعه تعليمهم الخاطئ عن أن الابن خُلِق بقولهم إن إله الكل أراد أن يخلق المخلوقات، إلاَّ أن هذه المخلوقات لا يمكنها أن تحوي قوته الفائقة، فخلق أولاً الابن الذي دعاه **الكلمة** بهدف أن يُخلق المخلوقات الأخرى بواسطته[1]. إذن مبرر أريوس وأتباعه هو أن المخلوقات لا تستطيع أن تحوي قوة الآب. وعلي الجانب الآخر، كان من غير المعقول. كما يزعمون. أن تصل قوة الله غير الموصوفة إلى الأدنى وأن تنشغل بأمور صغيرة جداً (الكنوز ١٥: ١٢). أيضاً يستخلص القديس كيرلس من رأيهم الخاطئ بطريقة منطقية نتيجة عبثية تجعل الذين يؤمنون بآرائهم مجدِّفون لو افتراضنا أن الآب خلق الابن كأداة لنفسه لكي يستخدمه في خلق الكائنات، إذن فقد احتاج الآب للذي كان غير موجود، وهنا يتساءل القديس كيرلس، قائلاً: إذن مَنْ هو الأعظم فيما بينهما؟ الذي احتاج أو الذي سدد الاحتياج الذي كان يُعاني منه الاثنان، فالواحد هنا يكمل الآخر، وبذلك فإن كل واحد في حد ذاته هو ناقص. ويستمر القديس كيرلس في عرض النتائج العبثية الأخرى لو افترضنا أن رأي الهراطقة صحيح. إذ يقول، بما أن الآب أزلي ووصل إلى الاحتياج للابن الذي صار بعده زمنياً، كما يدَّعي أولئك، فإن طبيعة الابن تكون قد صارت لإتمام أزلية الآب، هكذا امتزج الاثنان اللذان لا يمكن أن يمتزجا. ويترك القديس كيرلس خصومه مترنحين ومنبطحين أرضًا وفي إعياء من جراء النتائج العبثية لآرائهم الخاطئة ثم يعلن لهم الحقيقة بأن الابن لم يَصِر متأخراً زمنياً بعد الآب، الذي بواسطته خُلِق كل شيء، ولا صار كمثل أداة لأجل هذا الهدف، بل كان أزلياً معه حقاً وهو قوته وحكمته" (الكنوز ٤: ٣٢). أما بخصوص ما قالوه عن أن الله لا يقبل أن يصير خالقاً للأشياء التافهة فخلق الابن ليعتني بالصغائر، قد فنده القديس كيرلس بشواهد من الكتاب المقدس: "أَلَيْسَ عُصْفُورَانِ يُبَاعَانِ بِفَلْسٍ؟ وَوَاحِدٌ مِنْهُمَا لاَ يَسْقُطُ عَلَى

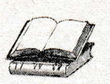
١- أنظر

ΕΥΝΟΜΙΟΥ, Ἀπολογητικός, 15, R. P. VAGGIONE, Eunomius the extant works(oxford Early Christian texts), oxford (Clarendon press) 1987, P.52, 15-16.

الأَرْضِ بِدُونِ أَبِيكُمْ. وَأَمَّا أَنْتُمْ فَحَتَّى شُعُورُ رُؤُوسِكُمْ جَمِيعُهَا مُحْصَاةٌ" (مت ١٠: ٢٩ . ٣٠)، "اُنْظُرُوا إِلَى طُيُورِ السَّمَاءِ: إِنَّهَا لاَ تَزْرَعُ وَلاَ تَحْصُدُ وَلاَ تَجْمَعُ إِلَى مَخَازِنَ، وَأَبُوكُمُ السَّمَاوِيُّ يَقُوتُهَا. أَلَسْتُمْ أَنْتُمْ بِالْحَرِيِّ أَفْضَلَ مِنْهَا؟" (مت ٦: ٢٦)، "فَإِنْ كَانَ عُشْبُ الْحَقْلِ الَّذِي يُوجَدُ الْيَوْمَ وَيُطْرَحُ غَداً فِي التَّنُّورِ، يُلْبِسُهُ اللهُ هكَذَا، أَفَلَيْسَ بِالْحَرِيِّ جِدّاً يُلْبِسُكُمْ أَنْتُمْ يَا قَلِيلِي الإِيمَانِ؟" (مت ٦: ٣٠)، ثم يتساءل متهكماً من غبائهم قائلاً: "ماذا سيمكن أن يوجد أرخص من العشب والعصافير، لكن الله من صلاحه . يعتني بهم" (الكنوز ١٥: ١٢). أيضاً هناك نتيجة عبثية ركّز عليها القديس كيرلس قائلاً لو افتراضنا أن رأي الهراطقة صحيح بشأن أن الآب خلق الابن ليكون أداة يخلق بها المخلوقات، فإن الابن سوف يحتاج أيضاً لوسيط لأنه هو نفسه مخلوق وليست لديه المقدرة على تحمل قوة الله الآب، وهكذا سوف نصل إلى جمع لا يحصى من الوسطاء (الكنوز ١٥: ١٣).

يعود القديس كيرلس كعادته ويورد براهين من الكتاب المقدس تدعّم كلامه المنطقي مفترضاً كما يزعمون أن الآب صنع الابن لكي يصير خالقاً للطبيعة المخلوقة، بالتالي كان يجب أن يتوقف عن العمل من اللحظة التي خُلِق فيها الابن، إذن كيف يعمل الآب حتى الآن؟ لأن المخلص ذاته يقول "أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل" (يو ٥: ١٧). هكذا الآب يعمل وكذلك الابن، وهم يقولون أن الابن أدّى مهمة الخلق ولا لزوم له. إذن هذا الكلام غير معقول لأنه سوف يصطدم بكلام المخلص نفسه. عندئذٍ يعلن لهم القديس كيرلس الحقيقة بكلام واضح، قائلاً "وبالتالي يتضح لنا أن الابن لم يَصِر بهدف أن يكون مخلوقاً، بل لكي يصير خالق الكّل، وبما أنه أتى من جوهر الآب غير الموصوف، بكونه ابناً يصنع كل أعمال الآب، فتلك هي مكانته بحسب الطبيعة، أي كونه إلهاً، وبسبب هذا هو أيضاً خالق" (الكنوز ١٥: ٢).

أيضاً قبول الفكر الذي ينادي بأن الله الآب خلق الابن لكي يخلق الطبيعة المخلوقة يعني أن الله الآب فكّر وخطّط أولاً في خلق الكائنات لذلك خلق الابن. والسؤال المطروح من القديس كيرلس: لماذا خُلِق قبلنا ذاك الذي كان في فكر الله



في المرتبة الثانية بعد المخلوقات؟ فلماذا لم يقرر بخصوصه أولاً، طالما خلقه أولاً؟ والسؤال الأخطر الذي واجههم به القديس كيرلس هو لماذا طالما نحن كنّا أولاً في فكره، دُعيَ ابناً ووارثاً، بينما نحن عبيد وورثة ذاك الذي صار لأجلنا؟ وعاجلهم القديس كيرلس بالنتيجة غير المعقولة المستنتجة من رأيهم الخاطئ: "كان ينبغي نحن أن نكون أولاداً ووارثين بينما أداة خلقنا، الذي صار لأجلنا، يكون عبداً وخاضعاً لنا". هكذا يضطر القديس كيرلس أن يصرخ قائلاً: "حاشا ليتنا نهرب بعيداً عن هذا الفكر غير المعقول" (الكنوز ١٥: ٢٦).

يؤكد القديس كيرلس كلامه من الكتاب المقدس، إذ يقول إن الابن لم يصِر لأجلنا ولم يكن خلق المخلوقات يوجد في فكر الآب قبل خلق الابن، بل كما هو مكتوب "الكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله" (يو ١:١). ويأتي إلى برهان واضح، إذ يقول: "لأنه إذا لم يكن للنور أن ينير بطريقة أخرى، إلاَّ فقط بواسطة شعاعه الخاص، هكذا الأمر بالنسبة للآب أيضاً، هو لا يخلق أي أحد من الكائنات إلاَّ فقط بواسطة **كلمته** لأنه يقول "كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان" (يو ١:١)" (الكنوز ١٥). هكذا يدعو القديس كيرلس الابن بأنه "يمين وقبضة الله". لأن كل ما صنعه، صنعه بواسطته، كأنه يده" (الكنوز ١٥: ٢٧).

د ـــ المفهوم الحقيقي لشواهد كتابية معينة بخصوص الابن وكلمة الله:

١ـــ نص أمثال ٨:٢٢: "اَلرَّبُّ قَنَانِي أَوَّلَ طَرِيقِهِ، مِنْ قَبْلِ أَعْمَالِهِ، مُنْذُ الْقِدَمِ"

أثناء مواجهة ودحض فكر الأريوسيين عن إدراك الابن كمخلوق، تعرض القديس كيرلس لتفسير نص (الأمثال ٨:٢٢): "الرب قناني وخلقني أول طريقه من قبل أعماله منذ القدم". ذلك النص الذي استخدمه الأريوسيون ليدعِّموا وجهة نظرهم في أن الابن مخلوق.

في البداية يبين لهم القديس كيرلس أن الكلام بأمثلة يُدرك جيداً عندما نعرف نحن مفهوم هذه الأمثلة كما تُقال في أعراف بيئةٍ معينة، أي لابد أن نعرف لغة الأمثلة وماذا تعني لمستخدميها. فالأمثلة لا تُفسر حرفياً. فالمثل لا يُدرك بسهولة



لأنه لا يعلن الغرض منه مباشرةً. ويستشهد القديس كيرلس بالمخلص نفسه حين قال لتلاميذه "قد كلمتكم بأمثال ولكن تأتي ساعة حين لا أكلمكم أيضاً بأمثال بل أخبركم عن الآب علانيةً" (يو ١٦: ٢٥). حين قال الحكمة "الرب قناني (خلقني)" تستخدم أقوالاً من الأمثال "الحكمة بنت بيت لذاتها" (أم ٤: ١)، إذن بما أن الحكمة هي بالطبع كلمة الله، لكن تبني بيتاً لذاتها، بالتالي يجب أن نعرف ما الذي تشير إليه عبارة "قناني أو خلقني".

ويعلن القديس كيرلس بوضوح أن المسيح هو الذي يقول هذا لأنه بالفعل وُلِدِ وصار إنساناً. وفي هذه الحالة، هذا التفسير لا يمثل تجديفاً طالما بالفعل قال هذا بكونه إنساناً. وهو بيت الحكمة الذي بُني بواسطتها جسدها العادي الذي وُلِدِ من العذراء القديسة الذي سكن فيه ملء اللاهوت جسدياً (أنظر كو ٢: ٩).

ويستخلص القديس كيرلس النتيجة بكل وضوح قائلاً "فلأن الكلمة صار جسداً، يقول الكتاب المقدس عنه "قناني" لأنه صار جسداً وهكذا يجب أن نفهم هذا الذي قيل" (الكنوز ١٥: ٣٠).

أيضاً عن طريق مفهوم تعبير "قناني . خلقني" كما ورد في الكتاب المقدس يبرهن القديس كيرلس أن للتعبير مفاهيم متعددة. فهذا الفعل "خلقني" يُمكن أن يُقال على الكائنات التي توجد بالفعل وعن تلك التي لم تصر بعد. إذا قبلنا هذا الفعل على المخلوقات التي لم تُخلق بعد يمكن أن تعني مجيئهم إلى الوجود من العدم. لكن بالنسبة لتلك التي هي موجودة بالفعل ولا تحتاج لأن تُخلق لكي توجد، لا تعني خلق جوهر بل التحول من شيء إلى شيء آخر. ويعطي لنا القديس كيرلس أمثلة على ذلك من الكتاب المقدس: يقول داود النبي "وشعب سوف يُخلق يسبح الرب" (مز ١٠٢: ١٩) وأيضاً "قلباً نقياً اخلق فيَّ يا الله" (مز ٥١: ١٢). طبعاً، كما يقول القديس كيرلس، لا يقصد داود أن شعباً سوف يُخلق من جهة جوهره، لكن يشير إلى ذاك الشعب الذي تحول من الضلال إلى معرفة الله. ولم يطلب أيضاً أن يخلق قلباً آخر غير الذي له، بل توسل لأن ينال التطهير. أيضاً حين يقول بولس عن المسيح: "مبطلاً بجسده ناموس الوصايا في فرائض لكي يخلق الاثنين في نفسه إنساناً واحداً

جديداً" (أف ٢ :١٥). وكذلك: "وتلبسوا الإنسان الجديد المخلوق بحسب الله في البر وقداسة الحق" (أف ٤ :٢٣). لا يقصد. كما يقول القديس كيرلس. أن الإثنين يتحدان باتحاد طبيعي بواسطة المسيح، لكن يقصد أن بني إسرائيل والأمم يتحولان ويكتسبان معرفة جديدة، بالنسبة لبني إسرائيل يكتسبون هذه المعرفة وفق ناموس العبادة، أما بالنسبة للأمم، فالأمم يتحررون من الضلال الذي كان يُصاحبهم. وبالنسبة لنا جميعاً يريد أن نلبس الإنسان الجديد الذي خُلِق كما أراد الله. وواضح . كما يقول القديس كيرلس. أنه لا يقصد أن نلبس إنساناً ما حقيقيًا، بل حياةً جديدة في الداخل" (الكنوز ١٥: ٣١).

إذن كلمة "خلقني" لا تعني على أية حال خلق جوهر، لأنه بعد ذلك يقول "أول طريقه من قبل أعماله" بمعني خلقه لأعماله. أي خُلِق أو صار كلمة الله جسدياً، أي إنساناً، لكي يكون بداية طرق الرب وأعماله. لأنه أولاً في المسيح وجدت الحياة الإنجيلية تطبيقها التام. وعبارة "طرق الرب" . كما يقول القديس كيرلس. تعني وصايا الرب إذ يقول داود: "طرقك يا رب عرفني سبلك (وصاياك) علمني" (مز ٢٥ :٤). هكذا الأعمال تُظهِر الحياة الفاضلة ووصايا الله.

يُعطي أيضاً القديس كيرلس تفسيراً صحيحاً لنص الآية السابقة من خلال عقيدة تأنس كلمة الله. فربنا يسوع المسيح قد تألم بحسب بشريته، أي بالجسد، وذاق الموت بالجسد، بالرغم من أنه بحسب طبيعته الإلهية هو غير متألم وغير مائت[1]. أيضاً على أساس تعليم الكتاب المقدس بخصوص عمل ربنا يسوع الفدائي، فإن "الكلمة" صار جسداً (يو ١ :١٤) وبولس يكتب عن المسيح "صار لعنة لأجلنا" (غلا ٣ :١٥)، كذلك "الذي لم يعرف خطية، صار خطية لأجلنا" (١ كو ٥ :٢١). ويقول القديس كيرلس: "فنحن لا نصدق أن **الكلمة** تحول إلى جسد، ولا نقول إنه صار حقاً لعنة أو خطية. لكن بما أن الكتاب المقدس يقول عنه هذا، فيجب علينا أن، نُدركه بوقار وتقوى، بنفس الطريقة، عندما يقول **كلمة** الله "الرب قناني. خلقني" يجب أن ندركه على أنه جعلني إنساناً، ولا نفهم أن هذه

١- أيضاً أنظر ضد الأريوسيين، المقالة الثانية، ترجمة أ. صموئيل كامل ود. نصحي عبد الشهيد، مراجعة د. جوزيف موريس فلتس. إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، أبريل٢٠٠٤م، فقرة: ٥٤، الكنوز ٥٢:١٥.



العبارة ضد جوهره"[1].

هكذا، كلمة "قناني . خلقني" لا يجب أن تخص جوهر الله **الكلمة**، بل أن تُفسر من جانبنا بتقوى، لأن مفهوم هذا القول يخص موضوع التأنس.

يكرر القديس كيرلس تأكيده على أن عبارة "الرب قناني أول طرقه من قبل أعماله" لا تعني أن الرب خُلِق من العدم مثل كل المخلوقات بل تعني انتقاله من شيء إلى شيء آخر. لأن **الكلمة** هو أزلي، وعندما صار إنساناً، صار بدايةً لكل طريق الصلاح لأجلنا.

ويلفت القديس كيرلس نظرنا إلى حقيقة هامة وهى أن الكتاب المقدس حين يشير إلى ولادة الابن من الآب، لا يضيف السبب، أي لا يقول لماذا هو الله، أو لماذا وُلِدِ من الآب، "لكن عندما تذكر الكتب المقدسة تشبُّهِهِ بنا وولادته من الروح القدس ومن العذراء، تُضيف مباشرةً السبب؛ لكي نتعلّم أن الذي هو دائماً **كلمة** الله، لضرورةٍ ما صار إنساناً، بدون أن تكون بدايته هي زمن ولادته، لكن تغيَّر من جهة الشكل آخذاً صورة عبد، وبحسب هذا يُقال إنه خُلِق وصُنِع" (الكنوز ١٥: ٤٣).

ويستشهد القديس كيرلس بشواهد كتابية تُثبت حقيقة هذا الأمر، فعندما يتحدث الكتاب عن الابن في ولادته من الآب أو علاقته الأزلية معه، لا يذكر السبب، على سبيل المثال: "في البدء كان الكلمة"، "وكان الله الكلمة" (يو ١:١). "أنا في الآب والآب فيَّ" (يو ١٤:١١)، "أنا والآب واحد" (يو ١٠:٣٠)، "من رآني فقد رأى الآب" (يو ١٤:٩). بينما بخصوص الولادة بالجسد يذكر الكتاب الأسباب مصحوبة بالوقائع، على سبيل المثال، قال المخلص ذاته: "لأني قد نزلت من السماء ليس لأعمل مشيئتي بل مشيئة الذي أرسلني" (يو ٦:٣٨). أيضاً: "أنا جئت نوراً إلى العالم حتى مَنْ يؤمن بي لا يمكث في الظلمة" (يو ١٢:٤٦). وكذلك: "لهذا قد وُلِدت أنا ولهذا قد أتيت إلى العالم لأشهد للحق" (يو ٨:٢٧). وشواهد أخرى يذكرها، أنظر على سبيل المثال (يو ٣:١٧)، (١ كو ١٥:٢١)، (رو ٨:٣ ـ ٤)، (يو ٩:٣٩). هكذا "عندما صار إنساناً، لكي يتمم هذه الأعمال

١ـ الكنوز ١٥:٣٣، أنظر أيضاً ضد الأريوسيين، المرجع السابق، مقالة ٢:٥٥.



ويصير بداية لمثل هذه الأنواع من الطرق، قال عن ذاته: "الرب قناني . خلقني أول طرقه من قبل أعماله". بمعني أنه لم يُخلِق من العدم إلى الوجود، لكن، بينما هو كائن على الدوام، صار جسداً لأجل هذه الأسباب" (الكنوز ١٥: ٤٣).

٢ــ نص سفر الأمثال ٨:٢٣: "منذ الأزل مُسِحت (أُسِّست) منذ البدء منذ أوائل الأرض"

حين استغل الأريوسيون أيضاً آية سفر (الأمثال ٨:٢٣): "منذ الأزل مُسِحت (أُسست) منذ البدء منذ أوائل الأرض" لكي يُدعِّموا رأيهم الخاطئ في أن الابن مخلوق، كان رد القديس كيرلس حاسماً بأن سفر الأمثال هنا يتحدث عن حكمة الله الذي هو **كلمة** الله مشيراً إلى (أم ٣: ١٠): "الله بحكمة أسس الأرض". إذن لكي يؤسس الله الأرض، أسسها بواسطة **كلمة** الله الذي هو حكمة الله. بالتالي حين قال: "منذ الأزل مُسِحت أو أُسست"، لا يقصد أن الله جعله **كلمةً** أو ابناً، بل لأنه صار إنساناً ولَبِسَ شبهنا، صار بدايةً وأساساً لنا، نحن الذين نبني في التقوى إيماننا به، ونتغير إلى خليقة جديدة، كما هو مكتوب (أنظر ٢ كو ٥: ١٧). هكذا يكون هو أساساً لكل مَنْ يُبنى فوقه بالإيمان. وهذا المفهوم هو نفس المفهوم الذي شرحه حين كان يفسر (أم ٨: ٢٢) "الرب قناني . خلقني أول طرقه من قبل أعماله" (الكنوز ١٥: ٦٢).

أيضاً يستشهد بما قاله بولس الرسول: "لا يستطيع أحد أن يضع أساساً آخر غير الذي وُضِع الذي هو يسوع المسيح" (١ كو ٣: ١١)، ليبرهن على أن المسيح هو الأساس، وبالتالي يكون المبنى الذي بُني فوقه ينبغي أن يكون مثل الأساس. "لأنه هو الكلمة، ولا شيء يشبه الكلمة، وليس من الممكن أن ينطبق واحدٌ من المخلوقات فوقه بطريقة طبيعية؛ لأنه هو الخالق، بينما هذه مخلوقات. لكن حين صار إنساناً، ومثلنا في كل شيء، فيما عدا الخطية، وضع ذاته أساساً لهؤلاء الذين بنُوا فوقه ويستطيعون أن ينسجموا معه. لأنه، إذ صار هو ذاته إنساناً، صارت لديه قرابةً شديدةً معنا بسبب طبيعة الجسد" (الكنوز ١٥: ٦٣)، وبذلك يؤكد القديس

كيرلس أن تعبير "منذ الأزل مُسحت (أُسِّست)" يجب أن ننسبه لتأنس المخلص، لكي نتجنب التجديف، قائلين أنه خُلِق وأن حكمة الله مخلوقة.

ويعطي لنا مثالاً رائعاً لما ذكره الرب في (يو ١٥: ٥) داعياً ذاته كرمة ونحن الأغصان. فالأغصان ليست غريبة عن الكرمة بل هي منها بحسب الطبيعة. هكذا هو يقول أنه يصير أساساً لكي يُظهِر القرابة الطبيعية لأولئك الذين بُنُوا فوقه عندما صار إنساناً. بالتالي يكون **كلمة** الله الذي تأنس هو الأساس ونحن نصير كأننا أحجار مقدسة نُبنى فوقه لكي نصير أيضاً هياكل للروح القدس الذي يسكن فينا. أيضاً يستمر في الشرح معطياً أمثلة كعادته لتوضيح التفسير الصحيح لنفس الآية ،إذ يقول، نفترض أننا قطعنا حجراً من جبل وجعلناه أساساً لمبني، وكذلك نفترض أن هذا الحجر يتكلم فهو يستطيع أن يقول: "كنت قطعةً صغيرةً من الحجر في الصخر أو في جبلٍ ما، لكني الآن صرت أساساً لابساً الأرض التي تُحيط بي. هكذا يجب أن تفكر بتقوى أيضاً عن حكمة الله، أي الابن؛ لأنه في البداية كان عند الله، وكان الله، كما هو مكتوب (أنظر يو ١: ٢). لكن طالما قُطِع مثل حجر بدون يد من الجبل (أنظر دا ٢: ٣٤)، أي عندما أتى من جوهر الآب، ولَبِسَ، مثل أرضٍ، جسدنا، عندئذٍ يقول إنه هو نفسه صار أساساً، قائلاً بطريقة ما: أنا كنت الكلمة والابن الحقيقي، الآب ألبسني جسداً أرضياً لكي أصير أساساً وبداية لهؤلاء الذين خُلقوا فوقي بواسطة الإيمان، وصرتُ جسداً واحداً مع هؤلاء، لكي يقبلوا التكيُّف والانسجام الطبيعي معي والارتباط بي بسبب قرابتنا بحسب الجسد" (الكنوز ١٥: ٦٤).

٣ـــ نص أمثال ٨: ٢٥: "من قبل أن تقررت الجبال قبل التلال أُبدئتُ (وُلِدت)"

يوضح القديس كيرلس الفرق بين "خلقني" و"وُلِدت"، إذ يقول "بما أن الكلمة، حقاً هو الله، وصار إنساناً، بالتأكيد كإنسان يقول "الرب قناني . خلقني" بينما حين أظهر وجوده الأزلي قال: "من قبل أن تقررت الجبال قبل التلال أُبدئت (وُلِدت)". إذن الولادة تعني أنه أتى من جوهر الذي وَلَده.

أما عن رأي المعارضين بأن الكتاب المقدس لا يميز الكلمات التي يستخدمها، فهو يستخدم نفس الفعل ''وُلِدَ'' حين قال: ''ربيت (وَلدت) بنين ونشأتهم'' (أش ١:٢). وأيضاً: ''تركت الله الذي وَلدَك'' (أش ١:٤س). ''مَنْ يسكب (يلد) زقاق السموات'' (أيوب ٣٨:٣٨). وبالتالي . يقولون . إن ''خَلَق'' و ''وَلدَ'' يعنيان أمراً واحداً وهما أيضاً يخصان الابن. والغرض من هذا الرأي إقناعنا بأن فعل ''وُلدَ'' ليس بالضرورة يعني من الجوهر. لكن القديس كيرلس يرد على هذا الرأي الخاطئ موضحاً أن الكتاب المقدس يستخدم الكلمات لكن لا يجهل أهمية كل كلمة، لكن بعض المرات يقبلها مجازياً. فعن المخلوقات يقول الكتاب: ''في البدء خلق السماء والأرض'' (تك ١:١) و''صنع الله الإنسان''، وليس ''وَلدَ''. أما بخصوص كلمته يقول: ''في البدء كان الكلمة''. إذن بالنسبة للمخلوقات البداية هي الزمن، بينما **كلمة** الله، الذي يوجد قبل الأزل، البداية فقط هي أبيه الذي ليس له بداية، طالما يوجد معه أزلياً.

ويريد القديس كيرلس أن يقول أيضاً، إنه عندما يستخدم الكتاب كلمة''وَلدَ'' بالنسبة للمخلوقات يجب أن نفهمها بطريقة استعارية أو مجازية وليست طبيعية، وكذلك حين يستخدم ''صنع'' أو ''خلق'' بالنسبة للابن يجب أن تُفهم بطريقة استعارية إذ هو الابن بحسب الطبيعة. لأن بالنسبة للمخلوقات، فإن فعل ''وَلدَ'' هو نتيجة للنعمة، بينما بالنسبة لـ ''غير الصائر'' و''غير المخلوق'' أي **كلمة** الآب، فإن ضرورة الطبيعة البشرية فرضت عليه أن يقول إنه خلق ذاته. والمخلوقات مدعوة للتبني **بالكلمة** وإرادة الله. لذلك قال: ''أنتم من أسفل أما أنا فمن فوق'' (يو ٨:٢٣). إذن بكلمة ''أسفل'' يُظهِر وضاعة الجوهر المخلوق بينما بكلمة ''فوق''تعني سمو الطبيعة الإلهية التي تفوق الكل (الكنوز ١٥: ٥٠).

٤ــ نصوص مت ٢٦:٣٨ ــ ٣٩، يو ١١:٣٥، يو ١٢:٢٧

استغل الأريوسيون ما جاء في نصوص بعض الآيات من كلمات مثل: ''بكي'' (يو ١١:٣٥)، ''الآن نفسي قد اضطربت'' (يو ١٢:٢٧)، ''نفسي حزينة'' (مت



٣٨:٢٦)، "إن شئت فلتعبر عني هذا الكأس" (مت ٢٦: ٣٩)، وكل الشواهد الشبيهة بهذه، لكي يبرهنوا على أن يسوع المسيح كان إنساناً عادياً، طالما أن هذه الأقوال تعبر عن خواص بشرية بحته. إذن هو . بحسب رأيهم . مخلوق عادي وليس من نفس جوهر الله الأزلي. وكان رد القديس كيرلس واضحاً، إذ ميّز بين الأقوال التي تناسب **الكلمة** قبل تجسده، وتلك التي قيلت عنه بعد التجسد. بالتالي فإن **كلمة** الله لم يعانِ مثل كل البشر إلاَّ فقط عندما تجسد لأنه اتخذ جسداً من طبيعتنا يعاني ما يعانيه البشر. ويتساءل القديس كيرلس: "لكن بما أنه كان هو الله الذي صار إنساناً وليس أحداً آخر، فمِن أي شيء يخاف الله، إذا كان قد قال حقاً: "أنا هو الحياة" (يو ١٤: ٦)؟ لأيُ سببٍ تخاف الحياةُ الموتَ؟ وإذا كان قد خَلَّصَ آخرين من الموت، فكيف يخاف هو نفسه من الموت؟ وهو الذي قال لتلاميذه: "لاَ تَخَافُوا مِنَ الَّذِينَ يَقْتُلُونَ الْجَسَدَ وَلكِنَّ النَّفْسَ لاَ يَقْدِرُونَ أَنْ يَقْتُلُوهَا" (مت ١٠: ٢٨)، كيف يمكن أن يخاف اجتياز الموت في اللحظة التي يشجع فيها إبرآم قائلاً: "لا تخف يا إبرآم" (تك ١٥: ١). وهو الذي جعل موسى غير مرتعب أمام فرعون، وقال ليشوع بن نون: "تشدد وتشجع" (يشوع ١: ٦). كيف يكون جباناً ويخاف من البشر هذا الذي نَصَحَ الآخرين بأن لا يخافوا، بل أقنعهم أن يصرخوا: "الرب لي فلا أخاف ماذا يصنع بي الإنسان" (مز ١١٨: ٦)؟ كيف لمن أتى لكي يُميت الموت، أن يخاف هو نفسه؟ إن هذا ضد ما أتى لأجله. كيف لا يكون تجديفاً أن تقولوا إنه خاف من الهاوية، وهو الذي لمجرد أن رآه حُراس الأبواب ارتعبوا من الخوف، وعندما فتحوا الأبواب التي لا أحد يستطيع أن يهرب منها، تركوا الأرواح حُرةً، تلك الأرواح التي كانت محبوسةً هناك في الداخل، والنتيجة أن كثيرين قاموا من القديسين ودخلوا المدينة، كما هو مكتوب، وظهروا لكثيرين (انظر مت ٢٧: ٥٢ . ٥٣)؟".

ويعود القديس كيرلس للأقوال التي قالها المسيح في حياته والتي توضح أنه كان لا يخاف شيئاً فيقول: "كيف خاف الموت ذاك الذي قال لأولئك الذين فتشوا عنه وذهبوا ليقبضوا عليه: "أنا هو" (يو ١٨: ٦)؟ كيف خاف الموت ذاك الذي قال:

"لي سلطانٌ أن أضعها ولي سلطان أن آخذها أيضاً" (يو ١٠: ١٨)، وأيضاً: "ليس أحد يأخذها مني بل أضعها أنا من ذاتي" (يو ١٠: ١٨)؟" (الكنوز ٢٤: ١).

بما أن هذه الأقوال قيلت عنه إنسانياً بعد التجسد أي عندما صار إنساناً، إذن هي تخصه بكونه إنساناً يحمل الطبيعية البشرية التي تُوصف بمثل هذه الأوصاف (الكنوز ٢٤: ٢).

ويوجه للهراطقة سؤالاً هاماً وضرورياً، إذ يقول لهم: "لقد أوصلتكم الأقوال التي قيلت بطريقة إنسانية إلى التفكير في أشياء وضيعة عن ابن الله، فلماذا لم تقُدكم الأقوال والأفعال التي تليق به كإله إلى التفكير في الأمور العظيمة والسامية؟" (الكنوز ٢٤: ٤). بالتالي، التأنس ـ كما يؤكد القديس كيرلس ـ كان المبرر الذي جعل الكتب المقدسة تتحدث عنه بطريقة بشرية.

أيضاً هناك بُعدٌ آخر ركّز عليه القديس كيرلس حين أكد على أن **الكلمة** هكذا تحدث وتصرف بطريقة بشرية لكي يظهر بوضوح أنه إنسان حقيقي وليس خيالاً. وأيضاً بالرغم من أنه بلا خطية، إلاّ أنه سمح لجسده وطبيعته البشرية أن تخضع لهذه الأوجاع التي هي من ضمن خصائص هذه الطبيعة؛ لكي يبرهن أنه لبس جسداً، وصار إنساناً بالحقيقة بحسب الكتب (أنظر يو ١: ١٤).

ولا ينسي القديس كيرلس البُعد الآخر، وهو أن **الكلمة** عندما صار إنساناً لم يتوقف عن أن يكون إلهاً، فصنع أفعالاً تليق به كإله، وقال لليهود: "فإن لم تؤمنوا بي فآمنوا بالأعمال لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الآب فيّ وأنا فيه" (يو ١٠: ٣٨) (الكنوز ٢٤: ٥). هكذا تلك الأقوال التي قيلت وصارت بطريقة تليق به بكونه إلهاً تُظهِر المخلص أنه الله، بينما تلك التي قيلت وصارت بطريقة إنسانية، تُظهر أنه إنسان بالحقيقة.

يقول أيضاً القديس كيرلس، إن المخلص قد أبطل الموت بموته (أنظر ٢ تيمو ١: ١٠). "وإذا كان الموت لا يُبطل إن لم يمُت هكذا أيضاً هو لم يخَف من أي ألم للجسد لَما تحررت الطبيعة البشرية من الخوف" (الكنوز ٢٤: ١٠). ويتابع القديس كيرلس حديثة موضحاً أن هذه الحقيقة تسري على كل أوجاع الجسد التي اجتازها المخلص: "سنجد أن كل أوجاع الجسد التي عاناها المسيح، لم تُعلن لكي



تصير مسيطرة عليه، مثلما يحدث معنا، بل تُعلَن بقوة **الكلمة** الذي يسكن في هيكل جسده، وهكذا تتغير الطبيعة البشرية نحو الأفضل" (الكنوز ٢٤: ١٠).

أراد القديس كيرلس أن يوضح للهراطقة أن كل ما أجتازه المسيح بشرياً هو لأجلنا ولأجل خلاصنا، وبناء على ذلك، فإننا لا نخجل من الأقوال التي قيلت عنه بكونه إنساناً. لذا يدعونا القديس كيرلس بأن نفتخر، بصليب مخلِّصنا المسيح ونؤمن بأنه لأجل هذا قد خلَّصنا، لأنه صار لأجلنا إنساناً وصُلِب لأجلنا، لكي يُبطل الموت الذي يسري علينا، ولكي يقيمنا أيضاً بذاته محولاً إيانا من حالة الفساد إلى عدم الفساد" (الكنوز ٢٤: ١١). وهكذا بكونه إنساناً قال: "إلهي إلهي لماذا تركتني" (مت ٢٧:٤٦)، "فلتعبر عني هذا الكأس" (مت ٢٦:٣٩)، بينما بأعماله برهن أنه هو الله لأن الشمس أخفت شعاعها ولفَّ الظلام السماء، وانشقت الصخور وحجاب الهيكل وصنع أموراً أخرى عظيمة مثل هذه لكي يبرهن أنه هو الله الذي صار إنساناً. والبرهان على ذلك . كما يؤكد القديس كيرلس . أن صالبيه الذين كانوا يستهزؤن به من قبل، وهم يرون كل ما صار بطريقة إلهية، قالوا: "حقاً كان هذا هو ابن الله" (مت ٢٦:٢٤).

ثم بعد كل هذه البراهين يضع أمام الهراطقة برهاناً آخر، في غاية من الأهمية، إذ يستشهد بما قاله الله بواسطة الأنبياء بخصوص أورشليم: "سببت لي حزناً بكل ما فعلت" (أر ١٦:٤٣س)، وأيضاً "أفما أعاقبهم على هذه يقول الرب أم لا تنتقم نفسي من أمة كهذه" (أر ٩:٩). وغيرها من الشواهد التي تُظهِر تصرفات الله تجاههم بطريقة بشرية. فيساءلهم القديس كيرلس: "إن **كلمة** الله كان هو مَنْ قال هذه الأقوال للأنبياء، فما الذي يمكن أن يصنعه محاربو المسيح؟ هل يعتقدون أن له مثل البشر . نفساً وقلباً، ويقولون إن ألم الحزن والغضب قد استحوذ عليه، فيظهر وكأن لا شيء لديه أكثر من الإنسان، **كلمة** الله الذي هو فوق أي طبيعة مخلوقة مثل الآب؟" (أنظر الكنوز ٢٤: ١٤). طبعاً سيقولون أن هذه الأقوال قيلت على **الكلمة** بطريقة رمزية. وهنا يقول القديس كيرلس للهراطقة: "إذا كنتم تحفظون لابن الله مكانته التي تليق به . عندما يقول هذه الأقوال . مؤكدين على أنه فوق الحزن

والغضب والهوى، بالرغم من أنه ظهر محتملاً كل هذا لأجل شيء مفيد، فكيف يُعقل ألاّ نسمح له . وقد صار إنساناً واتخذ جسداً . بأن يقول مثل هذه الأقوال لكي يظل غير متألم، بالرغم من أن هذه الأمور تُعد من خصائص الجسد بحسب طبيعته، أي ذلك الجسد الذي أخذه لأجلنا مع كل صفاته الطبيعية؟ أي أن يبكي، ويضطرب، ويصارع، ويتجنب الموت، ويتألم بكل ما هو شبيهٌ بتلك الأمور؛ لأن هذه الأمور كلها مِن صفات الطبيعة الإنسانية" (الكنوز ٢٤: ١٤).

٥ـ نص سفر أعمال الرسل ٢:٣٦

يستخدم الأريوسيون نص سفر أعمال الرسل: "فليعلم جميع بيت إسرائيل أن الله جعل يسوع هذا الذي صلبتموه أنتم رباً ومسيحاً" (أع ٢:٣٦) لكي يدعّموا رأيهم الخاطئ عن الابن. والتفسير الصحيح للقديس كيرلس، هو أن فعل "جعل" "ἐποίησε" لا يخص جوهر **الكلمة** أي الأقنوم الثاني للثالوث قبل تأنسه، بل يخص ناسوته. وبحسب تعبير القديس كيرلس، يخص "الهيكل الذي صار من مريم" (الكنوز ٢١: ١٧). ويعطي لنا مثالاً توضيحياً، "شخص كان فقيراً ثم صار مالكاً لأموالٍ، أو شخص لم يكن نبياً من البداية ثم مُسح من إله ليكون نبياً. في هذه الأمثلة كلمة "صار" لا تعني البداية، لكنها تدل على الانتقال من حالة إلى أخرى" (الكنوز ٢١: ١٧).

ويتساءل القديس كيرلس، كيف أن الله جعل يسوع رباً ومسيحاً؟ يجيب هو نفسه شارحاً لنا حركة الإخلاء، **فالكلمة** بينما هو إله ورب أخلى ذاته بتأنسه إذ أخذ شكل العبد ومُسح؛ لأن هذا الأمر يتناسب مع الإنسان، ورُفِعَ إلى مكانه عظيمة كإنسان. وعند هذا الحد يشرح القديس كيرلس تبادل الخواص في شخص المسيح الواحد، إذ يقول: "لأن كلمة الله لم يأت ليطمس طبيعة الله الحرة تحت شكل العبد، ولا لكي يترك ما هو موجود ومحدد في خصائص الطبيعة البشرية، بل لكي يرفع هذا الذي كان مستعبداً إلى مكانة الرب الشرفية، ويُحضر ثانيةً هذا الذي كان مهاناً إلى كرامته. لأننا كيف نُدعى أخوة المسيح، وكيف صرتم أبناءً، لو لم يكن المسيح قد أفادنا بتأنُّسهِ؟" (الكنوز ٢١: ١٨). وهنا يقول القديس كيرلس



ملاحظته الدقيقة موضحاً أن التلميذ القديس، يقصد بطرس "لم يقل هكذا بلا هدف "أن الله جعل يسوع رباً" بل أضاف "يسوع هذا الذي صلبتموه" (أع ٢:٣٦). بالتالي "لم يقل أنه جعله **كلمة** وابناً له، بل جعله رباً ومسيحاً، الأمر الذي لا يخص إلوهيته، لكن إلى انتقاله من أمر إلى آخر. أمّا كيف صار رباً ومسيحاً، فهذا ما قلناه سابقاً" (الكنوز ٢١: ١٨).

٦ـ نص كو ١٥:١ "بِكر كل الخليقة":

لقد دعَّم الأريوسيون رأيهم الخاطئ عن الابن بأنه مخلوق باستخدام هذا النص، قائلين لأنه لولا أنه مخلوق لَمَا قِيل عنه "بكر كل الخليقة". وهذا التحديد يجعل الابن. بحسب الأريوسيين. مخلوقاً بالرغم من أنه الأول وقبل كل المخلوقات. ولكي يرد القديس كيرلس على إدعائهم الكاذب فإنه يواجههم بمصطلح آخر هو "وحيد الجنس"، إذ يقول لهم: "إذا كان اسم بكر يضع الابن ضمن المخلوقات، فإن تسميته بـ "وحيد الجنس" سوف تستثنيه من ذلك على أية حال. لأنه إذا كان من غير الممكن أن يُسمَّى المرءُ بكراً إن لم يكن له إخوةٌ كثيرون، هكذا أيضاً لا يمكن أن يكون هناك شخصٌ وحيد الجنس إن لم يكن وحيداً ولم يحسب مع آخرين" (الكنوز ٢٥: ٢).

ويتساءل القديس كيرلس: كيف إذن يكون بِكراً ووحيد الجنس؟

الإجابة واضحة جداً من جانب القديس كيرلس: "وحيد الجنس إذن يكون لأنه هو **الكلمة** الآتي من الآب وليس لديه إخوة بحسب الطبيعة، ولا يُحسب مع آخر. فابن الله واحد هو وفريد. هو أيضاً بكر ليس هكذا ببساطة وبدون آخرين على علاقة به، لكن مع أخوة كثيرين كما هو مكتوب (أنظر رو ٨:٢٩). لكن متى صار أخاً لنا، إن لم يكن حين لَبِسَ جسدنا؟ هكذا إذن صار بكراً عندما أتى بأبناء كثيرين لله بحسب النعمة" (الكنوز ٢٥: ٣). هكذا لقد دُعِيَ بكر كل الخليقة بسبب تجسده وصار مثلنا فيما عدا الخطية. ويُذكّرنا القديس كيرلس بمبدأ كتابي قد سبق وأخبرنا عنه، وهو أن الكتاب المقدس حين يذكر أي شيء بخصوص

الكلمة في علاقته مع الآب لا يضيف أي سبب، بينما حين يذكر الأمور الخاصة بتأنسه يضيف السبب. هكذا يقول القديس كيرلس "عندما دُعيَ وحيد الجنس، دُعيَ بدون أن يكون هناك علةٌ بمقتضاها أصبح وحيد الجنس، بل لأنه حُر من كل قيد، وهو الإله وحيد الجنس الكائن في حضن الآب. لكن عندما تدعوه الكتب المقدسة بكراً، فإنها للتو تضيف: مَنْ هو البكر، وكذلك السبب الذي لأجله دُعيَ بهذا الاسم. لأن الكتب المقدسة تقول "بكراً بين أخوة كثيرين" (رو ٨:٢٩)، "بكر من بين الأموات" (كو ١:١٨). (الكنوز ٢٥: ٣). ويشير القديس كيرلس إلى ملحوظة هامة، بأن الابن عندما صار إنساناً لم يصر أدنى من جهة كل ما يخص المكانة التي تليق بطبيعته الإلهية، بل أيضاً كإنسان فهو الأول ويسبق كل الخليقة، طالما هو خالقها وهو الرب. ويستشهد بقول يوحنا الإنجيلي "ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب" (يو ١:١٤) (الكنوز ٢٥: ٣).

يعود القديس كيرلس ليؤكد أن تعبير "بكر كل خليقة" صحيحٌ في إطار التدبير الإلهي وتجسد **الكلمة**، فهو "يُدعى بكراً لأخوة كثيرين، لأنه صار شبيهاً بنا في كل شيء ماعدا الخطية، ولأنه لَبِسَ جسدنا وصار أخاً لنا. أيضاً هو بكر من الأموات؛ لأنه هو الأول الذي أقام جسده في عدم فساد وهو الأول الذي أصعده إلى السموات، لذلك يقول: "أنا هو الطريق" (يو ١٤:٦) و"أنا هو الباب" (يو ١٠:٩) وبواسطته تعلّمت الطبيعة البشرية أن تسلك في طريق القيامة الجديد، وبواسطته. كما مِن بابٍ. دخلت إلى السماء" (الكنوز ٢٥: ٧).

٧ـ نص عب ٣:١ ـــ ٢: "لاحظوا رسول إعترافنا ورئيس كهنته المسيح يسوع حال كونه أميناً للذي أقامه كما كان موسى أيضاً في بيته".

استغل الأريوسيون بعض الألفاظ هنا مثل "كونه أميناً للذي أقامة" لكي يدعموا رأيهم الخاطئ بأن الابن مخلوق. والقديس كيرلس يقدم لهم أولاً مبدأً هاماً في التفسير كان قد سبق وأكد عليه القديس أثناسيوس الرسولي، بأن الألفاظ لا تحدد جوهر الأشياء، بل طبيعة الأشياء وجوهرها هي التي تعطي المعنى للألفاظ



والكلمات. فعندما تُستخدم كلمة "عبيد" للأبناء الطبيعيين، فإنها لا تؤثر على رتبة أصلهم الطبيعي الشريف. وأيضاً عندما يُقال على الذي وُلدِ أنه خُلِق لا يوجد أي ضرر. لذلك عندما نطبق هذا المبدأ على آية (عب ٣: ٢) "حال كونه أميناً للذي أقامه"، فالابن بكونه إلهاً فهو لا يتغير. وإن هذا القول يُدرك إدراكاً صحيحاً في إطار تأنسه. هكذا استخدام الكلمات لا يؤثر على الحقيقة. ويستشهد القديس كيرلس من الكتاب بما يُدَعِّم هذا الأمر الذي شرحه، إذ يقول: "بئر سبع تُدعى عبد داود، وسليمان يقول: "سليمان عبدك" (مل ١: ٩). ويستخدم كلمة خُلقوا على الذين وُلدوا، لأن حزقيا يقول: "من اليوم سأخلق أولاد" (أش ٣٨: ١٩ س). وعن أيوب: "وصار له سبعة أبناء وثلاث بنات" (أيوب ١: ٢ س). ويتساءل القديس كيرلس: لو قبلنا في حالة البشر هذا الذي يُقال بدون أن نلاحظ دقة الكلمات، بل طبيعة الأشياء، كيف لا ينبغي بالضرورة أن نطبق نفس الطريقة على الولادة الإلهية؟ (الكنوز ٢١: ١٢).

يعود أيضاً القديس كيرلس ليفسر ما كتبه القديس بولس تفسيراً صحيحاً في إطار التأنس، إذ يقول: متى صار هو رئيس كهنة إيماننا؟ متى صار رسولاً؟ ومتى ظل أميناً لذاك الذي أقامه (جبله)؟ ويجيب القديس كيرلس بكل ثقة ووضوح، قائلاً: "لقد صار إنساناً بسببنا ولأجلنا ووفق أقوال يوحنا "الكلمة صار جسداً (إنساناً)" (يو ١: ٤)" (الكنوز ٢١: ١٥)، أي حينذاك صار رسولاً وأُرسل لأجلنا وبسببنا. وصار رئيس كهنة، ناقلاً اعتراف إيماننا إلى الآب، مقدماً جسده نفسه كذبيحة بلا لوم، لكي يظهر الكل من خلاله أمام الآب.

ويفسر أيضاً القديس كيرلس كلمة "أميناً" في إطار التأنس، فهو "أمينٌ" لأنه قدم نفسه لأجل الجميع ذبيحة دائمة بدون أن تتغير: "فإن كُنا غير أمناء فهو يبقى أميناً لن يقدر أن يُنكر نفسه" (٢ تيمو ٢: ١٣). لقد بقى أميناً؛ لأنه عندما صار إنساناً ظل هو نفسه أمس واليوم وإلى الأبد (عب ١٣: ٨) (الكنوز ٢١: ١٦).



٨ـــ الابن أزلي مع الآب

حين أدعى الأريوسيون أنه "كان يوجد زمن لم يكن فيه الابن موجوداً" اتهمهم القديس كيرلس بالغباء والجهل لأن معنى ذلك أنه كان يوجد زمن قبل وجود الابن الذي بواسطته كما يقول الرسول بولس خُلقت الدهور (أنظر عب ١: ٢). ويستشهد القديس كيرلس بما جاء في سفر الرؤيا (١: ٤) "الكائن والذي يأتي". والقديس يوحنا يستخدم "كان" **للكلمة** لأنه يقول "والكلمة كان عند الله" (يو ١: ١). إذن كلمة "أزلي" تسري عليه إذ قيل عنه إنه هو "الكائن والذي كان".

ويوضح لنا القديس كيرلس، أن الكتب المقدسة تستخدم تعبيرات "الكائن والذي كان"، "وكُنت" و"أكون" فقط على **الكلمة**، أمَّا عن المخلوقات فتستخدم تعبيرات: "قبل"، و"من قبل" و"صار" وكل الأفعال المتشابهة مع هذه الأفعال. يقول المخلص: "أنا هو (أكون) الحق"، "أنا هو (أكون) النور"، "أنا هو (أكون) الراعي" (يو ١٤: ٦ – ٨: ١٢ – ١٠: ١١). لذلك يقول المرنم: "من قبل أن تولد الجبال أو أبدأت الأرض والمسكونة منذ الأزل إلى الأبد أنت الله" (مز ٩٠: ٢). قال المخلص عن ذاته: "أنا هو (أكون) الطريق. أنا هو (أكون) الباب" (يو ١٤: ٦ – ١٠: ٩). والآب قال له: "أنت (تكون) ابني الحبيب" (مر ١: ١١)، وأيضاً "قال الرب لربي أنت (تكون) ابني" (مز ٢: ٧). الجدير بالملاحظة هنا هو استخدام أفعال الكينونة: يكون وكان ولم تُستخدم إطلاقاً كلمة: صار، بينما على المخلوقات، يقول موسى النبي بخصوص خلق العالم: "كل شجر البرية لم يصر بعد في الأرض وكل عشب البرية لم ينبت بعد. لأن الرب الإله لم يكن قد أمطر على الأرض. ولا صار إنسان ليعمل الأرض" (تك ٢: ٥). كذلك الأداة: عندما أو حين "ὅτε" تعني دائماً زمن، إذ يقول في سفر التثنية: "عندما قسم العلي للأمم" (تث ٣٢: ٨)، أيضاً بأداة "من قبل": "من قبل أن تقررت الجبال قبل التلال أُبدئت" (أمثال ٨: ٢٣ . ٢٥)، "قبلما صورتك في البطن عرفتك، وقبلما خرجت من الرحم قدستك" (أر ١: ٥).

أيضاً قال بولس عن الكلمة "الذي وهو بهاء مجد الله ورسم جوهره" (عب ١:



١) وداود يرنم "ولتكن نعمة الرب إلهنا علينا" (مز ٩: ١٧)، وكذلك "بنورك نعاين النور" (مز ٣٦: ٩). ويتساءل القديس كيرلس: متى كان الآب بدون بهاء؟ متى لم يوجد بهاء الله فيه؟ طالما أن الابن هو نور من نور الآب, متى كان الآب بدون نور؟ ويستخلص القديس كيرلس من كل هذه الأسئلة النتيجة الهامة والواضحة: مثلما ينير الشعاع بدون انفصاله عن النور، هكذا النور الذي يُولد من الآب لا ينفصل عنه (الكنوز ٤: ٦).

يقول الهراطقة أيضاً، إن أبناء البشر يُولدون بعد الآباء، ولا وجود لهم قبل أن يُولدوا. ويتساءلون، كيف للابن أن يكون كلمة الله فهو . في نظرهم . مثل كلمة البشر ليس لها كيان ولا تبقى بعدما قيلت، بل تنحل مباشرةً إلى العدم. ويجيب القديس كيرلس على رأي الهراطقة بوضوح وحسم ومنطقية، إذ يقول لهم، لو أن الله هو مثل الإنسان، ولا يوجد فيه شيء أكثر مما لنا، فإن هذه الأمور البشرية سوف تسري عليه، وليكن موجوداً قبل ابنه مثلما نحن، ودع الذي يأتي منه يذهب إلى العدم. طبعاً لا يمكن للهراطقة أن يقبلوا هذا الأمر، لذا يؤكد لهم أن الله كائن أسمى . بحسب الجوهر. من البشر. المشكلة الخطيرة التي كان يعاني منها الهراطقة، هي إخضاع الله لضروراتنا. فالله أسمى من النواميس التي نخضع لها، فنحن فاسدون بينما الله غير فاسد. نحن أتينا إلى الوجود من العدم بينما الله هو كائن أزلي على الدوام (الكنوز ١٦: ٢). وبحسب القديس كيرلس، الحالة التي عليها الوالد هي نفسها التي يكون عليها المولود منه. "الله الآب هو أزلي، بالتالي أيضاً النور الذي أتى منه هو أيضاً أزلي. إذن كان أيضاً الشعاع موجودًا مع النور" (الكنوز ١٦: ٢). أما بخصوص أن كلمة الإنسان التي يتفوه بها تنحل إلى العدم فور النطق بها فهذا صواب .كما يقول القديس كيرلس. فهي ليست فعالة ولا حية وكذلك الإنسان الذي ولدها يأتي إلى العدم وهو خاضع للفساد، أما **كلمة** الله فهو حيٌّ ولأنه يأتي من الحي، فهو كائن أزلي على الدوام. لأن الله لم يكن ولن يكون بدون **الكلمة**. وبولس يقول عنه "كلمة الله حيَّة وفعالة" (عب ٤: ١٢). إنه إذن خالق والكل صار بواسطته وبدونه لم يَصِر شيء (يو ١: ٣) (الكنوز ١٦: ٥).

والقديس كيرلس أيضاً يشرح الأسماء: آب وابن في سياق الثالوث القدوس الأزلي وفق معايير ليست بشرية. فالأريوسيون يحاولون أن يُخضعوا الثالوث للمفاهيم البشرية. فهم يظنون طالما أن الله آب إذن كان هناك وقت لم يكن فيه إبنًا، فيقول لهم القديس كيرلس: "عندما نقول الله الآب، والله **الكلمة** الابن، فنحن لا نقصد أن الواحد كائن مسبقاً، ثم صار بعده الآخر وفق الترتيب الذي يوجد في البشر، لأن الله كائن فوق كل زمن، لكن لكي نعبد الواحد كوالد الذي هو الآب، والآخر كابنٍ أصيل ولادته من الآب لا تُوصف. إذن ندعوه آباً لأنه وَلَدَ، وندعوه ابناً لأنه وُلدِ. ونستخدم هذه الأسماء لتظهر لنا هذه الحقائق" (الكنوز ٤: ٢٠). هكذا يُدعى أب لأنه يلِد، وابن لأنه وُلدِ. وبذلك اسم الآب يعني فقط خاصية أنه يلِد، فلا يوجد سبب أجبر الله أن يَلِد قبل الزمن، لكي يُوجد قبل هذا الذي وَلَدَه. وبرهان القديس كيرلس يهدف إلى أنه لا توجد فترة زمنية بين الذي وَلَدَ والذي وُلِدَ، بالتالي فإن الابن كان دائماً أزلياً مع الآب (الكنوز ٤: ٢٠).

إن الثالوث القدوس يختلف اختلافاً مطلقاً عن الكائنات المخلوقة. والاختلاف هنا هو اختلاف كياني مطلق. إذ لا يوجد شيء مشترك في إطار الرؤية الكيانية (الأنطولوجية) بين الثالوث القدوس والمخلوقات. وبناء على ذلك لا تصلح المعايير المستخدمة للنواميس الطبيعية بالنسبة لطبيعة الثالوث القدوس الأزلي، إذ تسري عليها معايير تليق بالثالوث القدوس، معايير تسمو فوق أي مفهوم يخص الكائنات المخلوقة. وبالتالي ولادة الابن من الآب أزلياً لا يمكن أن تُدرك على أساس طريقة ولادة البشر الطبيعية.

الهراطقة نادوا أيضاً بأن الله ليس كاملاً بسبب أنه يلِد، بل لأنه حقاً الله الخالق، وبسبب هذا هو كامل، ثم صار بعد ذلك آب. والقديس كيرلس يرد على هؤلاء الهراطقة مفترضاً أن خاصية الآب حدثت للآب . كما يزعمون . في وقت لاحق، ثم يسألهم: ماذا كان . إذن . قبل أن يصير آباً؟ ثم يعاجلهم بالكتب المقدسة لأنها لا تعرف الله بدون أن يكون أباً ويعطيهم اختياراً: هل تريدون أن تكونوا متناقضين مع الكتب المقدسة؟ إما أن يكون هو الآب الأزلي. وبالتالي لا يمكن أن يُقال آب بدون

أن يوجد ابن. ويخاطب القديس كيرلس محاربي المسيح موضحاً لهم أنهم يخطئون ويهينون الله إذا ظنوا أنهم يعملون عملاً عظيماً بعدم اعترافهم أن الله هو آب من البداية وقبولهم أنه الله ثم بعد ذلك صار آباً. فهم يحرمون الطبيعة الإلهية من أمر قيّم جداً. لأن اسم الله له علاقة بالعبيد (فهو الرب والسيد لهم) الذين جوهرهم مخلوق، بينما اسم الآب له علاقة بالابن (الكنوز ٥: ٢٠).

يؤكد دائماً القديس كيرلس على لقب الآب أكثر من لقب الله فقط. والبرهان عند القديس كيرلس هو شواهد الكتاب المقدس ومنها ما ورد في (مت ٢٨: ١٩)، إذ أمر المسيح التلاميذ أن يعمدوا ليس باسم الله والابن والروح القدس، بل باسم الآب والابن والروح القدس، أيضاً حين سأل فيلبس عن الطبيعة الإلهية، قال: "أرنا الآب" (يو ١٤: ٨). هنا لا يدعوه الله بل الآب، كذلك إجابة المخلص ذاته "أنا معكم زماناً هذه مدته ولم تعرفني يا فيلبس الذي رآني فقد رأى الآب" (يو ١٤: ٩).

ويوضح القديس كيرلس سبب أفضلية اسم الآب، قائلاً: "لأنه عندما يُدعى الله آباً, يكون قد دُعيَ من الأعظم والأجدر جداً، بينما عندما يُدعى الله ويُدعي أيضًا خالقاً، فإنه يُدعى من المخلوقات، الأمر الذي يُعد أدنى كثيراً جداً بقدر الاختلاف العظيم بين العبد والرب، بين الخالق والمخلوق (الكنوز ٥: ٢٢). "أيضاً حين قال المخلص لتلاميذه "إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم" (يو ٢٠: ١٧). يكرر أيضاً نفس الأمر، "فإذا كانت المخلوقات قد أتت تالية لولادة الابن، إذن اسم الآب أتى أولاً، وتبعه في نفس الوقت اسم الله أيضاً" (الكنوز ٥: ٢٣). والعظيم في قول المخلص هو أنه أعطانا الذي له، بسبب محبته العظيمة لنا، وقال: "وأبيكم". والسبب في ذلك كما يقول القديس كيرلس: "لأننا قد دُعينا إلى التبني من خلاله وصار أبونا بحسب النعمة، بينما هو أبوه بحسب الطبيعة، آخذاً كل ما يخصنا في ذاته، إذ صار في هيئة العبد حاملاً الخواص الطبيعية للعبيد، وقال "إلهي وإلهكم". هكذا الله هو آب له بحسب الطبيعة بينما هو إلهنا. ولأننا. كما قلت من قبل. خلقنا بواسطة الابن فهو أولاً آب وبعد ذلك الله، على الرغم من أنه هو في نفس الوقت الاثنان معاً" (الكنوز ٥: ٢٣).



ادعّى الهراطقة أيضاً بأنهم يؤمنون بأن الابن أزليٌ مع الآب، طالما أن الآب لديه القدرة أن يلد قبل أن يلده. يرفض القديس كيرلس هذا الرأي لأنه سينتج عنه نتائج عبثية، إذ يتساءل قائلاً: ''ما الذي يمنعنا أن نقول: إذا كانت إمكانية الخلق توجد في الله، إذن المخلوقات التي خلقها هي أزلية أيضاً معه؟'' (الكنوز ٥: ٢٥). ويصف هذه النتيجة بالسخف عينه، لأن إمكانية الله أن يخلق لا تعني أن الأشياء صارت، ولا إمكانية الآب أن يلد تعني وجود الابن قبل أن يُولد، لكن هو وُلِدَ منه بحسب الطبيعة وفي نفس الوقت أيضاً هو أزلي مثل الحرارة من النار أو الرائحة من الورد (الكنوز ٥: ٢٥).

هكذا القدرة على الولادة لا تتضمن أيضاً أن الولادة قد حدثت بالفعل. لأنه، حين يَلِد وقتها، أيضاً يفعل، لذلك يؤكد القديس كيرلس على أن إمكانية الآب أن يلد لا تعني وجود الابن، لكن كون أن الله آب فهذا يُدرك مِن الذي أتى منه (الابن)، لأجل هذا هو آب والابن هو أزلي مع الآب'' (الكنوز ٥: ٢٦).

يستند الأريوسيون على نص (فيلبي ٢: ٩): ''لذلك رفَّعه الله أيضاً وأعطاه اسماً فوق كل اسمٍ'' لكي يبرهنوا على أن الابن رُفِّع بواسطة الله ومُجِّد وأخذ اسماً فوق كل اسم لأنه وضع ذاته حتى الموت، واكتسب كل هذا من الخارج بدون أن يكون بحسب الطبيعة إلهاً. والإجابة من جانب القديس كيرلس كانت وابلاً من الأسئلة الاستنكارية:

- ''أيُ كرامةٍ مضاعفةٍ صارت لذاك الذي لَبِسَ شكل العبد، بينما وجوده هو وجود إلهي؟
- كيف نعتبر ناقصاً ذاك الذي ترك الأسمى وأخذ الأدنى؟
- أي مكافأة يأخذها ذاك الذي كان الله ثم صار إنسانا؟
- كيف مُجِّد ذاك الذي نزل من المجد إلى الهوان؟
- كيف صار في رفعةٍ ذاك الذي تنازل عن رُتبة الإلوهية وصار إنساناً؟
- كيف يُرفع الذي نزل؟

- أيُ وضعٍ حسنٍ اكتسبه هذا الذي أتى من الأعالي ونزل إلى الأدنى؟
فإذا كان الذي هو الله العلي الساكن في الأعالي يُقال إنه رُفِّعَ، فمَنْ هو الذي هو أكثر من طبيعة الله واستطاع أن يُصعِده؟
- كيف يمكن أن يكون وضيعاً هذا الذي هو في أحضان الآب العلي؟
- أيُ إضافةٍ يحتاجها الله؟
- فإذا كان نزل لأجل أن يُرفَع، فما الداعي لنزوله أصلاً؟
- فإن كان لأجل أن يُمجَّد، وضع ذاته، فأيُ احتياجٍ لديه لكي يتضع؟
- كيف لا يكون غير حكيمٍ ذاك الذي بجهدٍ طلب الشيء الذي لديه بدون أي مجهود؟
- كيف أخذ اسماً ذاك الذي هو أعظم وفوق كل اسمٍ آخر، ذاك الذي دائماً يُسجد له؟" (الكنوز ٢٠: ٢).

ويستشهد القديس كيرلس من الكتاب المقدس بنصوص توضح أن الكلمة قبل تأنسه كان لديه كل شيء بكونه الله ولأجلنا اتضع وأخلى ذاته، ففي (مز ٢٠: ٧ ـ ٨) "هؤلاء بالمركبات وهؤلاء بالخيل، أما نحن فباسم الرب إلهنا نذكر هم جثوا وسقطوا أما نحن فقمنا وانتصبنا"، و"يكون اسمه إلى الدهر قدام الشمس يمتد اسمه" (مز ٧٣: ٢١ س). ثم يتساءل، قائلاً: "كيف أخذ هذا الاسم ذاك الذي يملك كل شيء؟" (الكنوز ٢٠: ٣). وبالتالي، فإن الرفعة والمجد يخصان الطبيعة البشرية للمسيح حين صار (الكلمة) جسداً وحلَّ بيننا" (يو ١: ١٤)، إذن طالما أن التواضع صار باتخاذ الجسد فالرفعة صارت لأجل البشرية. أيضاً في (عب ٩: ٢٤): "لأن المسيح لم يدخل إلى أقداس مصنوعة بيدٍ أشباه الحقيقة، بل إلى السماء عينها، ليظهر الآن أمام وجه الله لأجلنا". فبالرغم من أنه هو دائماً في السموات وفي حضن أبيه، إلاَّ أنه دخل الآن إلى السماء وظهر عند الآب، وبنفس الطريقة لأجلنا رُفع ومُجِّد وأخذ "اسماً فوق كل اسم" (فيلبي ٢: ٩). ومثلما به ندخل إلى السماء ونحضر أمام الآب، هكذا أيضاً نُمجَّد ونُرفع لنصير أبناء الله" (الكنوز ٢٠:



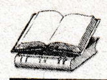
٥). وكذلك حين يقول المرنم ''ارفعن أيتها الأرتاج رؤوسكن وارتفعن أيتها الأبواب الدهرية فيدخل ملك المجد'' (مز ٢٤: ٧)، يقول القديس كيرلس: ''فهو قد جاء لأجلنا إلى الأبواب السماوية، ليس كإله بل كإنسان، مُدخِلاً إيانا بواسطة ذاته، ولأجلنا دشّن هذا الطريق. نفس الأمر فبينما كان عالياً، رُفِّع لأجلنا[١] كإنسان لكي يرفعنا نحن بالذي هو شبيهٌ بنا[٢]، وهكذا يغيِّرنا (يشكِّلنا) جاعلاً إيانا مثل صورة الخالق، مجدداً الطبيعة البشرية لتكون مثلما كانت من البداية'' (الكنوز ٢٠: ٦).

كل هذه التفسيرات الصحيحة للقديس كيرلس تنبع من التعليم عن تبادل الخواص بين اللاهوت والناسوت الناتج من الإتحاد الأقنومي للاهوته مع ناسوته في شخص المسيح الواحد. هكذا فإن ''النعمة والرِّفعة تخصان الطبيعة البشرية؛ لأن كلمة الله نُسِب إليه كل ما كان يحدث لجسده الخاص؛ لأنه لم يكن جسدُ شخصٍ آخر، لكنه خاصٌ به'' (الكنوز ٢٠: ٩).

يرجع القديس كيرلس إلى الحجة المنطقية لعلها تُقنع خصومة طالما يريد بكافة الطرق إرجاعهم إلى الحق، فيقول لهم نفترض أن الابن ليس أزلياً مع الآب بل كان يوجد وقت لم يكن فيه الابن موجوداً، عندئذٍ يواجههم بالنتيجة: ''لتحتم علينا أن نقبل أن يكون الثالوث القدوس ناقصاً. لأن ذلك يعني أن الثالوث قبل وجود الابن كان واحداً، ثم صار بعد ذلك ثالوثاً وهنا يفاجئهم بالنتيجة العبثية: ''ولأن كل شيءٍ يصير فيما بعد يمكن أن ينتهي، فالخوف من أن يعود الثالوث واحداً ، قائمٌ،

١- إن تعبير ''لأجلنا نحن البشر'' يمثل الأساس لفهم هذه الآيات التي أساء الهراطقة فهمها، والجدير بالذكر أن هذا التعبير قد ورد في قانون الإيمان، فتجسد **الكلمة** هو لأجلنا وموته وقيامته وصعوده وجلوسه عن يمين الآب هو لأجلنا. هكذا حين أخلى ذاته كان لأجلنا وكذلك حين قيل أنه أخذ، فهذا لأجلنا. وحين تقدس، فهذا أيضاً لأجلنا، كما سبق وأكد القديس أثناسيوس، قائلاً: ''وكما أنه وهو الذي يقدّس الجميع، يقول أيضاً أنه يقدس نفسه للآب من أجلنا - ليس بالطبع لكي يكون اللوغوس مقدَّسا، بل لكي بتقديس ذاته يقدسنا جميعاً في ذاته. وهكذا بنفس المعنى ينبغي أن نفهم ما يقال الآن أنه ''تمجد''. ليس لكي يمجّد هو (أي اللوغوس) نفسه - إذ أنه هو الأعلى - بل لكي هو ذاته ''يصير برا'' من أجلنا''. ضد الأريوسيين، المقالة الأولى، فقرة٤١ ص ١٠٧.

٢- كما قال القديس غريغوريوس اللاهوتي: ''من أجل هذا (**الكلمة**) يدخل في الصورة ذاتها ويلبس جسداً من أجل الجسد، ويأخذ نفساً روحية من أجل نفسي منقياً هكذا الشبه بالشبه، شبهي أنا بشبهه، ويصير في كل شيء إنساناً كاملاً ما عدا الخطيئة. يولد من العذراء التي كان قد قدس نفسها وجسدها قبلاً بالروح القدس (لأنه وجب أن تُكرّم الولادة ولكن أن تُكرّم قبلها بتوليتها)، ويبقى المسيح إلهاً بعدما أخذ الطبيعة الإنسانية، صائراً واحداً من العنصرين المتغايرين من الجسد والروح''. عظة عن البصخة، تعريب الأسقف اسطفانوس حداد، مختارات من القديس غريغوريوس اللاهوتي النزينزي، منشورات النور ١٩٩٤، ص ١٨١.



وبما أن القول بمثل هذا الرأي تجديفٌ، فالابن كان دائماً مع الآب ملء الثالوث القدوس" (الكنوز ٤: ٢٢).

القاعدة الأساسية التي يريد القديس كيرلس التأكيد عليها هي أن الطبيعة الإلهية لا تقبل التغيُّر، وبناء على ذلك، فإن الله هو آب منذ الأزل وبذلك يكون ابنه أيضاً أزلياً "لو أن الابن لم يكن كائنًا دائماً مع الآب، ولم يكن قد أتى منه أزلياً بحسب الطبيعة، بل كان قد أخذ وجوده بعد ذلك، أي أن الآب وَلَدَ الابن لكي يصير آباً، إذن فقد حدث فيه تحوُّل وتغيير" (الكنوز ٥: ١٣). ويذكِّرهم بعد ذلك بالمبدأ الذي لا يستطيعون أن ينكروه: "إن طبيعة الله لا تقبل أي تحوُّلٍ أو تغيُّرٍ". ثم يعلن لهم الحقيقة الساطعة، قائلاً: "لم يحدث أن صار الله آباً متأخراً، بل **الكلمة** الذي أتى منه كان أزلياً معه، مثل الحرارة التي أتت بالولادة من النار، وهي موجودة دائماً معها، وكذلك الإنارة من النور تجاه الخارج" (الكنوز ٥: ١٣).

ثانياً: مساواة الابن للآب بحسب الجوهر

أ‌ـ الابن هو مِن نفس جوهر الآب:

لقد ركَّز القديس كيرلس على أن الابن هو من نفس جوهر الآب[1] فهو وليد جوهر الآب "ἴδιον γέννημα τής ουσίας τοῦ πατρός" أي هو الآتي بواسطة ولادته الأزلية والجوهرية من الآب. وهذه الحقائق نجدها واضحة في تفسيره للآيات التي استخدمها الأريوسيون بطريقة خاطئة مثل: "أنا في الآب والآب فيَّ" (يو ١٤: ١١)، "أنا والآب واحد" (يو ١٠: ٣٠)، إذ أن الأريوسيين يزعمون أن الابن في الآب مثلما قيل عن المخلوقات "به نحيا ونتحرك ونوجد" كما ورد في (أع ١٧: ٢٨). وبالتالي فإن الابن ليس لديه شيء أكثر منا. لهذا يضع القديس كيرلس أمامهم الشرح الصحيح المستند على التعليم بخصوص ولادة الابن من جوهر الآب وليس مثل المخلوقات التي تأتي من العدم، فهو مولود من جوهر الآب (الكنوز ١٢: ١). ويضطر القديس كيرلس لاستخدام الأمثلة لحرصه على توضيح هذا الأمر الهام والضروري، إذ يقول: "لكنه هو ذاته مولود من جوهر الآب. مثلما يخرج الشعاع من النور أو النهر من المنبع ، ولذلك يمكن لأولئك الذين يرون الابن أن يروا الآب أيضاً ويدركون منه الملمح الخاص لذاك الذي ولده" (الكنوز ١٢: ٦). بالتالي لأن كيان الابن بالكامل يأتي من جوهر الآب، لذا يوجد في الآب والعكس أيضاً الآب يوجد في الابن، لأن الابن هو ابن بحسب الطبيعة وهو الله **الكلمة** الذي أتى من الآب. والملحوظة اللاهوتية الضرورية في هذه الآية "أنا في الآب والآب فيَّ" كما شرحها القديس كيرلس، هي أن التطابق هنا هو تطابق خاص بالطبيعة الإلهية أو الجوهر الإلهي، وهذا التطابق لا يلغي أنهما اثنان آب وابن، وكيانان أي أقنومان وليس أقنوماً

١- أنظر القديس أثناسيوس الرسولي، المقالة الأولي ضد الأريوسيين، ترجمة أ صموئيل كامل ود. نصحي عبد الشهيد، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية طبعة ثالثة ٢٠٠٢، المقالة الأولي: ٩، وأيضاً:
N. ΞΕΞΑΚΗ, Ἡ θεολογία τοῦ ὁμοουσίου. Συμβολή είς τήν περίτοῦ ἐν τριάδι θεοῦ ὀρθόδοξον διδασκαλίαν, Ἀθῆναι 2003,σ.143.

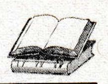


واحداً أحيانا يُدعى ابنٌ ومرة أخرى يُدعى آب[1]. الإتيان الأزلي للابن من جوهر الآب لا يسبب أي تقليل أو نقص لجوهر الآب كما أدعى الهراطقة. وعلى هذا الأمر يجيب القديس كيرلس باستخدام الأمثلة مترفقاً بهم وبغبائهم، إذ يسألهم، ماذا يحدث للشمس حين تُرسل أشعتها؟ وماذا عن النار حين ترسل حرارتها؟ هل تصير تجزئة وقطع لهذه الجواهر، وأن تكف الشمس عن اللمعان، وهي التي لا يعتريها أي نقص؟ ثم يقول لهم: "كذلك، فنحن نرى النار ترسل حرارتها دون أن يعتريها أي انفصال، بل إن الحرارة هي ثمرة النار التي تأتي منها دون أن تنفصل عنها، تماماً مثل شعاع النور. ولا يمكن أن يكون هناك نورٌ أبداً بدون شعاع، ولا نارٌ بدون حرارة لأنهما ينبعثان دائماً من جوهريهما، ويولدان منهما[2]" (الكنوز ١٢: ٦).

ويوضح القديس كيرلس باستخدام الأمثلة التي ذكرها، أن إيماننا بأن الابن يأتي من جوهر الآب لا يعني أنه حدث قطع من جوهر الآب، إذ يعلق على هذا الأمر، قائلاً: "ليتهم يقولون إن الشعاع قُطِع من النور أيضاً، ومن النار قُطعت الحرارة التي تأتي منها، والكلمة من العقل، وليتهم يبرهنون على أن كلاً من الشعاع والحرارة هما جزءان من الجوهرين اللذين أتيا منهما، أو أن النور كان في وقت ما بدون شعاع، أو النار بدون حرارة والعقل بدون كلمة، وعندئذٍ دعهم يتخيلون شيئاً مثل هذا أيضاً عن **كلمة الله**" (الكنوز ١٦: ٣). طبعاً الشعاع والنار موجودان دائماً في هذين الجوهرين اللذين يأتيان منهما بدون أن يتجزءا أو ينفصلا. إذن ليس من الصواب أن ننسب للطبيعة الإلهية أموراً لا يقبلها أحد على طبيعة المخلوقات. إن قطع الشيء إلى قطعتين بينهما مسافة لهو ملمح من ملامح الأجساد بينما الجوهر الإلهي . كما يقول القديس كيرلس . لا يقبل القطع والتجزئة ولا ينحصر في مكان، بل هو كائن في حالة غير موصوفة، أشرق الابن من الآب بدون انقسام، ولا يمكن أن يكون الآب . بطريقة أخرى . كاملاً إلاَّ فقط بأن يلد الابن. وكذلك لا يمكن أن يكون

١- أنظر الكنوز١٢: ٨١، والجدير بالملاحظة أن سابليوس الهرطوقي (أوائل القرن الثالث الميلادي) قد نادي بأن الله أقنوم واحد يقوم بأدوار مختلفة. فالآب يقوم بدور الابن عند التجسد وهو يظهر بعد ذلك باسم الروح القدس.

٢- وبحسب تعبير القديس أثناسيوس: "لأن الابن هو في الآب - بحسب ما يُسمَح لنا أن نعرف - لأن كل كيان الابن هو من جوهر الآب ذاته. كمثل الشعاع من النور، والنهر من الينبوع". ضد الأريوسيين، مرجع سابق، المقالة الثالثة، فقرة٣، ص ١٥.

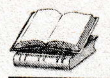


خالقاً إن لم يلد. من ذات جوهره الإلهي بدون تجزئة. الابن الذي به خلق كل شيء.

ويستخلص القديس كيرلس النتيجة الهامة بخصوص هذا الأمر، قائلاً: "الابن. بالتالي وُلِدَ من الآب ليس بقطع أو تمزق كما تتخيلون، بل أتى من جوهر ذاك الذي ولده بغير تجزئة مثل تَوَلُّدُ الحرارة مِن النار" (الكنوز ٩: ٧).

أيضاً الهراطقة لا يعترفون بأن الابن هو مِن نفس جوهر الآب بحجة أن الآب غير مولود، أمَّا الابن فهو مولود. ويتعجب القديس كيرلس من منطقهم الخاطئ، فكيف تبطل المساواة في الجوهر بالولادة ويتساءل: "لو لم يكن هذا الذي وُلِدَ من نفس الجوهر مع ذلك الذي ولده، فمَنْ يمكنه أن يكون مِن نفس جوهر الآب؟ هل ذاك الذي لم يولَد ومَنْ كان غريباً عن الجوهر، أم ذاك الذي هو مِن الموجودات؟ رغم أن ذلك مستحيل" (الكنوز ٩: ٤). قد يتطاول أيضاً الهراطقة ويقولون، إن غير المولود، على أية حال، هو من نفس جوهر غير المولود، بينما المولود ليس شبيهاً بغير المولود. وهنا يبرهن لهم كتابياً خطأهم، قائلاً: "حسناً، آدم لم يُولد بينما هابيل وُلِدَ من امرأة، أليس هو من نفس الجوهر مع آدم. فإذا كان قد وُلِدَ ولديه تطابق طبيعي مع آدم، الذي لم يكن قد وُلِدَ، فما الذي يمنع الابن الذي وُلِدَ من الآب غير المولود أن يكون من نفس جوهر الآب؟" (الكنوز ٩: ٤).

يتطاول أيضاً الهراطقة الذين يصفهم القديس كيرلس بمحاربي الله إذ يقولون، طالما إن الابن هو صورة الآب، وهو مثل الذي ولده في كل شيء عندئذٍ فالابن بسبب هذه المماثلة التامة مع الآب يمكنه أن يلد وبذلك يصير آباً لابن. أمَّا كونه أنه لا يلد فهذا يجعله غير متماثل تماماً مع الآب. ورد القديس كيرلس على هذا الفكر الخاطئ يستند على أن الله غير المخلوق يختلف تماماً عن الإنسان المخلوق، فالله لا يخضع لخصائص البشر، فالطبيعة الإلهية هي فائقة وأسمى من الطبيعة البشرية وغير مقيدة بمحدوديتنا: "لأن الله لم يلد مثل الإنسان، حتى نقول إن الذي وُلِدَ منه تسري عليه النتائج الطبيعية للولادة الجسدية، لكنه وُلِدَ بطريقة إلهية لا توصف، من الآب. لكن بما أن الآب لم يأتِ من بدايةٍ ما، وبكونه إلهاً لا يخضع لما تخضع له طبيعتنا، فما الذي يجبر الابن على أن يلد. وبما أنه فوق أي حتمية، بكونه الله،



لذا يصير تماماً مثل الآب بحسب الجوهر[1]" (الكنوز ١٣: ٢).

يحاول الهراطقة بكافة الطرق تدعيم رأيهم الخاطئ بأي طريقة، المهم عندهم هو أن لا يكون الابن واحداً مع الآب في الجوهر. وبناء على ذلك يقولون، لو افتراضنا أن الله لا يعتريه أي نقص أو تغيير، إذن علينا أن نؤمن بأن الابن لم يأتِ منه بل مِن الخارج وأنه مثل الآب فقط مِن جهة قدرة إرادته (الكنوز ٦: ١). ويجيب القديس كيرلس على هذا الرأي الخاطئ ناصحاً إياهم أن يضبطوا أنفسهم ويجعلوا فكرهم يسمو فوق مفاهيم الأجساد والأوجاع الجسدية. فالله ليس مثل الإنسان ولا يعتريه أي قطعٍ أو نقصٍ بسبب أنه يَلِد الابن، فعلى سبيل المثال، إن كان يَلِدِ مثل ولادة البشر بفقدان جزء منه، عندئذٍ أيضاً سيخلق مثل الإنسان بجهدٍ وتعب. وكذلك ربما يحتاج أيدي مثل الإنسان ومادة موجودة مسبقة. لكن الله ليس مثل الإنسان. كما يؤكد القديس كيرلس. طالما أنه يُحضِر كل شيء إلى الوجود مِن العدم بدون أيدي ومادة موجودة مسبقة، بل يعمل كل شيء **بالكلمة**. إذن فهو يتفوّق على الطبيعة البشرية، ويتفوق عليها أيضاً في الطريقة التي يَلِد بها (الكنوز ٦: ٢).

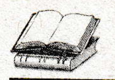
أيضاً الهراطقة كعادتهم يبحثون في نصوص الكتاب ويفسرون الآيات تفسيراً يخدم أفكارهم الخاطئة، لذا حين يقرأون نص (يو ٥: ٢٦): "كما أن الآب له حياة في ذاته كذلك أعطى الابن أن تكون له حياة في ذاته"، يقولون، طالما أن الآب أعطى الابن شيئاً، إذن الابن ليس واحداً مع الآب في الجوهر، ويكون الابن مولوداً من الآب في وقت لاحق. يرد القديس كيرلس على هذا الفكر الخاطئ موضحاً أن جوهر **الكلمة** لا يُضار في شيء إذا قَبِل شيئاً من الآب. لأن وجود الابن لم يبدأ في اللحظة التي قَبِل فيها شيئاً من الآب. فهو مولود مِن الآب بطريقة طبيعية، ويحمل كل خصائص الآب، والوجود الأزلي هو للاثنين معاً وإلاَّ هل نستطيع أن نقول إن الشمس موجودة قبل الشعاع أو أن الشعاع انبعث من الشمس في وقت لاحق زمنياً. فالشعاع يحمل نفس مميزات الشمس بحسب الطبيعة. هكذا يشدد القديس

١- تعبير "الابن مثل الآب بحسب الجوهر" عند القديس كيرلس يعادل هنا تعبير قانون الإيمان: "واحد مع الآب في الجوهر" أو "مساوٍ للآب في الجوهر". فمماثلة الابن للآب تعنى عند القديس كيرلس أن الابن إله من إله وليس مجرد شبيه بالآب كما كان يدَّعى الهراطقة.



كيرلس على أن كل ما يُقال أنه يوجد في الآب بطريقة طبيعية وجوهرية هو الابن. ويشرح هذا الأمر مؤكداً أن الآب هو فقط الإله الحقيقي لأنه فقط لديه الابن الذي يقول: "أنا هو الحق" (يو ١٤: ٦). أيضاً هو الحكمة والقوة، لأن المسيح هو قوة الله وحكمة الله. كذلك قيل عنه إنه ساكن في نور لا يُدنى منه (أنظر ١ تيمو ٦: ١٦)، لأن المسيح قال "أنا هو النور". أيضاً قيل عنه إنه غير المائت لأن لديه الابن الذي يقول "أنا هو الحياة". ويستنتج القديس كيرلس من كل هذا، أن كل خواص الآب للإبن هكذا عندما يقول إن الآب لديه الحياة في ذاته، فأنه يقصد بأن الابن هو الحياة (الكنوز ١٤: ٢٧). نفس الفكرة يكررها القديس كيرلس حين يذكر القديس بولس خواص طبيعة وجوهر الآب، ويقول "الذي له وحده عدم الموت" (١ تيمو ٦: ١٦) وعدم الموت هو الحياة، والحياة هي الابن الذي قال: "أنا هو الحياة" (يو ٦: ٤٩). إذن الآب فيه الحياة، أي الابن وليس شيئاً آخراً. بالتالي الآب في الابن لا يعنى أنه ترك أقنومه للابن بل كما يقول القديس كيرلس: "الآب يرتبط بطريقة لا تُوصف **بالكلمة** الذي أتى منه في الجوهر الواحد والطبيعة الواحدة" (الكنوز ١٤).

ويعود القديس كيرلس ويفترض صدق كلام الهراطقة، ثم بعد ذلك يواجههم بأنهم يتناقضون مع ما جاء في الكتاب المقدس: "إذا كان الآب هو الحياة بحسب الطبيعة، دون أن يكون الابن كذلك، بل قد اكتسب هذه الخاصية، فكيف كان الابن يقول الحق عندما توجَّه للآب، قائلاً: "كل ما هو لي فهو لك. وما هو لك فهو لي" (يو ١٧: ١٠). لأنه إما أن يكون هو أيضاً الحياة بحسب الطبيعة، التي هي خاصية الآب، أو لا يكون. فإذا كان كل ما لديه هو للآب، ولم يكن الابن. بحسب زعمكم . هو الحياة بحسب الطبيعة، فالآب أيضاً لا يكون هو الحياة بحسب الطبيعة. إذن أيضاً الابن هو الحياة بحسب الطبيعة، لكي لا يصير تماثل الابن بالآب كاذباً" (الكنوز١٤: ١٥). وبكلمات بسيطة وعميقة ومنطقية يبرهن القديس كيرلس على أن الابن هو الحياة بحسب الطبيعة، إذ يقول: "بما أن الابن هو ختم جوهر الآب الذي لا مثيل له، فهو إذن يحمل بحسب الطبيعة أيضاً خاصيته، أي



أن يكون الحياة، وذلك حتى لا يكون ختم الآب مزيفاً'' (الكنوز ١٤: ١٦).

ب ــ الابن ليس من إرادة الآب، وليس شبيهاً بالآب بحسب الإرادة

يقول الهراطقة[١] إن الابن ليس هو من نفس جوهر الآب، بل مجرد شبيه بالآب بحسب الإرادة، إذ أتى من الآب بواسطة إرادته. والسبب الذي جعل الأريوسيين يرفضون ولادة الابن من جوهر الآب هو مفهومهم عن الولادة بأنها حدثت مثل ولادة البشر بالقطع والتجزئة مما يسبب نقصاً لجوهر الآب: ''إذ يقولون: بما أن الآب قد أعطى بإرادته كياناً للابن، فبنفس الطريقة جعله خالقاً. ولا نقول إنه أتى من جوهر الآب لئلا يُدرَك على أنه جزءٌ مقطوعٌ منه، أو أنه تدفق من ذلك الجوهر غير الموصوف'' (الكنوز ٢١: ١٠). ويرد القديس كيرلس واصفاً هذا الرأي بأنه مجرد أقوال غبية وثرثرة؛ لأن التجزئة والقطع ومثل هذه تتناسب مع الأجساد البشرية التي تسري عليها هذه الأمور، لكن الذي ليس هو جسد ليس لديه صفات الأجساد. هكذا غير الجسدي يلد بدون أن يتجزأ أو يتألم.

وكعادته يستخدم أمثلة لكي يوضح عدم الإدراك بالنسبة لهم، فيقول: ''فأيُ ألمٍ يلُم بالشمس عندما تلد النور؟ وأيُ قطعٍ أو تجزئةٍ تصيب النيران عندما تبعث النور من ذاتها؟ فإذا كانت النيران تلد دون تجزئة، وترسل ما في ذاتها دون ألم، أفلا يستطيع بالأكثر خالق تلك الأشياء أن يبعث بهاء طبيعته؟ متى انفصل الختم عن الصورة؟ فالختم يوجد دائماً في طبيعة الصورة، وداخلها أيضاً'' (الكنوز ٢١: ١١). الابن هو نفسه. كما يؤكد القديس كيرلس. إرادة الآب الجوهرية **وكلمته** الذي بواسطته يخلق الكل. أما الهراطقة، فإنهم ينادون بأن طبيعة الله هي جافة وعقيمة، وكما يقول القديس كيرلس، أي إرادة فاعلة تأتي من مثل هذه الطبيعة وتحضِر الابن إلى الوجود. فالأشياء التي كانت غير موجودة ووُجدت هي أشياء مخلوقة ومصنوعة.

أما بخصوص قولهم أو تساؤلهم الذي طرحوه عن: هل وُلِدَ الابن بإرادة الآب أو

١- أنظر
ΕΥΝΟΜΙΟΥ, Ἀπολογτικός, 24, R. P. VAGGIONE, Eunomius the extant works (oxford Early Christian texts), oxford (Clarendon press) 1987, P 64, 1-4.
وأيضاً أنظر ΒΛ. ΦΕΙΔΑ, Ἐκκλησιαστική Ἱστορία, Τ. Α', Ἀθῆναι 1994[2], σ. 387.

بدون إرادته؟ يؤكد لهم القديس كيرلس أن مثل هذا التفكير غير موجود إطلاقًا في الكتاب المقدس، لذا يقول لهم: "مِن أي كتاب مقدس تعلمتم؟ ومَنْ مِن القديسين قال إن الابن أتى مِن الآب بإرادته أو بدون إرادته؟ ومِمَنْ أخذتم هذه الأقوال؟ لأن **كلمة** الله كان ويكون، وقد عرفنا هذا الأمر مِن الكتاب المقدس. أما بخصوص هل وُلدِ بإرادته أم لا، فإننا فقط منكم نسمع هذا القول لأن الآب أشار للابن من السماء قائلاً " هذا هو ابني الحبيب" (مت ٣: ١٧). وبواسطة داود قال: "فاض قلبي بكلام صالح" (مز ٤٥: ١) ويوحنا الحكيم يقول: "في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله" (يو ١:١)" (الكنوز ٧: ٢). وبالتالي لم يقل أحد إن الابن وُلدِ بإرادة الآب أو بدون إرادته، بل استخدموا فعل الكينونة كان ويكون ولم ينسبوا أي بداية زمنية لخالق الدهور.

إذن . كما يؤكد القديس كيرلس . في كل ما خُلِق بواسطة الله كانت الإرادة تسبق هذا الخلق، مثل: "قال نعمل الإنسان" (تك ١: ٢٦)، وأيضاً "كل ما شاء الرب صنع" (مز ١٣٥: ٦). أما بالنسبة لله الكلمة لا يبدو أبداً أن الإرادة تسبق، بل سمعنا فقط أنه كان ويكون أو الكائن والذي كان (الكنوز ٧: ٣). إذن المكان الطبيعي للابن هو الآب، وليس هو من ضمن المخلوقات، ولا صار بالإرادة مثلما صارت كل المخلوقات، لأنه أتى من الآب ومن جوهره وُلدِ وهو أزلي (الكنوز ٧: ٣).

أيضاً كعادته يوجز لهم برهاناً منطقياً وكتابياً واضحاً، إذ يقول: "لو أن زمناً ما مرَّ قبل خلق المخلوقات بإرادة الله، حتى لو افتراضنا أن هذا الزمن كان صغيراً جداً، ولو لحظة، فكيف يتفق ذلك مع كون الابن هو خالق الدهور" (الكنوز ٧: ٧). إذن على الهراطقة الاعتراف بأنه خالق الدهور كما يعلمنا الكتاب وبالتالي كان كائناً ولم يكن يوجد شيءٌ قبل ولادته.



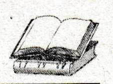
ج ـ التفسير الحقيقي للشواهد التي استخدمها الأريوسيون ليبرهنوا على أن الابن ليس من نفس جوهر الآب

١ـ (نص متى ٢٤: ٣٦)[١]: "وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا ملائكة السموات إلاَّ أبي وحده".

إن الهراطقة محاربي المسيح كما يصفهم القديس كيرلس، يزعمون أن وحدة الآب والابن أمرٌ مستحيل لأن الابن يقول أنه لا يعرف يوم نهاية الأزمنة بالرغم من أن الآب يعرف هذا اليوم (الكنوز ٢٢: ١). يجيب القديس كيرلس بأن الابن بكونه إلهاً يعرف اليوم والساعة طالما كان يعرف كل ما هو قبل ذلك اليوم سارداً بوضوح كل ما يمكن أن يحدث قبل هذا اليوم وتلك الساعة لأنه بعدما وصف ما سيحدث، قال "ثم يأتي المنتهي" (مت ٢٤: ١٤). أما عن قوله أنه لا يعرف فهو يتناسب ـ كما يؤكد القديس كيرلس ـ مع الطبيعة البشرية بكونه إنساناً لأن خاصية الطبيعة البشرية هو عدم معرفة الأمور التي سوف تحدث (الكنوز ٢٢: ١). الأمر الهام الذي يجعلنا نفسر أقوال الرب تفسيراً صحيحاً ـ كما يؤكد القديس كيرلس ـ هو أن نفتش في هذه الأقوال عن الزمن الذي قيلت فيه هذه الأقوال من جانب المخلص، فالقول الذي يليق به بكونه إلهاً ينبغي أن نميزه عن القول المتواضع الذي قاله بكونه إنساناً بعد تأنسه إذ يخص ناسوته. والشرط الوحيد لقبول هذا الأمر هو قبولنا لسر التدبير الإلهي، أي أن **الكلمة** صار جسداً: "لأنه إن لم يكن قد صار إنساناً، فليتحدث إذن بكونه إلهاً، أمَا وقد صار إنساناً، عندئذٍ من اللائق ـ كإنسان ـ أن يتكلم كإنسان، دون أن تقلل خطة تدبير الله من أجلنا، من إلوهيته" (الكنوز ٢٢: ٣).

ويذكر لهم القديس كيرلس قول المخلص لأبيه "أيها الآب قد أتت الساعة مجّد ابنك" (يو ١٧: ١) ويعلق قائلاً: "فيما أنه يعرف الساعة بالضبط التي يقول أنها أتت، فما الذي يمنعه من أن يعرف تلك الساعة التي يقول عنها ـ كإنسان ـ إنه يجهلها مثلما يليق بالطبيعة البشرية، وإن كان يعرفها على أية حال بكونه إلهاً؟"

١ـ أنظر القديس أثناسيوس، ضد الأريوسيين، المقالة الثالثة، ترجمة د. مجدي وهبة ود. نصحي عبد الشهيد، ومراجعة د. جوزيف موريس فلتس ود. نصحي عبد الشهيد، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية أبريل ٢٠٠٧م، فقرة ٤٢.



(الكنوز ٢٢: ٣). هكذا فلأن **كلمة** الله يحب البشر لم يتردد في أن يضع ذاته في تواضع كبير، لدرجة أنه ـ كما يقول القديس كيرلس ـ أخذ على عاتقه كل ما يخصنا وواحدة من هذه الأمور التي تخصنا هي عدم المعرفة" (الكنوز ٢٢: ٣).

أيضاً ما أراد أن نلتفت إليه ـ القديس كيرلس ـ في كلام المخلّص، هو أنه لم يذكر أبداً أن الروح لا يعلم، بل "لا يعلم بهما أحد ولا الملائكة... ولا الابن"، وأيضا لم يضف ولا الله لا يعلم. مِن هنا، الملائكة يجهلون كمخلوقات معرفة اليوم والساعة ولكي لا يبدو ـ كما قال القديس كيرلس ـ أنه يخفي يوم المجيء عن أولئك التلاميذ، ويحزنهم بسبب هذا الأمر، قال أيضاً "ولا الابن" متحدثاً بذلك بطريقة إنسانية عن ذاته بكونه إنساناً. والسبب الذي من أجله أنه لم يقل الروح: **أولاً**: الروح بكونه إلهاً يعرف كل شيء. **ثانياً**: يفحص كل شيء حتى أعماق الله (١ كو ٢: ١٠). من الواضح أنه الله ويعرف كل شيء ويستطيع أن يفحص كل شيء ويأخذ معرفته من الابن؛ لأنه يقول "ذاك يمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم" (يو ١٦: ١٤). والنتيجة يضعها في سؤال يوجهه للهراطقة، قائلاً: "إذن، كيف يجهل **كلمة** الله تلك الساعة، وهو الذي يمنح المعرفة للروح الذي يعرف كل شيء؟" (الكنوز ٢٢: ٥).

يؤكد القديس كيرلس على أن الابن بتأنسه ـ تدبيرياً ـ اكتسب ضعفات الجسد الذي لبسه والبرهان على هذا الأمر ـ بحسب القديس كيرلس ـ هو من نص (أع ١: ١٧) حين سأله التلاميذ عن متى ستجيء النهاية؟، أجاب: "ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات التي جعلها الآب في سلطانه". وهنا يتضح أنه لا يجهل هذا الأمر، لأنه لم يقل: "لقد قلت لكم لا أعرف". إذن وقتذاك كان يعرف كل شيء بكونه إلهاً، ولأن هذه المعرفة هي أعظم من معرفة التلاميذ قال "ولا الابن" متحدثاً بطريقة بشرية، أي باعتباره كواحد من البشر حسب طبيعته البشرية، أنه لا يعرف اليوم ولا تلك الساعة " (الكنوز ٢٢: ٦). بالتالي الابن يعرف اليوم والساعة بكونه إلهاً حتى لو قال إنه يجهلها لأنه صار إنساناً وتصرّف كإنسان. والدليل على ذلك ـ بحسب القديس كيرلس ـ أن الآب يفعل كل شيء بواسطة الابن، لأنه كما هو مكتوب "كل شيء به كان"، وواحد من هذه الأشياء هو تحديد اليوم والساعة التي فيها تكون نهاية العالم،

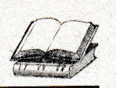
إذن هذا الأمر حُدد بواسطة الابن. والسؤال الذي واجه به القديس كيرلس الهراطقة هو: كيف إذن يمكن للابن أن يجهل الأمر الذي حُددَ بواسطته؟ (الكنوز ٢٢: ٦).

أيضاً هناك إجابة منطقية ذكرها القديس كيرلس للهراطقة، وهى أن الابن يعرف الآب كما قال هو نفسه، فإن قُلتم إنه يجهل اليوم وتلك الساعة فأنكم تعتبرون أن معرفة نهاية العالم هي أعظم من معرفة الآب وحينئذٍ تقعون تحت عقاب التجديف. لكن بما أن معرفة الآب هي أعظم من أي معرفة، فكيف للذي يعرف المعرفة الأعظم أن يجهل الأدنى؟ وهكذا يختم القديس كيرلس كعادته واضعاً الهراطقة أمام هذا السؤال (الكنوز ٢٢: ١٠).

أيضاً طالما بولس الرسول يقول عن الابن أن الكل عريان ومكشوف أمامه (أنظر عب ٤: ١٣)، وأحد هذه الأمور المكشوفة أمامه هو معرفة اليوم وتلك الساعة، فكيف يجهلها هذا الذي بالنسبة له الكل مكشوف أمام عينيه؟" (أنظر الكنوز ٢٢: ٢١).

٢ـ نص لو ١٠: ٢٢: "كل شئ قد دُفع إليَّ من أبي"،
نص يو ٣: ٥٣: "الآب يُحِب الابن وقد دفع كل شيء في يده".

استند الأريوسيون على مثل هذه النصوص لكي يؤكدوا اعتقادهم الخاطئ بأن الابن ليس واحداً مع الآب في الجوهر، وهو يقبل منه ما ليس لديه بحسب الجوهر، فهم يتساءلون: "كيف يمكن أن يكون الابن مشابهًا للآب، إذ يقول إن كل شيء أخذه من الآب؟ لأنه، إن كان لديه كل شيء، لماذا قال أنه أخذها. وطالما أنه أخذها، كما يقول هو نفسه، فمن الواضح أنه لم يكن لديه شيءٌ من ذاته" (الكنوز ٢٣: ١). وكان رد القديس كيرلس، أن الابن لديه بحسب الطبيعة ما للآب فيما عدا الأبوة، طالما هو **كلمته** وشعاعه. وسبب قوله: "أن كل شيء أخذه من الآب" هو لكي يفند ـ مسبقاً ـ رأي الهراطقة إذ كان يعرف بكونه إلهاً ضلال سابيليوس بأنه سيزعم بأن الله أقنوم واحد. إذن حرصاً منه لئلا يظن أحد وهو ينظر إلى الابن ولديه كل ما للآب، أن الله هو مجرد أقنوم واحد، لذلك قال هذا القول ليعلن أن الحديث هنا عن اثنين، واحد يعطي والآخر يأخذ: "وذلك لكي يبرهن



لهم أنه يوجد اثنان لا يتميزان فقط من جهة الاسم، بل وأيضاً من جهة الأقنوم الخاص بكل واحدٍ على حدة. وهذا لا يمنع حقيقة أن **الكلمة**، حقاً هو واحد مع الآب وهو من نفس جوهره، وله أزلياً ما لدى الآب، إلاَّ أنه يقول إنه أخذ كل شيء منه بسبب أنه أتى منه، في حين أن لديه بحسب الطبيعة كل ما لدى الآب" (الكنوز ٢٣: ٢).

أما بخصوص نص (لو ١٠: ٢٢) "كل شيء قد دُفع إليَّ من أبي"، فهذا القول لا يُنقِص من إلوهية الابن بل بالحري. كما يؤكد القديس كيرلس. يبرهن بوضوح أنه الابن بحسب الطبيعة. لأن بقوله "كل شيء" يعني أنه لم يترك شيئاً لم يأخذه، بالتالي كونه وُلِدَ من الآب هو أحد الأمور المتعلقة بتعبير "كل شيء". وبالتالي الابن له. بحسب الطبيعة. كل صفات الآب الذي وَلَده" (الكنوز ٢٣: ٤).

هكذا حين قال الابن إنه أخذ، لا يعني أن هناك لحظة زمنية كان فيها محروماً من هذا الذي أخذه، إذ أن ما أخذه قد أخذه من جهة بشريته لكن بحسب الطبيعة الإلهية فإن ما للآب هو له أيضاً" (الكنوز ٢٣: ٥).

٣- نص لو ١٨: ١٩: "لماذا تدعونني صالحاً. ليس أحدٌ صالحاً إلاَّ واحدٌ وهو الله".

إن مشكلة الهراطقة يلخصها بكل وضوح القديس كيرلس، فهم حين يبحثون في علاقة الابن بحسب الطبيعة مع أبيه يستخدمون الأقوال التي قيلت بشرياً والتي قالها الرب حين أخذ جسدنا. مع أنه ينبغي عليهم أن لا يصفوا الجوهر غير الجسدي بالأقوال التي قالها الرب بحسب التدبير بكونه إنساناً. هذا التدبير الذي يتحدث عنه دائماً القديس كيرلس هو تدبير التجسد، أي أن **الكلمة** المساوي للآب في الجوهر تنازل وأخذ الطبيعة البشرية وصار إنساناً لكي يتحدث بكونه إنساناً بسبب تجسده. وفي نفس الوقت، يتحدث أيضاً بكونه إلهاً عن الأمور التي تفوق الطبيعة البشرية لأنه هو الله بحسب الطبيعة. والخطأ كل الخطأ الذي وقع فيه الأريوسيون هو أخذ الأقوال التي قيلت بكونه صار إنساناً على أنها تخص إلوهيته أو ينقل الأقوال الخاصة بكونه إلهاً إلى الفترة التي صار فيها إنساناً مثل: "قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن" (يو ٨: ٥٨) وأيضاً: "قد نزلت من السماء" (يو ٦: ٣٨). هكذا مَنْ

ينسب الأقوال التي قيلت عنه بكونه إنساناً إلى إلوهيته يكون قد ارتكب خطأ كبيراً. ويتساءل القديس كيرلس: "سوف يرتكب تجديفاً عظيماً عندما يقول المسيح "نفسي حزينة حتى الموت"؟ هل سوف يقول. إذن. إن حزناً واضطراباً انتاب طبيعة الله وسيطر عليه خوف الموت؟" (الكنوز ١٠: ١). هكذا عندما يقول بكونه إنساناً إنه ليس صالحاً، نثق أن هذا القول يُنسب إلى التدبير الجسدي ولا يلتصق بجوهر الله الابن.

الهراطقة يريدون أن يقولوا، بما أن الله فقط هو صالح، إذن الابن ليس من نفس جوهر الآب. والرد الذي قاله القديس كيرلس هو شرح السياق الذي قال فيه الرب هذا القول. فالناموسي اقترب من الرب وهو يراه كإنسان عادي وتظاهر بأنه جاهل، والقديس كيرلس يقول: حسناً أظهر نفسه جاهلاً لأنه كان بالفعل هكذا، ولأجل هذا أخجله الرب بأن قال له: ليس صالحاً إلاَّ الله. ويكمل القديس كيرلس قوله فيضع كلماته على لسان المسيح، فيقول: "فإذا كنت تعرف أنني الله ولأجل هذا فأنا صالح، عندئذٍ لأي سبب تقترب إلى كمجرد إنسان؟ وإذا كنت لا تؤمن بأنني إله، بل تظنني مجرد إنسان، عندئذٍ لماذا تنسب لإنسان خاصية تتناسب فقط مع الله؟" (الكنوز ١٠: ٢).

هكذا كانت رؤية الرب للناموسي، لقد رأى الناموسي غير مستعد وغير مهيَّأ للرغبة في الصالحات، لدرجة أنه لم يقدر أن يرفع ثقل وصية واحدة إنجيلية ولم يحتمل الأقوال التي قيلت له، إذ مضي حزيناً. إذن كان من غير الممكن أن يتعلم هذا الناموسي السر الأعظم بأن الابن هو مساوٍ للآب في الجوهر بكونه إلهاً. لأجل هذا رد المسيح للناموسى: لماذا تدعوني صالحاً؟ يمثل امتحاناً لجهل هذا الناموسي.

٤ـ نص يو ١: ١٨: "الله لم يره أحدٌ قط الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبَّر"

يستند الهراطقة على هذا النص ليدعِّموا رأيهم الخاطئ بأن الابن ليس واحداً مع الآب في الجوهر، طالما هو أدنى منه بدليل أنه "هو خبَّر" (يو ١: ١٨). استخلص الهراطقة حقيقتين بحسب زعمهم:

١- الابن يدعو الآب بأنه غير مرئي من الجميع.

٢- والابن أيضاً لم يرَ الآب إذ أنه هو واحد من ضمن جميع الذين لم يروا الآب.

إذن كيف يمكن أن يكون واحداً مع الآب في الجوهر وهو أدنى منه؟

يجيب القديس كيرلس عليهم واصفاً إياهم بأنهم يحاربون الحق علناً ويعارضون ما جاء في الكتب المقدسة. كما يرى القديس كيرلس في هذا النص الآتي:

١- الابن يرى الآب لأنه في حضن الآب.

٢- عدم رؤية الآب هنا تسري على الكل ما عدا الابن.

٣- واجههم بالآيات التي تثبت أن الابن يرى الآب، على سبيل المثال:

(يو ١٤: ٩): "مَن رآني فقد رأى الآب".

(يو ١٠: ١٥): "كما أن الآب يعرفني وأنا أعرف الآب".

(مت ١١: ٢٧): "ليس أحد يعرف الابن إلاَّ الآب. ولا أحد يعرف الآب إلاَّ الابن ومَنْ أراد الابن أن يعلن له".

إذن . عن حق . يتساءل القديس كيرلس، قائلاً: "الذي ليس لديه فقط أن يعرف الآب بل أن يعلنه للآخرين، كيف لا يراه؟ (الكنوز ١٣: ٣٦).

٥- نص (يو ٥: ٢٦): "كما أن الآب له حياة في ذاته كذلك أعطى الابن أن تكون له حياة"

مشكلة الهراطقة مع هذا النص هي إقرارهم بأن الابن ليس واحداً مع الآب في الجوهر، استناداً على اعتقادهم أن الابن قد جاء إلى الوجود في وقت لاحق على الآب الذي أخذ منه شيئاً. والقديس كيرلس يشرح لهم ما يؤكده مراراً بأن وجود الابن لم يبدأ من اللحظة التي قَبِل فيها شيئًا من الآب وأنه كائن أزليًا قبل كل شيء. ويلجأ القديس كيرلس كعادته إلى الأمثال ليوضح لهم هذه الحقائق، فيقول لهم، طالما أن الابن مولود من الآب بحسب الطبيعة، إذن هو يحمل كل خصائص الآب، مثل النور الذي أتى من الشمس يمكن أن يُقال عنه إنه قَبِل شيئًا من الشمس وهو

يوجد على أية حال فيها. هذا لا يعني أن الشمس توجد قبل الشعاع لأن الشعاع أتى منها بدون أن تتجزأ أو ينفصل عنها، فهو يحمل نفس مميزاتها بحسب الطبيعة (الكنوز ١٤: ٣). بالتالي ليس بسبب أن الابن أخذ شيئاً من الآب يعني أنه قد جاء إلى الوجود في وقت لاحق على الآب.

ويفترض القديس كيرلس . كعادته . صحة رأي الهراطقة ويبرهن لهم بعد ذلك النتائج العبثية التي تنتج من تسليمنا بصحة آرائهم، فيقول، لو أن قبول شيء يُظهِر جوهر ذاك الذي أخذ هذا الشيء، ما المانع أن نقول أن الآب بدأ يوجد حين قِيل إنه أخذ منِا شيء؟ فالمرنم يقول: "أعطوا مجداً لله" (مز ٦٨: ٣٥). طبعاً هذا تجديف صريح وواضح ولا يقبله أحد (الكنوز ١٤: ٤). هكذا الابن كان يوجد وموجود على الدوام إذ يأتي من الآب بطريقة لا بداية لها وأزلية ولديه كل ما لدى الآب بحسب الطبيعة. وهكذا ينبغي على الهراطقة أن يدركوا جيداً . كما يقول القديس كيرلس . أن الولادة الإلهية وغير الموصوفة أسمى بكثير من أي مثال ذكرناه.

أيضاً يحاول الهراطقة بكافة الطرق أن يبرهنوا على عدم المساواة بين الآب والابن بحسب الجوهر زاعمين أن مَنْ يأخذ شيئاً من آخر ليس لديه هذا الشيء. ويجيب القديس كيرلس على هذا الرأي موضحاً أن الآب لديه حياة والابن أيضاً له حياة في ذاته بحسب شهادته هو شخصياً في الكتاب، إذن هما مِن جوهر واحد. لقد قال الابن: "مَنْ يؤمن بي فله حياة أبدية" (يو ٦: ٤٧) و"أنا أعطيهم حياة أبدية" ويتساءل القديس كيرلس: لو افتراضنا أن الابن ليس هو الحياة بحسب الطبيعة، كيف قال هذه الأقوال؟ إذن لو لم يكن هو الحياة ألا ينبغي أن يقول، الذي يؤمن بي سينال مني الحياة التي أعطاها لي الآب. ويستخلص بعد ذلك ما يهدف إليه، قائلاً "وطالما هو مولود من الآب بطريقة طبيعية، فهو يحمل كل خصائص الآب[1].

١- يشرح القديس كيرلس في كتابه: حوار حول الثالوث، هذه الحقيقة على أساس أن الابن يستمد الحياة من الآب بحسب الطبيعة، بالتالي فإن فعل الإحياء هو للآب وللابن، إذ يقول: "لأن الآب هو الحياة، فقد استمَّد الابن الحياة منه حسب الطبيعة، مُظهِراً بذلك جوهر الذي وَلَده. ولأنه هو في الآب تماماً، والآب هو - بالكمال - فيه، لهذا نقول إن الفعل هو فعل الآب والابن، ولهذا أيضاً، فإن الابن وهو يشير إلى أن ما يفعله الآب يفعله هو أيضاً، يوضّح تماماً أن كل أفعاله هي مساوية لأفعال الآب وذلك بسبب أنه هو واحد مع الآب في الجوهر" أنظر حوار حول الثالوث، ترجمة د. جوزيف موريس فلتس، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية مايو ٢٠١٠، الجزء الرابع، الحوار الخامس، ص ٤٩.



وذلك على مثال النور الذي يأتي من الشمس، فهذا النور يمكن أن يُقال عنه إنه قَبِل شيء من الشمس؛ لأنه يوجد على أية حال فيها، يبدو أنه نور الشمس التي ولدته دون أن يعني هذا حتماً أن الشمس وجدت قبل الشعاع؛ لأن الشعاع الذي أتى منها دون أن ينفصل عنها يحمل نفس مميزاتها بحسب الطبيعة" (الكنوز ١٤: ٣).

أيضاً يذكر لهم قول الابن في (يو ٥: ٢٦): "كما أن الآب له حياة في ذاته كذلك أعطى الابن أن تكون له حياة في ذاته" لأنها تبرهن بوضوح المساواة التامة بين الابن والآب. لأن الابن لديه الحياة بحسب الطبيعة لأنه مولود من جوهر الآب (الكنوز ١٤). غير أن الهراطقة لا يهدئون وبكافة الطرق يريدون أن يبرهنوا على عدم وجود مساواة تامة بين الآب والابن، إذ هو واحد مع الآب في الجوهر، إذ يقولون إن الابن ليس هو الحياة بحسب الطبيعة بل بالمشاركة، وهنا يواجههم القديس كيرلس بما قاله الابن في (يو ٦: ٥١): "أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء. إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد". وتعبير "أنا هو" له دلاله لاهوتية عظيمة عند القديس كيرلس، إذ يفترض صحة رأي الهراطقة لكنه يرد عليهم قائلاً: "بما أنه هو الخبز الذي يجعل الذين يشاركونه غير مائتين، إذن هو لا يحي بقوة خارجية، ولا بالاكتساب، لكن حقاً هو ذاته بحسب الطبيعة الحياة، وهو يَعِد الذين يشاركونه بأنه سوف يحييهم حقاً" (الكنوز ١٤: ٨). بالتالي مسألة أنه أخذ الحياة من الآب هي بسبب أنه صار إنساناً. ودائماً يشرح سبب المنح، إذ يقول: أعطاه سلطاناً أن يدين لأنه هو ابن الإنسان (أنظر يو ٥: ٢٢). هكذا أيضاً أخذ الحياة بكونه إنساناً وليس بكونه إلهاً.

٦ـ نص يو ١٧: ٣: "أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته".

يقول الأريوسيون إن الابن هنا يعترف بأن الآب هو الإله الحقيقي وفقاً لِما قيل في (أش ٤٤: ٦): "أنا الأول وأنا الآخر ولا إله غيري". إذن بحسب رأيهم الابن ليس إلهاً بحسب الطبيعة ولا هو من نفس جوهر الآب (الكنوز ٢٧: ١).

ويجيب القديس كيرلس على هذا الرأي الخاطئ مؤكداً على أن ما جاء في أشعياء ليس ضد إلوهية **الكلمة** المتأنس بل لتأكيد أن الله الحقيقي هو واحد، وليس كما يؤمن الوثنيون بآلهة كثيرة كاذبة. وغير صحيح ما يظنه الهراطقة أن هناك عراكاً ما بين الله الحقيقي الآب الأول وآخر ثانٍ هو الابن مما يتبعه أن الابن له مكانة أدنى كيانياً عن الآب، بل الابن يظهر دائماً وهو ينسب المجد إلى الآب (الكنوز ٢٧: ٢). والإضافة التي أضافها المسيح مباشرةً حين قال "ويسوع المسيح الذي أرسلته" تدل . بحسب القديس كيرلس . على أنه غير منفصل عن جوهر الآب فيما يخص الإلوهية ويُدرك دائماً مع الآب. وبالتالي فإنه لم يقل إنه الإله الحقيقي لكي يلغي **كلمته** الذي بواسطته يفعل كل شيء. وعليه تكون آية أشعياء (٤٤: ٦) كما يؤكد القديس كيرلس، هي ضد الآلهة الكاذبة.

وضع القديس كيرلس أمام الهراطقة مبدًأ تفسيريًا هامًا، هو أنه عندما يُذكر الآب الإله الوحيد، فإن هذا يتضمن على أية حال الابن. ويستشهد القديس كيرلس بآيات الكتاب المقدس: "أنا الرب صانع كل شيء ناشر السموات وحدي" (إش ٤٤: ٢٤)، والله نفسه يقول: "أنا الذي نشرت السموات وحدي"(أر ١٠: ١٢ س)، وفي موضع آخر يقول بوضوح عن الابن: "بكلمة الله صُنعت السموات" (مز ٣٣: ٦). ويستخلص القديس كيرلس ما يريده، قائلاً: "بينما يقول الله الآب إنه خلق السماء وحده، نرى أن الابن قد خلق السماء، إذن من الواضح أنه عندما يُقال أن الآب هو الإله الحقيقي وحده، فإن ذلك . على أية حال . يعني أن الابن الذي بواسطته خلق الآب كل شيء، هو متَضمَّنٌ معه، لأنه يوجد حقاً فيه بطريقة طبيعية مثلما يوجد الشعاع في النور" (الكنوز ٢٧: ٥).

٧ـ نص يو ١٧: ٥: "مجِّدني أنت أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم"

يأخذ الأريوسيون أيضاً هذا النص كبرهان على أنه لا يوجد تماثل طبيعي بين الآب والابن طالما هنا يبدو أنه يطلب شيئاً ليس لديه. ومن وجهة نظرهم لو أن



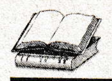
الابن يطلب من الآب ما هو لديه بالفعل، يكون طلبه هذا ليس له أي معنى، أما إذا كان يطلب ما ليس لديه، إذن فهو أدنى من الآب ولا توجد أي مساواة بحسب الطبيعة بينه وبين الآب، فالآب هو مانح المجد ولا يمكن للابن أن يكون واحداً مع الآب في الجوهر (الكنوز ٣٠: ١).

يجيب القديس كيرلس على هذا الرأي الخاطئ، وهو يتساءل، كيف كان من الممكن أن يكون رب المجد (أنظر ١ كو ٢: ٨) في احتياج للمجد؟ ويوضح لهم كيف أن ابن الله كاملٌ وليس ناقصاً في شيء، ومن العبث الشديد أن تفكروا بأنه يفرح بالأمجاد مثل الإنسان. ويعلن لهم بوضوح أن الأمر فيه مفهوم عميق للتدبير (الكنوز ٣٠: ٢). هذا المفهوم ـ كما شرحه القديس كيرلس ـ هو أن الابن طلب مجداً ليس لذاته لأنه لم يكن في احتياج للمجد، طالما هو الله بحسب الطبيعة، لكن أخذ بواسطة ذاته مجد الآب للجنس البشري. وهكذا يعلن القديس كيرلس لهم المبدأ اللاهوتي الأساسي، وهو: كل الصالحات حصلنا عليها به وبواسطته (الكنوز ٣٠: ٢).

مشكلة الأريوسيين وغيرهم من الهراطقة، هو أن آرائهم تصطدم أولاً بما جاء في الكتب المقدسة وتتناقض معها، لهذا يرد عليهم القديس كيرلس موضحاً خطورة ما يقولونه وأنهم ضد تعليم الكتاب المقدس ذاته. وللبرهنة على حقيقة هذا الأمر، يفترض القديس كيرلس أن الابن ـ كما يزعمون ـ لديه احتياج للمجد، وبالتالي الاستنتاج الطبيعي هو أن الابن يختلف جوهرياً عن الآب لأن الذي في احتياج لشيء يكون غير كامل. ولكن في (يو ١٠: ٣٠): يقول المخلص: "أنا والآب واحد"، إذن هو كامل أيضاً مثل الآب، إذ هما واحد في الجوهر. بالتالي يجب أن يعترف الهراطقة بأن الابن لديه مجد كامل مثل ذاك الذي ولدَه (الكنوز ٣٠: ٢).

إن شهادة المسيح ذاته: "مَنْ رآني فقد رأى الآب" (يو ١٤: ٩) تؤكد كمال **كلمة** الله المتأنس إذ أن التطابق الصادق والأصيل بين رؤية الابن والآب هو أمر مؤسَّس على التعليم الخاص بأن الابن واحد مع الآب في الجوهر. وهذا الأمر يستلزم أن يكون للابن المجد الكامل مثل الآب (الكنوز ٣٠: ٦).

يلجأ أيضاً القديس كيرلس ـ كما قلنا ـ للمنطق أحياناً لكي يرد على الهراطقة



ويفترض أن الابن إذ هو في احتياج، فقد طلب من الآب المجد لذاته عن احتياج، والآب وعده أن يمجده، عندئذٍ لأي سبب بعد هذا الطلب . كما يقول القديس كيرلس . تتابعت عليه اللطمات من اليهود وإكليل الشوك والتفل عليه؟ هنا لا يبدو أن الآب يمجده، بل على النقيض تماماً ومِن هنا نستنتج أنه لم يطلب المجد لذاته بل للجنس البشري (الكنوز ٣٠: ٧).

كما يلجأ القديس كيرلس إلى مفهوم المصطلح اللغوي ليدعم رأيه وتفسيره للآية موضحاً أن تعبير "مجدني أنت أيها الآب" تعني كما عند الفلاسفة "عرِّفني"، أي مرادف "مجِّدني" هو أظهرني أو عرفني، أي كأن المسيح أراد أن يقول: ضع في البشر هذه المعرفة التي بها يستطيعون أن يتقبلّوني سامعين أنني أُوجد أيضاً قبل أن يُخلق العالم، أي أنا الإله الحقيقي بحسب الطبيعة، "النور الذي أتى مِن النور، الحق الذي أتى من الآب الحقيقي" (الكنوز ٤ : ٣٠).

٨ـ نص يو ١٧: ٢١: " كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا"

يستشهد الهراطقة بهذا النص لكي يبرهنوا على أن طريقة اتحاد الآب بالابن ليصيرا واحداً هي نفسها التي بها يصير البشر واحداً مع الله، وبالتالي لا يكون الابن مختلفاً في شيء عن البشر في علاقته مع الآب، وبناء على ذلك ليس هو من نفس جوهر الآب. والقديس كيرلس يجيب عليهم بإتباعه منهج افتراض صحة رأيهم ثم يستخرج النتائج التي تسفر عن صحة هذا الرأي ويواجههم بها. فنحن لو افتراضنا أنه لا يوجد اختلاف بين **الكلمة** ونحن البشر، وبما أنه هو خالق إذن لماذا ليس لدينا هذا اللقب؟ أيضاً بما أننا . بحسب رأي الهراطقة . مثل **الكلمة** بحسب الطبيعة، هل لدينا نفس مكانته بالقرب من الله وكل واحد منا يُدعى أيضاً وحيد الجنس **وكلمة** وحكمة الآب. ونقول هذا لأن خواص الطبيعة هي واحدة، طالما —كما يزعمون . لنا نفس الطبيعة. ويصل القديس كيرلس إلى الاستنتاج الصحيح الذي يؤكد أن هذا الكلام غير معقول بالمرة وأن حكمة **وكلمة** وشعاع الآب هو فقط الابن، وأنه ليس مثلنا بحسب الطبيعة، بل هو مولود من الآب قبل الدهور وبهذه الطريقة هو واحد

مع أبيه وليس مثلنا نحن الذين أنعم علينا الله بهذه الوحدة بفضل اتحاد اللاهوت والناسوت في شخص الكلمة المتأنس كمثل الحديد الذي يسخن حين يتحد بالنار (الكنوز ١٢: ٢٦).

٩ـ نص ١ تيمو ٦: ١٦: "الذي له وحده عدم الموت"

يقول محاربو المسيح، إن بولس الرسول يقول الحق ولو أن الابن له أيضاً عدم الموت، عندئذٍ لن يكون الآب كما يقول بولس هو الذي له وحده عدم الموت. وبالتالي فالابن ليس له عدم الموت.

مبدأ الهراطقة الخاطئ هو: أن الأمر الذي يُقال فقط للآب يُحرم منه الابن. ويفند القديس كيرلس هذا المبدأ الخاطئ من شواهد الكتاب المقدس. فالآب هو الإله الحقيقي وحده كما هو مكتوب. وعلى هذا الأساس. بحسب زعمهم. يكون الابن ليس إلهاً بحسب الطبيعة. وكما يقول القديس كيرلس، كيف يُسجد له مِنا ومن الملائكة، إذ يقول الناموس الإلهي: "للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد" (مت ٤: ١٠، وتث ٦: ١٥). بالتالي هذا يرجع إلى خواص الطبيعة الإلهية الواحدة بين الأقانيم إذ يشترك الثالوث في الطبيعة الواحدة والجوهر الواحد، فخاصية عدم الموت كما هي للآب هي أيضاً للابن المولود من جوهر الآب (الكنوز ١٤: ١٢).

يذكر أيضاً لهم ما قاله بولس: "الذي لا يفنى ولا يُرى الإله الحكيم وحده" (١ تيمو ١: ١٧)، ويتساءل هل الابن ليس هو غير فانٍ ولا هو غير منظور ولا هو حكمة؟ طبعاً مَنْ يقول نعم يجدف ويقاوم تعليم الكتاب لأنه مكتوب "إنه قوة الله وحكمة الله" (١ كو ١: ٢١). بالتالي لا يُحرم الابن من أن يكون له كل ما لدى الآب بحسب الطبيعة (الكنوز ١٤: ١٣)، وإلا سوف تُوصف حكمة الله بأنها غير حكيمة.

١٠ـ نص عب ١: ٣ ـ ٤: "جلس في يمين العظمة في الأعالي صائراً أعظم من الملائكة بمقدار ما ورث إسماً أفضل منهم"

التفسير الخاطئ للهراطقة قادهم إلى اعتبار الابن من ضمن المخلوقات طالما حدث له تغيُّر. بحسب رأيهم. لأنه صار إلى ما لم يكن عليه. هذا التغيُّر الذي لحق

بالابن إذ صار أعظم من الملائكة يدل على أن طبيعته متغيرة وبالتالي هو مخلوق، لأن أحد سمات المخلوق هو التغير.

يرد القديس كيرلس على هذا المفهوم الخاطئ معطياً للهراطقة درساً في مبادئ التفسير التي هي:

- فحص الزمن الذي قيلت فيه هذه الأقوال.
- فحص الشخص الذي قيلت عليه هذه الأقوال.
- فحص الموضوع الذي تتحدث عنه هذه الأقوال.

ويعطي لنا أمثلة من الكتاب تعضد هذه المبادئ الأساسية، فالخصي الحبشي — الذي سجل سفر الأعمال قصة إيمانه . حين كان يقرأ سفر أشعياء قال لفيلبس: "عن مَنْ يقول النبي هذا. عن نفسه أم عن واحد آخر؟" (أع ٨: ٣٤)، وكذلك ما قاله بولس الطوباوي عن المخلص: "لأن الذي يُقال عنه هذا كان شريكاً في سبط آخر لم يلازم أحد منه المذبح فإنه واضح أن ربنا قد طلع من سبط يهوذا" (عب ٧: ١٣ . ١٤). أيضاً النبوات الآتية: "ها العذراء تحبل" (أش ٧: ١٤) وأيضاً: "كشاه تُساق إلى الذبح" (إش ٥٣: ٧) إذ لم تُفهم على أنها تخص المسيح، فإن ذهننا . كما يقول القديس كيرلس . سوف يذهب بعيداً عن الحق (الكنوز ٢٠: ١٨).

إذن، فالسياق العام الذي قيلت فيه الآية السابقة من رسالة العبرانيين يتضح مما قاله القديس بولس، إن **كلمة** الله تأنس لأجلنا وعندما طهرنا من خطايانا جلس في يمين الله ضابط الكل في السماء، وحينئذٍ صار أعظم من الملائكة بدون أن تتغير طبيعته الإلهية إلى شيء آخر لأن قول بولس هنا لا يخص طبيعة الابن الإلهية لكن عن الطبيعة البشرية التي اتخذها الكلمة حين تجسد. المقارنة هنا لا تخص الطبائع بل مقارنة تخص الخدمة. فخدمة المسيح هي أعظم من خدمة الملائكة (أنظر عب ١: ١ . ٣) ويؤكد القديس كيرلس هذا الأمر، قائلاً: "إذن عندما أحاط الابن بمجد عظيم جداً، وأعطاه كل خصائص الآب الطبيعية، عندئذٍ يقول إنه صار أعظم من الملائكة بقدر عظمة الاسم الذي أخذه، كابن ووارث وبهاء وختم الآب وصورته،

وخالق وجليس في عرش الآب. إذن طالما أننا أدركنا أنه هو الأعظم والمختلف عن الملائكة بسبب كل هذا، بالتالي أيضاً خدمته هي أعظم من خدمة أولئك الملائكة" (الكنوز ٢٠: ١٨). ومشكلة الهراطقة هي في فهمهم لمعنى "صار"، لذا يقول لهم القديس كيرلس إنها "لا تعني أنه أتى إلى الوجود مِن العدم (لأنه في البدء كان الكلمة" (يو ١: ١)، ولا تعني تغيُّره من الأدنى إلى شيء أعظم (لأن الابن هو الكامل الآتي من الآب الكامل)، لكنه أظهر عظمته قياساً بمجده ورتبته" (الكنوز ٢٠: ١٨).

أيضاً لابُد أن يدرك الهراطقة أن المقارنة هنا ليست لأن طبيعة الابن هي نفسها طبيعة الملائكة، طبيعة مخلوقة، فهناك إمكانية للمقارنة بين طبيعتين مختلفتين. كما يؤكد القديس كيرلس. لأن الكتاب المقدس يستخدم مثل هذه المقارنة. مثلاً في (أمثال ٨: ٩ — ١٠ س): "خذوا أولاد وليس فضة، لأن الحكمة أعظم من اللآلئ وكل الجواهر لا تُساويها" وكذلك في (إش ٥٦: ٤ . ٥): "إني أعطيهم في بيتي وفي أسواري نصيباً واسماً أفضل من البنين والبنات" هكذا كلمة "أعظم" و"أفضل" تُستخدم ليس لأي اختلاف، بل عندما يكون الاختلاف عظيمًا وفائقًا (الكنوز ٢٠: ١٩).

كما لاحظ القديس كيرلس أن المقارنات بين الكائنات من نفس النوع لا تستخدم كلمة "أعظم" بل "أكثر" و"أقل" و"متميز" وبعض المرات كلمة "أزيد". ويدعم هذا الرأي بشواهد من الكتاب: "هكذا يوسف أكثر جمالاً من إخوته" (أنظر تك ٣٩:٦). ونجم ليس أعظم من آخر بل يتميز عنه من جهة اللمعان. نفس الأمر عندما يُقارن المخلص بالبشر، لا يُقال أنه أعظم بالنسبة للجمال بل أكثر جمالاً من بني البشر (مز ٤٥: ٣).

أما في حالة مقارنة الأمور المختلفة فيما بينهما في النوع، تُستخدم كلمة أعظم، هكذا مكتوب "الحكمة أعظم من اللآلئ" (أم ٨: ١٩ س). ويتساءل القديس كيرلس: ما العلاقة التي توجد بين الحكمة واللآلئ من جهة الطبيعة؟

ويستخلص من كل هذا الحُجة الحقيقة التي يرفضها الهراطقة، وهي "إذا كانت

المقارنة بين أشياء من نفس النوع، عندئذٍ لا تستخدم كلمة "أعظم"، أما إذا كانت المقارنة بين أشياء لا يوجد بينها تشابه من حيث الطبيعة، عندئذٍ يمكن استخدام كلمة أعظم. وإذا كان الابن ليس مشابهاً للملائكة، ولا مخلوقاً مثل أولئك، بل يتفوق عن الكل بما يفوق الوصف، فبقوله أعظم يقصد أنه لا يتشابه معهم وليس شبيهاً بأحد" (الكنوز ٢٠: ١٩).

يواجه القديس كيرلس الهراطقة بنتائج اعتقاداتهم العبثية بهدف إرجاعهم عن ضلالهم الواضح، فيفترض أن الابن له طبيعة مخلوقة مثل الملائكة. والنتيجة العبثية هي أنه لا يوجد شيء يعيق الملائكة عن الجلوس مع الله في عرشه مثلما يجلس الابن على يمين الله، كما هو مكتوب. لكن ولا أحد من الملائكة يستحق هذا الامتياز الفريد للابن، إذ يقول بولس الرسول: "لمنْ مِن الملائكة قال قط أجلس عن يميني؟" (عب ١: ١٣). ويعرض عليهم كعادته المبدأ الأساسي وهو: "لأن كل عناصر التشابه التي تُنسب لنفس الطبيعة تكون مشتركة، بينما الامتيازات الآتية إلى أشخاص ما مِن إضافةٍ متأخرة لا تخص الجوهر. فطبيعة البشر . على سبيل المثال . واحدة، لكن الجميع لا يغتنون، ولا بالتأكيد يصيرون ملوكاً، لكن هذه الامتيازات المكتسبة تتم للجميع بالقبول. بالتالي، لا يسمح أحدٌ للملائكة أن تحمل مجد الابن؛ لأنه هو الرب، بينما أولئك هم عبيد. بالتالي ليسوا متشابهين مع ذاك الذي يملك مع الآب في كل شيء" (الكنوز ٢٠: ٢٥).

ويؤكد القديس كيرلس بكافة الطرق أن الابن له طبيعة تختلف جذرياً عن طبيعة الملائكة بقدر اختلاف الخالق عن المخلوق. إذ لا يمكن للمخلوق والخالق أن تكون لهما نفس الطبيعة. فالواحد يخلق والآخر يُخلق. ويتساءل القديس كيرلس، إذ لم تكن الأمور هكذا، ما الذي يجعل الله يختلف تماماً عن المخلوقات . بما فيها الملائكة . التي قد أتت إلى الوجود بواسطة الابن. إذن لا يمكن أن يتشابه الابن مع الملائكة من جهة الطبيعة. فهو له مكانة الخالق أمَّا هم فلهم مكانة العبيد. لأن الكتاب المقدس يقول: "لأن الكل عبيدك" (مز ١١٩: ١٩)" (الكنوز ٢٠: ٢٦).

القسم الثالث

التعليم اللاهوتي عن الروح القدس

إلوهية الروح القدس ومساواته بالآب والابن في الجوهر:

بحسب تعليم القديس كيرلس، الروح القدس هو إله بحسب الطبيعة يأتي أزلياً من جوهر الله الآب. كما أن عبارة "روح المسيح" المذكورة في (رو ٨: ٩ . ١٠) تُظهر أن الروح ليس غريباً عن طبيعة **الكلمة** (الكنوز ٣٣). أما حُجة الهراطقة الزائفة التي تقول، نعم الروح القدس يأتي من الله لكنه مثل كل المخلوقات التي تأتي من الله حيث يقول بولس الرسول: "لنا رب واحد الذي منه جميع الأشياء" (رو ٨: ٦)، يفندها القديس كيرلس موضحاً لهم أن استخدام نفس التعبيرات على الابن والروح القدس وكذلك على المخلوقات لا يدل على أنها وردت بنفس المفهوم. فاسم الابن يُستخدم كلقب أساسي للابن، ويُستخدم نفس الاسم مجازاً للبشر لكن استحالة أن تتساوى البنوة بحسب الطبيعة مع التبني بحسب النعمة الخاص بالبشر. وهكذا أيضاً تعبير "منه" الخاص بالروح القدس والتي تُقال للمخلوقات لا يُنزِل سمو إلوهية الروح إلى وضاعة المخلوقات بل تعبير "منه" يظل ملمحاً أساسياً للروح ، لأنه يأتي من جوهر الآب[1]. والمخلوقات أتت إلى الوجود من الله بالطبع بواسطة الابن (أنظر الكنوز ٣٣). ويستشهد القديس كيرلس بما قاله الرسول بولس في (١ كو ٢: ١٠): "لأن الروح يفحص كل شيء حتى أعماق الله"، إذ يقول، مثلما روح الإنسان تعرف وتفحص أعماق قلب الإنسان، هكذا أيضاً الروح القدس يفحص أعماق الله الآب. إذن الروح ينتمي إلى الطبيعة الإلهية مثلما تنتمي روح الإنسان إلى الطبيعة الإنسانية (الكنوز ٣٣). أيضاً يدعو بولس الرسول الروح، روح الله وروح المسيح في (رو ٨: ٩ . ١٠) وهذا يدل على أن الروح ليس بغريب عن طبيعة **الكلمة**.

١- للمزيد أنظر

N.CHARLIER, "la doctrine sur le Saint – Esprit dons le thesaurus de saint Cyrille d' Alexandrie", studia Patristica 2 (1957), PP. 187-193.



يستشهد أيضاً القديس كيرلس بما جاء في (لو ١١: ٢٠): "ولكن إن كنت بأصبع الله أخرج الشياطين فقد أقبل عليكم ملكوت الله"، موضحاً أن الأصبع هنا يُدعى الروح القدس الذي نبت من الجوهر الإلهي، وتدلى منه بطريقة طبيعية، مثل الأصبع من يد الإنسان. ويُذكرنا القديس كيرلس بأن الكتب المقدسة تدعو الابن ذراع ويد الله اليمني، وفق ما جاء في (مز ٩٨: ١): "خلصته يمينه وذراع قدسه". إذن الروح مثل الذراع هو متجانس مع كل الجسد مثل الذراع وهو يتمم كل ما يقرره العقل، كما أن المسحة تتم بواسطة الأصبع. إذن **كلمة** الله يخرج من الآب بحسب الطبيعة والروح ينبثق من الآب في الابن ويقدس ماسحاً الكل.

بالتالي الروح ليس غريباً عن الطبيعة الإلهية، بل يأتي منها ويوجد فيها بحسب الطبيعة (الكنوز ٣٤). ويستغل الهراطقة قول المخلص عن الروح: "لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية" (يو ١٦: ١٣)، مدَّعين أن الروح هو ناقص وليس كاملاً، لأنه . بحسب زعمهم . لو أن للروح المقدرة في ذاته أن يكون كاملاً، سوف يتحدث أيضاً من ذاته بدون أن يحتاج أن يذكِّره آخر بالأقوال (الكنوز ٣٤). ويتعجب القديس كيرلس من طياشة وغباء الهراطقة، إذ كان من الواجب عليهم أن يقرّوا بأن الروح هو ثمرة الجوهر الإلهي، وأنه يوجد فيه ويأتي منه بدون أن يتجزأ وينفصل. فالمخلص لم يقل هذه الأقوال عن الروح "لأنه يتكلم من نفسه" لكي يُظهر أنه ناقص بل لكي يُعلِّم سامعيه أنه طالما أن الروح يأتي من الجوهر الواحد فإنه لن يقول شيئاً آخراً مختلف عما يريده.

وهكذا فالروح يكون هو فكر المسيح (١كو ٢: ١٦) لا يتحدث بإرادة خاصة ولا بمشورة غريبة عن العقل الذي فيه ومنه يأتي. ويستشهد القديس كيرلس بقول بولس الرسول: "وليس أحد يقدر أن يقول يسوع رب إلاَّ بالروح القدس" (١كو ١٢: ٣) موضحاً أنه دليل على أن مَنْ صار مشاركاً للروح يعرف أن يسوع هو رب. مثل أولئك الذين يأكلون عسلاً فمن نوعيته يعرفون أن العسل حلوٌ. بالتالي الروح له نفس الجوهر والطبيعة الإلهية للآب والابن، فهو إله وليس مخلوقاً مثلما يعتقد الهراطقة (الكنوز ٣٤).



يدعي الهراطقة أيضاً أن الروح القدس مثل زيت المسحة مستغلين قولنا بأن نفوس القديسين مُسِحت من الله بواسطة الروح القدس، وبالتالي بحسب زعمهم يكون الروح القدس هو زيت المسحة. ويرد عليهم القديس كيرلس موضحاً لهم أنه ينبغي عليهم الابتعاد عن المفاهيم الجسدية وإدراك الأمور الإلهية بطريقة تتناسب مع الله حتى لو قُدِّمت بأقوال بشرية. ويعرض لهم خطورة اعتبار الروح مثل زيت المسحة، فهذا الزيت يتكون من جواهر كثيرة أثناء تكوينه وبالتالي الروح سوف يتكون من أجزاء كثيرة متنوعة، والروح القدس سوف يكون . بحسب زعمهم . غير عاقل لأن الزيت هو مادة غير عاقلة. ويتوقف القديس كيرلس عن سرد الاستنتاجات العبثية والخطيرة الآتية من رأيهم الخاطئ ويتساءل بمنطقية ليستد فم المعاندين، إذ يقول: لو أن الروح القدس هو من جوهر آخر يختلف عن ذلك الذي بواسطته يتقدس الكل، كيف عندما يسكن الروح فينا يُظهِر أن المسيح يسكن فينا، الذي ليس هو مختلف من جهة الجوهر عن الآب؟ هذا ما أعلنه بولس الرسول: ”لكي يعطيكم بحسب غنى مجده أن تتأيدوا بالقوة بروحه في الإنسان الباطن ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم“ (أف ٣: ١٦ . ١٧). إذن، طالما بالروح يسكن المسيح في الإنسان الداخلي، فمن الواضح من كل جانب أنه ليس غريباً عن جوهر المسيح ذاته“ (الكنوز ٣٤).

أيضاً يتطاول الهراطقة قائلين، إن الروح هو مقدِّسٌ ليس لأنه قدوس في حد ذاته بحسب الطبيعة لكن مثل إناء من حديد أو أي مادة مشارك لحرارة النار يفعل ما تفعله أيضاً النار، هكذا هو مملوء من قداسة الله، ينقل القداسة إلى الخليقة. ويدعِّمون رأيهم زيفاً بما قاله المخلص ”يأخذ مما لي“ (يو ١٦: ١٤). يرد القديس كيرلس على هذا الرأي الخاطئ مشخصاً بدقة مشكلتهم، بأنهم يستخدمون الكتاب المقدس لتدعيم آرائهم الخاطئة. فالمسيح يعد تلاميذه . بعد أن حقق هدف تأنسه وقبل أن يصعد إلى الآب . بأنه سيرسل المعزِّي وأنه سوف يقول نفس أقواله وحتى لا يظن أحد أن الروح القدس سوف يُعلّم تعاليم غريبة عن تعاليمه قال لهم: ”لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به لأنه يأخذ مما لي ويخبركم“ (أنظر الكنوز ٣٤). ولا يتوانى القديس كيرلس على تقديم شواهد كثيرة من الكتاب المقدس لإثبات إلوهية الروح في المقالة الرابعة والثلاثون.



عرض الشواهد التي يمكن للباحث المدقق أن يرى فيها أن الروح هو الله، كما سردها القديس كيرلس في المقالة الرابعة والثلاثين من كتاب الكنوز

١ـ شاهد

يكتب بولس لتيموثاؤس: "اِحفَظِ الْوَدِيعَةَ الصَّالِحَةَ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ السَّاكِنِ فِينَا" (٢ تيمو ١: ١٤)، ولأهل رومية: "لأَنِّي لاَ أَجْسُرُ أَنْ أَتَكَلَّمَ عَنْ شَيْءٍ مِمَّا لَمْ يَفْعَلْهُ الْمَسِيحُ بِوَاسِطَتِي لأَجْلِ إِطَاعَةِ الأُمَمِ، بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، بِقُوَّةِ آيَاتٍ وَعَجَائِبَ، بِقُوَّةِ رُوحِ اللهِ" (رو١٥: ١٨ . ١٩). وأيضاً: "فَأَطْلُبُ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ، بِرَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، وَبِمَحَبَّةِ الرُّوحِ، أَنْ تُجَاهِدُوا مَعِي فِي الصَّلَوَاتِ مِنْ أَجْلِي إِلَى اللهِ" (رو ١٥: ٣٠). ولأهل كورنثوس: "أَمْ لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ جَسَدَكُمْ هُوَ هَيْكَلٌ لِلرُّوحِ الْقُدُسِ الَّذِي فِيكُمُ، الَّذِي لَكُمْ مِنَ اللهِ، وَأَنَّكُمْ لَسْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ؟" (١كو ٦: ١٩). وأيضاً: "وَأَمَّا مَنِ الْتَصَقَ بِالرَّبِّ فَهُوَ رُوحٌ وَاحِدٌ" (١ كو ٦: ١٧).

ها هو يُسمي الروح ربَّاً. جاعلاً هذا الأمر أكثر وضوحاً حين كتب أيضاً لليهود: "بَلْ أُغْلِظَتْ أَذْهَانُهُمْ، لأَنَّهُ حَتَّى الْيَوْمِ ذلِكَ الْبُرْقُعُ نَفْسُهُ عِنْدَ قِرَاءَةِ الْعَهْدِ الْعَتِيقِ بَاق غَيْرُ مُنْكَشِفٍ، الَّذِي يُبْطَلُ فِي الْمَسِيحِ. لكِنْ حَتَّى الْيَوْمِ، حِينَ يُقْرَأُ مُوسَى، الْبُرْقُعُ مَوْضُوعٌ عَلَى قَلْبِهِمْ. وَلكِنْ عِنْدَمَا يَرْجِعُ إِلَى الرَّبِّ يُرْفَعُ الْبُرْقُعُ. وَأَمَّا الرَّبُّ فَهُوَ الرُّوحُ، وَحَيْثُ رُوحُ الرَّبِّ هُنَاكَ حُرِّيَّةٌ" (٢ كو ٣: ١٤ ـ ١٧).

وأيضاً: "وَنَحْنُ جَمِيعاً نَاظِرِينَ مَجْدَ الرَّبِّ بِوَجْهٍ مَكْشُوفٍ، كَمَا فِي مِرْآةٍ، نَتَغَيَّرُ إِلَى تِلْكَ الصُّورَةِ عَيْنِهَا، مِنْ مَجْدٍ إِلَى مَجْدٍ، كَمَا مِنَ الرَّبِّ الرُّوحِ" (٢ كو ٣: ١٨). إذن عندما يكون الرب يسوع المسيح واحداً، وفق أقوال بولس، والروح يُسمي ربٌّ، إذن فهو لا يعرف اختلافاً بين الابن والروح، لكن يُسميه باسم الربوبية؛ لأنه من الجوهر الواحد نفسه، ويُوجد فيه بحسب الطبيعة.

٢ـ شاهدٌ آخر

أيضاً يكتب: "لأَنَّهُ مَنْ عَرَفَ فِكْرَ الرَّبِّ فَيُعَلِّمَهُ؟ وَأَمَّا نَحْنُ فَلَنَا فِكْرُ الْمَسِيحِ" (١ كو ٢: ١٦)، قاصداً أن الروح يسكن فينا. إذن عندما يدعوه الرسول بولس



فكر المسيح، كيف يمكن أن يكون من ضمن المخلوقات، ذاك الذي له طبيعة الابن الإلهية وغير الفاسدة؟

٣- شاهدٌ آخر

مكتوبٌ، أو بالحري يقول يوحنا الإنجيلي الطوباوي: "بِهذَا نَعْرِفُ أَنَّنَا نَثْبُتُ فِيهِ وَهُوَ فِينَا: أَنَّهُ قَدْ أَعْطَانَا مِنْ رُوحِهِ" (١يو ٤: ١٣).

إذن، فإذا كان الله هو الذي سكن فينا بشركة الروح، ونحن موجودون فيه، وهو فينا؛ لأننا نحمل الروح، فكيف لا يكون الروح هو الله، إذا كان لديه في داخله كل خصائص الله الآب، الذي هو روح، ويُمنح[١] إلى الخليقة بواسطة الابن؟

٤- شاهدٌ آخر

يقول المسيح وهو يتحدث إلى اليهود: "وَلكِنْ إِنْ كُنْتُ بِأَصْبعِ اللهِ أُخْرِجُ الشَّيَاطِينَ، فَقَدْ أَقْبَلَ عَلَيْكُمْ مَلَكُوتُ اللهِ" (يو ١١: ٢٠).

الأصبع هنا يُدعى الروح القدس الذي قد نبتَ من الجوهر الإلهي[٢]، وتدلَّى منه بحسب الطبيعة، مثلما يتدلَّى أيضاً الأصبع من يد الإنسان. لأن الكتب المقدسة

١- أي يُرسل أو يُعطى ونلاحظ هنا أن فعل "ينبثق" تعبر عن العلاقة الأزلية بين الروح القدس والآب، أما الإرسالية أو المنح والعطاء يتم بالابن في الزمن فالآب يمنح الروح بواسطة الابن.

٢- تعبير معادل لتعبير القديس كيرلس وكذلك القديس أثناسيوس عن الابن بأنه "ثمرة جوهر الآب". والقديس كيرلس في حديثة عن المعجزات التي أيَّد بها الله موسى أمام الشعب، يشرح بوضوح أن الابن هو نبت من الآب، إذ يقول: "لقد خاف موسى من أن يُعطي انطباعاً للإسرائيليين بأنه كاذب وساحر حين يقول إن إله الكل قد ظهر لي وأمرني أن أقول أنه يجب أن ترحلوا بسبب اضطهاد المصريين. لأجل هذا أمره أن يصنع معجزات وأن يفعل أموراً هي مستحيلة أن تصنعها الطبيعة البشرية، محولاً الله العصا إلى حيَّة، لكي يفهم أنه ناقل للوصايا السماوية مِن الله. لأن المعجزة الحقيقية والتي آمنا بها كلنا هي مجيء **الكلمة** إلينا والذي أعلِن بالعصا التي سقطت على الأرض. لكن كيف وبأي طريقة، سأحاول أيضاً أن أشرح هذا الأمر على قدر المستطاع. بالعصا يقدم الكتاب المقدس **الكلمة** الذي نبت من الله، فالكل يعتمد عليه (على الكلمة). لأنه يقول: "بِكَلِمَةِ الرَّبِّ صُنِعَتِ السَّمَاوَاتُ، وَبِنَسَمَةِ فِيهِ كُلُّ جُنُودِهَا" (مز ٣٣:٦)، "لأَنَّ سَوَاعِدَ الأَشْرَارِ تَنْكَسِرُ، وَعَاضِدُ الصِّدِّيقِينَ الرَّبُّ" (مز ٣٧:١٧). لقد أتينا إلى الآب بواسطة الابن وهذا هو حقيقي وأعلنه هو ذاته، قائلاً: "وَلكِنْ هكَذَا يَقُولُ السَّيِّدُ رَبُّ الْجُنُودِ: "لاَ تَخَفْ مِنْ أَشُّورَ يَا شَعْبِي السَّاكِنُ فِي صِهْيَوْنَ. يَضْرِبُكَ بِالْقَضِيبِ، وَيَرْفَعُ عَصَاهُ عَلَيْكَ عَلَى أُسْلُوبِ مِصْرَ" (إش ١٠:٢٤). العصا بمفهوم آخر هي رمز للسلطة الملوكية، وأيضاً إله الكل الآب يملك بواسطة الابن. هذا يعني بوضوح أن عصا هارون التي نبتت في قدس الأقداس تشير إليه. أيضاً هذا يعني أنه العصا التي من جذر يسى التي تسندنا جميعنا روحياً، والتي تسند جيداً هؤلاء الذين قد آمنوا، وفق بما يسبح في المزامير تجاه الآب إله الكل: "أيْضاً إِذَا سِرْتُ فِي وَادِي ظِلِّ الْمَوْتِ لاَ أَخَافُ شَرًّا، لأَنَّكَ أَنْتَ مَعِي. عَصَاكَ وَعُكَّازُكَ هُمَا يُعَزِّيَانِنِي" (مز ٢٣:٤). إذن العصا هي الابن". جيلافيرا، ترجمة د. جورج عوض إبراهيم، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، الكتاب الشهري عدد يونية ٢٠١٠.



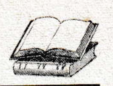
تدعو الابن ذراع ويد الله اليمنى[1]، وفق: (مز ٩٨: ١)، أيضاً: "إِنْ سَلَكْت فِي وَسَط الضِّيق تُحْيِني. عَلَى غَضَب أَعْدَائي تَمُدّ يَدَكَ، وَتُخَلِّصني يمينك. الرَّبّ يُحامي عَنّي. يَا رَبّ، رَحْمَتكَ إِلَى الأَبَد. عَنْ أَعْمَال يَدَيْكَ لاَ تَتَخَلَّ" (مز ١٣٨: ٧ - ٨).

إذن، فإذا كان الذراع متجانساً مع كل الجسد، يتمم كل ما يقرره العقل، ويعمل المسحة مستخدماً الأصبع عادةً، هكذا نعتبر أن **كلمة** الله قد خرج منه بحسب الطبيعة منسجماً ومزروعاً فيه، بينما الروح منبثقٌ بحسب الطبيعة من الآب في الابن، يقدّس ماسحاً الكل. بالتالي، لا يبدو الروح القدس من طبيعة غريبة عن طبيعة الله، بل يأتي منها ويوجد فيها بحسب الطبيعة. ومثلما ينتمي أصبع اليد لنفس جنس الجسد، لا يكون لليد جوهراً آخر غير هذا الجسد، فإذا كان الأمر على هذا النحو، فالروح بالتالي هو الله وليس شيئاً مختلفاً.

٥- شاهدٌ آخر

قال أيضاً مرنماً داود الطوباوي متوجهاً بأقواله إلى الله: "أَيْنَ أَذْهَب مِنْ رُوحكَ؟ وَمِنْ وَجْهكَ أَيْنَ أَهْرب؟ إِنْ صَعِدت إِلَى السَّمَاوَات فَأَنْتَ هنَاكَ، وَإِنْ فَرَشْت فِي الْهَاويَة فَهَا أَنْتَ. إِنْ أَخَذْت جَنَاحَي الصّبْح، وَسَكَنْت فِي أَقَاصي الْبَحْر، فَهنَاكَ

١- نفس التعبير نجده عند القديس إيرينيوس – كما قلنا - حيث يصف الابن والروح القدس بأنهما يدي الآب: "أما الإنسان، فقد خلقة بيديه" القديس ايرينيوس، كتاب الكرازة الرسولية، مرجع سابق، ص٧٦ وهامش٢. أيضاً القديس كيرلس أثناء حديثة عن معجزة موسى الخاصة باليد التي تصير برصاء وتشفى حين يضعها في عبه يعتبر الابن هو يد الآب، إذ يقول: "اعتاد - إذن - الكتاب المقدس أن يسمي الابن "يد". إذن، لاحظ يد موسى التي اختبئت في عِبه، ثم عندما خرجت كانت برصاء، وأيضاً عندما دخلت مرة ثانية في عبِه صارت مباشرةً سليمة من البرص. حين نفكر في سر التأنس وبأي طريقة صار ونفحص أين وكيف حدث هذا الأمر سوف نجد مثل هذا الحدث المعجزي (شفاء اليد البرصاء). بمعنى، لقد كان الابن موجوداً في حضن الله الآب وبواسطته خلق الآب كل شيء. لأنه هو القبضة العُليا واليد التي تستطيع أن تصنع كل شيء، إنه اليد العُظمى الجديرة بالإعجاب. لكن بسبب أنه خرج من مكانه، بأن صار إنساناً وأخذ ضعفاتنا، وفقاً لأقوال النبي، وُجِد مرذولاً ومحتقراً. لأن الطبيعة البشرية هي دنسة أمام الله، طبقاً لقول أشعياء النبي: "وقد صرنا كلنا كنجس وكثوب عِدة كل أعمال برنا وقد ذبلنا كورقة وآثامنا كريح تحملنا" (إش ٦٤: ٦). بالتالي كل ما يخص الطبيعة البشرية وُجِد ظاهرياً في دنس، أما كلّي الطُهر فهو يسكن في نور لا يُدنى منه. بسبب هذا ضل اليهود التُعساء ولأجل هذا سموه سامرياً ومولوداً من زانية، وأيضاً خاطئاً. لأنهم قالوا للذي كان مولوداً أعمى وشُفيَّ: (يو ٩: ٤٢) "أعط مجداً لله. نحن نعلم أن هذا الإنسان خاطئ". لكن أعتقد كيف أنهم لن يصلوا أبداً إلى هذه الدرجة من الجهل حتى يقولوا عليه هذا ويفتحون أفواههم الثرثارة ضده، لو كانوا يعرفون أنه هو الله بحسب الطبيعة. لكن هذا الذي بكونه إنساناً وُجِد في دنس ظاهري، طالما أنه تمم بحكمة خطة التدبير الإلهي بهيئة مثل هيئتنا. في النهاية عندما صعد إلى الآب وجلس في حضنه، عندئذٍ أعطى انطباعاً أنه قد وُجِد معنا في حالة الكمال والطهارة. وهكذا يُمجَّد بكونه إله، يُمجَّد من الكل بكونه رب، وقدوس القديسين وبكونه ذاك الذي يعطي النور للخليقة والحياة للبشر، ويعطي القوة لكل الكائنات لكي ينتصروا على أي شيء يمكن أن يهينهم". جيلافيرا، ترجمة د. جورج عوض إبراهيم، مراجعة د. نصحي عبد الشهيد، الكتاب الشهري عدد أغسطس ٢٠١٠.



أَيْضاً تَهْدِينِي يَدُكَ وَتُمْسِكُنِي يَمِينُكَ" (مز ١٣٩: ٧ - ١٠).

إذن عندما يدعو الروح وجه الآب؛ لأنه يمثِّلُ . بفعلٍ لائقٍ بالإله . الجوهر الذي أتى منه، يدعوه أيضاً يداً؛ لأن له في داخله قوةً لأنْ يصنع كل شيءٍ، فكيف لا يكون الروح واحداً في الجوهر مع الآب، الذي هو منه ومعه كائنٌ وموجود، مثل اليد التي لا تنفصل أبداً عن الجسد الإنساني، لكنها بالحري مرتبطة به ومزروعة ومثبّتة فيه بحسب الطبيعة؟

٦- شاهدٌ آخر

ونحن نعرف أن الروح هو الله من الآتي: قِمة الرسل . كما يقول المخلص، لم يعلن له إنسانٌ السر الإلهي، بل الآب السماوي (أنظر مت ١٠: ١٧)، يقول لحنانيا، الذي قدَّم ثمن ما يملكه، بالرغم من أنه احتفظ قبلاً بجزء من الثمن: "يَاحَنَانِيَّا، لِمَاذَا مَلأَ الشَّيْطَانُ قَلْبَكَ لِتَكْذِبَ عَلَى الرُّوحِ الْقُدُسِ وَتَخْتَلِسَ مِنْ ثَمَنِ الْحَقْلِ؟ أَلَيْسَ وَهُوَ بَاقٍ كَانَ يَبْقَى لَكَ؟ وَلَمَّا بِيعَ، أَلَمْ يَكُنْ فِي سُلْطَانِكَ؟ فَمَا بَالُكَ وَضَعْتَ فِي قَلْبِكَ هذَا الأَمْرَ؟ أَنْتَ لَمْ تَكْذِبْ عَلَى النَّاسِ بَلْ عَلَى اللهِ" (أع ٥: ٣ - ٤).

إذن، بما أن ذاك الذي يكذب على الروح القدس، يكذب إلى الله، بالتالي الروح هو الله بحسب الطبيعة.

٧- شاهدٌ آخر

كتب بولس الرسول إلى أهل غلاطية، قائلاً: "يَا أَوْلاَدِي الَّذِينَ أَتَمَخَّضُ بِكُمْ أَيْضاً إِلَى أَنْ يَتَصَوَّرَ الْمَسِيحُ فِيكُمْ" (غلا ٤: ١٩).

إذا كان المسيح يتصوَّر داخلنا بفعل الروح القدس، الذي يُعيد خلقتنا وتكويننا بكل فضيلة، لدرجة أننا نُشبهُهُ ويجعلنا روحانيون، إذن، فروح المسيح هو الله، الذي يتشكل داخلنا بكونه الله ذاته[١].

١- التركيز هنا على عمل الروح القدس بكونه الله، فالروح يوَّحدنا، إذ يقول القديس إيرينيؤس: "[هذا هو الروح الذي قال لوقا عنه: إنه بعد صعود الرب، نزل على التلاميذ في يوم الخمسين، وله سلطان على جميع الأمم ليُدخلهم الحياة ويفتح لهم العهد الجديد. ولذلك صاروا يسبِّحون الله بتوافق في جميع اللغات، وكان الروح يجمع في الوحدة القبائل المتخالفة، ويقدِّم للآب باكورة من جميع الأمم، وهذا هو ما وعد به الرب أن يُرسل البارقليط الذي يؤلِّفنا مع الله. فكما أنه يستحيل



٨- شاهدٌ آخر

الله يعلن الصالحات التي نشأت من مجيء مخلصنا، ويقول عن رعيته: "وَأُعْطِيكُمْ رُعَاةً حَسَبَ قَلْبِي، فَيَرْعُونَكُمْ بِالْمَعْرِفَةِ وَالْفَهْمِ" (أر ٣: ١٥). أيضاً بولس، كارز الحق، يتحدث إلى شيوخ أفسس، قائلاً: "اِحْتَرِزُوا إِذاً لأَنْفُسِكُمْ وَلِجَمِيعِ الرَّعِيَّةِ الَّتِي أَقَامَكُمُ الرُّوحُ الْقُدُسُ فِيهَا أَسَاقِفَةً، لِتَرْعَوْا كَنِيسَةَ اللهِ الَّتِي اقْتَنَاهَا بِدَمِهِ" (أع ٢٠: ٢٨).

إذن، عندما يَعِد الله أن يفعل كل هذا، يتممه الروح بطريقة جوهرية، ويُقيم أساقفة وفق الوعد الذي أعطاه للأنبياء، بالتالي فهو ليس غريباً عن الجوهر الإلهي، لكنه يفعل كل أعمال الله كفعل طبيعي وجوهري وأقنومي (شخصي)، لأنه يأتي من الجوهر الإلهي ويبقى فيه.

٩- شاهدٌ آخر

يقول المسيح عنّا لأبيه: "قَدِّسْهُمْ فِي حَقِّكَ. كَلاَمُكَ هُوَ حَق" (يو ١٧: ١٧)، ويقول الله أيضاً نفسه بواسطة حزقيال النبي: "وَيَكُونُ مَسْكَنِي فَوْقَهُمْ، وَأَكُونُ لَهُمْ إِلهاً وَيَكُونُونَ لِي شَعْباً. فَتَعْلَمُ الأُمَمُ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ مُقَدِّسُ إِسْرَائِيلَ، إِذْ يَكُونُ مَقْدِسِي فِي وَسْطِهِمْ إِلَى الأَبَدِ" (حزقيال ٣٧: ٢٧ - ٢٨).

إذن، بالرغم من أن الله يقول إنه يقدِّس هؤلاء الذين يُوجدون بالقرب منه، إلاّ أن الروح هو ذاك الذي يتمم وعده ويقدِّسهم، إذن، فالروح هو الله، وليس غريباً عن الجوهر الأسمى من الكل.

١٠- شاهدٌ آخر

يؤكد الكتاب المقدس كله أن **كلمة** الله تأنّس. والمعارضون أنفسهم يعترفون به. لكن بما أنه مكتوب عنه أنه سار منقاداً بالروح إلى البرية، وأحياناً أخرى أيضاً أنه بقوة الروح سار إلى الجليل، ليت هؤلاء الذين يَفصِلون الروح عن الجوهر الإلهي

أن يصير الدقيق الجاف عجيناً واحداً ولا خبزاً واحداً بدون ماء، هكذا نحن الكثيرين لا يمكن أن نصير واحداً في المسيح يسوع بدون ذلك الماء (الروح) السمائي!] (ضد الهرطقات ٣:١٧:٢).



ويتطاولون فيضعونه مع المخلوقات، يقولون لنا بأية طريقة ذهب الابن أو حكمة وقوة الآب بقوة الروح إلى الجليل، وكيف انتصر بواسطة الروح وواجه أيضاً الشيطان في البرية؟

هل يتطاولون فيقولون إنه كان محروماً من القوة، أو هل من الأفضل لهم أن يقولوا إنه أتى في ضعفٍ شديدٍ، لدرجة أنه وُجِد في احتياجٍ للمساعدة من الروح، الذي هو مخلوقٌ ومجبولٌ، وفق كلمات غير المؤمنين إيماناً مستقيماً؟

وكيف لمَنْ لم يزل رب القوات، أن يقبل مساعدة مخلوق؟ إن هذا لا يمكن أن يكون صحيحاً، إلاَّ إذا فَكَّر أحدٌ عبثاً. إذن، الروح هو الله، الروح الذي يوجد بطريقة طبيعية في الابن من الآب، وله كل القدرة. وقد انتصر **الكلمة** على الشيطان بواسطة الروح؛ لأنه استخدم هذه القوة، مالكاً في داخله إياه بحسب الجوهر، حيث تعارك في البرية مع الشيطان، بينما في الجليل صنع أفعالاً معجزيةً. لأن ''الكل'' يصير من الآب بواسطة الابن في الروح القُدس.

١١ـ شاهدٌ آخر

مكتوب: ''أَمَا أَمْلأُ أَنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، يَقُولُ الرَّبُّ؟'' (إر ٢٣: ٢٤). ومن الواضح أن الرب يملأ كلَّ مكانٍ حقاً بواسطة الروح. والمرنم كان يعرف هذا الأمر جيداً حين قال ''أَيْنَ أَذْهَب مِنْ روحِكَ؟ وَمِنْ وَجْهِكَ أَيْنَ أَهْرب؟ إِنْ صَعِدْتُ إِلَى السَّمَاوَات فَأَنْتَ هنَاكَ، وَإِنْ فَرَشْت فِي الْهَاوِيَة فَهَا أَنْتَ'' (مز ١٣٩: ٧ ـ ٨).

فبما أن الله يملأ كلَّ شيءٍ بواسطة الروح، وهو موجود في كل مكان، إذن فالروح هو الذي يملأ الكُلَ بكونه إلهاً.

١٢ـ شاهدٌ آخر

عندما كان بولس يكرز لأهل أثينا عن الإيمان بالإله الحقيقي، قال لهم: ''لأَنَّنَا بِهِ نَحْيَا وَنَتَحَرَّكُ وَنُوجَدُ'' (أع ١٧: ٢٨). وربنا يسوع المسيح ينسب القوة التي تصير فينا من الله للروح القدس، قائلاً: ''اَلرُّوحُ هُوَ الَّذِي يُحْيِي'' (يو ٦: ٦٣). إذن،



فالروح هو الله الذي نحيا فيه ونتحرك ونُوجد، وفق أقوال بولس وشهادة مخلصنا[1].

١٣- شاهدٌ آخر

يقول المسيح لأولئك الجديرين بأن يصيروا مشاركين أيضاً للإلوهية: ”إِنْ أَحَبَّنِي أَحَدٌ يَحْفَظْ كَلاَمِي، وَيُحِبُّهُ أَبِي، وَإِلَيْهِ نَأْتِي، وَعِنْدَهُ نَصْنَعُ مَنْزِلاً“ (يو ١٤: ٢٣).

واضحٌ إذن أنه يسكن في القديسين بواسطة الروح. فعندما يُكمِّل الروح القدس حضور الآب والابن، كيف لا يكون واضحاً، أن الروح لا ينفصل عن جوهر الله، بل هو مُرسلٌ منه بحسب الطبيعة، وله كل فعل الابن، وأن الروح هو ذاك الذي أُرسل من الآب بواسطة الابن؟ ويؤكد المخلص نفسه هذا الأمر، قائلاً: ”وَمَتَى جَاءَ الْمُعَزِّي الَّذِي سَأُرْسِلُهُ أَنَا إِلَيْكُمْ مِنَ الآبِ، رُوحُ الْحَقِّ، الَّذِي مِنْ عِنْدِ الآبِ يَنْبَثِقُ، فَهُوَ يَشْهَدُ لِي“ (يو ١٥: ٢٦). وأيضاً: ”وَأَمَّا الْمُعَزِّي، الرُّوحُ الْقُدُسُ، الَّذِي سَيُرْسِلُهُ الآبُ بِاسْمِي، فَهُوَ يُعَلِّمُكُمْ كُلَّ شَيْءٍ، وَيُذَكِّرُكُمْ بِكُلِّ مَا قُلْتُهُ لَكُمْ“ (يو ١٤: ٢٦).

١٤- شاهدٌ آخر

حين كتب الرسول لأهل كورنثوس، قال في بداية الرسالة عن ذاته: ”بُولُسُ، الْمَدْعُوُّ رَسُولاً لِيَسُوعَ الْمَسِيحِ“ (١كو ١: ١).

ها هو هنا يقول بوضوح إنه قد أخذ هذا اللقب وتلك الرسالة من يسوع المسيح. وفي أعمال الرسل نجد شيئاً مماثلاً لهذا: ”وَبَيْنَمَا هُمْ يَخْدِمُونَ الرَّبَّ وَيَصُومُونَ، قَالَ الرُّوحُ الْقُدُسُ: أَفْرِزُوا لِي بَرْنَابَا وَشَاوُلَ لِلْعَمَلِ الَّذِي دَعَوْتُهُمَا إِلَيْهِ“ (أع ١٣: ٢). فإذا كان الروح هو الذي دعاه للرسالة، ومع ذلك يقول أنه دُعي من يسوع المسيح،

١- الروح القدس هو الذي يجدِّدنا ويقدِّسنا، كما يؤكد القديس غريغوريوس اللاهوتي، قائلاً: ”[”تُرسل روحك فتُخلَق، وتجدِّد وجه الأرض“ (مز ١٠٤: ٣٠) فالروح هو الذي يخلقنا في الميلاد الجديد الروحي (يو ٣: ٥). هذا الروح... إن وجد صيادين، يصطادهم للمسيح، ويجعلهم يصطادون العالم كله في شِباك الكلمة: اذكر بطرس وأندرياس وابنَي الرعد الذين صاروا يُجاهرون بالروحيات مثل الرعد. وإن وجد عشارين يربحهم ليصيروا تلاميذ، بل ويجعلهم يتاجرون في ربح نفوس الناس، فهوذا متَّى الذي كان بالأمس عشَّاراً يصير اليوم إنجيلياً! وإن وجد أناساً يضطهدون الآخرين بغيرة شديدة، فإنه يُحوِّل غيرتهم ويجعلهم مثل بولس بدل شاول، ويعطيهم غيرة على التقوى بقدر ما كانت لهم غيرة في الشر... هذا الروح بعينه هو الذي دفعني اليوم أن أكلمكم بمجاهرة، وإن كان ذلك لا يعود بالخطر على فشكراً لله، وإن عاد عليَّ بالخطر فله الشكر أيضاً؛ في الحالة الأولى لأنه جنَّب مبغضينا من الوقوع في الخطية، وفي الحالة الثانية لأنه قدَّسنا بنوال مكافأة خدمتنا للإنجيل، بأن نصير مُكمَّلين بالدم]. عظة عن يوم الخمسين ٤١: ١٤.



عندئذٍ يبدو واضحاً أن الروح القدس ليس غريباً عن جوهر الابن، لكن يوجد فيه ويأتي منه، ويصنع به كل ما يريد، وكأنه فعل طبيعي.

١٥- ردٌ آخر

إن الروح القدس كاملٌ، ولا ينقصه شيء، لكن إن كانت هناك أحاديث عنه في الكتب المقدس، تحمل المعنى البشري، فإننا نقبل أنها قيلت تدبيرياً لأجلنا.

١٦- اعتراضٌ من جانب الهراطقة

كيف يكون معقولاً، أو كيف يمكننا أن نفهم دون صعوبةٍ شديدةٍ، ما يقولونه من أن الروح القدس يأتي من جوهر الآب، بالرغم من أنه ناقصٌ كثيراً ولا يملك شيئاً من ذاته، إلاَّ ما يكون بسبب مشاركته في ذاك؟

لأن المخلص يقول بوضوحٍ شديدٍ يقول في الأناجيل عن الروح: "لأَنَّهُ لاَ يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ، بَلْ كُلُ مَا يَسْمَعُ يَتَكَلَّمُ بِهِ، وَيُخْبِرُكُمْ بِأُمُورٍ آتِيَةٍ" (يو ١٦: ١٣). فلو كانت له المقدرة في ذاته أن يكون كاملاً، لكان قد تحدث من ذاته، دون أن يحتاج أن يذكِّره آخر بالأقوال.

١٧- الرد على هذا الاعتراض

تعتري الدهشةُ المرءَ بسهولةٍ عندما يرى طياشة وغباء المعارضين. لأن ما ينبغي عليهم أن يتعلموه هو السر الخاص بالروح القدس، وعليهم أن يدركوا أنه هو ثمرة جوهر الله[١]، وأنه يوجد فيه ويأتي منه، دون أن يتجزَّأ وينفصل، وله الطبيعة الإلهية عينها، ولكنكم بهذه الأمور نفسها تتعثرون؛ لأن "الشِّرِّيرُ تَأْخُذُهُ آثَامُهُ وَبِحِبَالِ خَطِيَّتِهِ يُمْسَكُ" (أمثال ٥: ٢٢)، كما هو مكتوب، لأنهم لا يستطيعون السير في الطريق المستقيم للتعليم.

فالمخلِّص لم يقل عن الروح: "لأَنَّهُ لاَ يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ"؛ لكي يُظهِر أنه ناقصٌ، بل لكي يُعلِّم سامعيه حسناً أن الروح طالما يأتي من الجوهر الواحد، فلن يقول شيئاً

١- الروح القدس هو ثمرة جوهر الآب مثل الابن تماماً، إلا أن الابن يُولَد مِن الآب والروح القدس ينبثق منه.



آخراً مختلفاً عن ذاك الذي يريده هو. أي طالما أنه هو فكر المسيح. وفق بولس الطوباوي. الذي يقول عن الروح "وَأَمَّا نَحْنُ فَلَنَا فِكْرُ الْمَسِيحِ" (١ كو ٢: ١٦)، فإنما يفكر ويتحدث بهذه الأقوال التي قالها هو، إذ أنه أيضاً فكر المسيح. لأجل هذا قال إنه لن يقول شيئاً من ذاته، كأنه يقول: أنا أيضاً هو ذاك الذي يتحدث، مثلما يمكن لعقل الإنسان أن يقول ذلك عن القول الذي يأتي منه. فبما أنه لا يقول شيئاً من ذاته، ولكنه يقول كل ما يسمعه، فمن الطبيعي ألاَّ يقول أحدٌ إن قول الإنسان الشفاهي ناقصٌ لأنه يتشكل أولاً في عقلة. لأن الوحدة الطبيعية بين العقل والقول، تنقل مباشرةً ما للعقل إلى القول.

نفس الوضع يجب أن نعلمه أيضاً بالنسبة للروح القدس. فكل ما يوجد حقاً في فكر المسيح، يقوله للتلاميذ، دون أن يتحدث بإرادةٍ خاصةٍ، ولا بمشورةٍ غريبةٍ عن تلك التي للعقل الذي فيه ومنه يأتي، لكنه يأتي بطريقة طبيعية منه، وله كل الإرادة، مثلما له فعله أيضاً.

١٨ـ الروح القدس هو من جوهر الله الآب والابن

حين سرد لنا موسي الطوباوي قصة خلق الإنسان ومجيئه إلى الوجود، يقول إن الله أخذ من الأرض طيناً وصنع بقوته شكل الجسد الذي يظهر، ونفخ في وجهه نسمة حياة، هكذا صار الإنسان نفساً حيةً (أنظر تك ٢: ٧). إذن، فالنفخة الإلهية التي صارت للإنسان، لا يمكننا أن نقول عنها إنها هي النفسُ ذاتها (لأنها عندئذ تكون غير متغيرة، طالما أتت من طبيعة غير متغيرة)، بل هي الاتحاد بالروح القدس، الذي مُنِحَ من البداية لنفس الإنسان. لأن أيَ كمالٍ أُعطي للمخلوقات، قد أُعطي بالروح. ولذلك، هذا الوجود الحي الذي تم صنعه، صار بحسب "صورة الله"؛ لأنه خُلِقَ على قياس ذاك بالاتحاد بالروح القدس.

وهذه النفخة التي يقول عنها موسي الطوباوي إنها صارت من الله إلى الإنسان، هي ذاتها التي جدَّدها المسيح لنا بعد قيامته من الأموات، عندما نفخ في تلاميذه، قائلاً: "خُذُوا الرُّوحَ الْقُدُسَ" (يو ٢٠: ٢٢)، وهكذا أخذنا ثانيةً الصورةَ الأولي،

لنتشبَّه بذاك الجَمَال الذي خُلِقنا عليه، بمشاركة الروح.

فطالما أن الروح القدس يأتي داخلنا ويجعلنا شبيهين بالله[1]، ويأتي من الآب بالابن، يكون من الواضح أنه من الجوهر الإلهي، طالما هو من جهة الجوهر كائنٌ فيه ويأتي منه. وذلك مثل النفخة التي تخرج من فم البشر بالضبط، بالرغم من أن المثال صغيرٌ، ولا يستحق الحديث؛ لأن الله يتفوق على كل شيءٍ.

١٩- ردٌ آخر

عندما وضع بولس القوانين المفيدة للكنائس، أعطانا وصيةً مؤداها كيف ينبغي أن نحيا في الكنائس، وكيف ينبغي أن نظهر أمام إله الكل، إذ يقول: "فَإِنَّ الرَّجُلَ لاَ يَنْبَغِي أَنْ يُغَطِّيَ رَأْسَهُ لِكَوْنِهِ صُورَةَ اللهِ وَمَجْدَهُ. وَأَمَّا الْمَرْأَةُ فَهِيَ (صورة) مَجْدُ الرَّجُلِ" (١ كو ١١: ٧)، ثم أكَّد بعد ذلك على أن المرأة هي مجد الرجل. لذا كان من الضروري أن نفحص بأية طريقة يكون الاثنان هكذا. وليتنا نأخذ أولاً هذا الذي قيل عن الرجل، وليتنا نفحص كيف يكون أيضاً مجد الله. أعتقد أنه من الواضح للكل، أن الرجل سُمِّي هكذا؛ لأنه يشارك روح الله، وبواسطته صار شريكاً للطبيعة الإلهية (أنظر عب ٦: ٤)، وبسبب هذا يمتلئ أيضاً من مجد الله.

إذن، فبسبب أن لديه الروح الذي يأتي من جوهر الله، ولأنه بشركته معه أصبح مخلوقاً مشابهاً لذاك الذي خلقه، دُعي هكذا صورة ومجد الله[2].

١- هنا الحديث عن عمل الروح ذاته فينا، العمل الذي يشهد على إلوهيته، إذ يقول القديس باسيليوس الكبير: "[من الروح القدس قد نلنا الميلاد الجديد (يو ٣:٥)، وبالميلاد الجديد نلنا الخليقة الجديدة، وبالخليقة الجديدة نلنا معرفة فائقة لسمو الذي خلقنا من جديد ... الروح القدس هو الروح الخالق (مز ١٠٤: ٣٠)، بل هو الذي يجدِّد الخلقة بالمعمودية وبالقيامة. هو الروح الذي يعرف كل شيء، (١كو ٢: ١٠)، وهو الذي يعلِّمنا كل شيء (يو ١٤: ٢٦). هو الذي يهبُّ حيث يشاء (يو ٣: ٨)، وهو الذي يُرشدنا (إلى جميع الحق) (يو ١٦: ١٣). هو "روح الإعلان" (أف ١: ١٧)، وهو الذي ينير (أف ١: ١٨)، ويُحيي (يو ٦: ٦٣)، بل وهو بذاته النور والحياة. هو الذي يجعلنا هياكل لله (١كو ٣: ١٦)، بل ويؤلِّهنا أيضاً. هو الذي يسبق ويؤهِّل للمعمودية (أع ١١: ١٧)، وهو الذي من بعد المعمودية نطلبه بإلحاح (لو ١١: ١٣). هو الذي يصنع كل هذه بكونه هو الله، والذي ينقسم كألسنة من نار (أع ٢: ٣)، ويوزِّع المواهب (١كو ١٢: ١١)]. عظة عن الروح القدس ٣١: ٢٨و٢٩.

٢- الجدير بالذكر أن القديس غريغوريوس النيصي يعتبر أن الروح القدس هو المجد الذي أعطاه الرب للتلاميذ، إذ يقول: [يقول الرب في الإنجيل موجِّهاً الكلام للآب: "ليكون الجميع واحداً، كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك، ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا" ... "وأنا قد أعطيتُهم المجد الذي أعطيتني" (يو ١٧: ٢١و٢٢) وأعتقد أن ما يقصده بهذا المجد هو الروح القدس الذي أعطاه لتلاميذه بالنفخ في وجوههم، لأنه لم يكن ممكناً لهؤلاء المتفرقين بعضهم عن بعض أن يصيروا واحداً، إلاَّ بتوافقهم بوحدانية الروح القدس ... فالروح هو المجد، كما يقول أيضاً للآب: "مجِّدني بالمجد الذي كان لي منذ البدء عندك قبل كون العالم" ... هذا المجد هو الروح القدس، لأنه لم يكن شيء منذ الأزل سوى الآب والابن والروح القدس. ولذلك يقول بنفس المعنى: "المجد الذي أعطيتني قد أعطيتُهم" لكي بواسطته يصيروا واحداً معي، وبواسطتي يصيروا واحداً معك]. في شرح: "حينئذ الابن نفسه سيخضع..." (١ كو ١٥: ٢٨).



ولأن المرأة أيضاً دُعيت هكذا، دعنا نرى أهمية هذا الوصف. بولس يقول إنها هي مجد الرجل؛ لأنها صارت من جوهر ذاك. لأنه يقول: ''فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الإِلهُ سُبَاتاً عَلَى آدَمَ فَنَامَ، فَأَخَذَ وَاحِدَةً مِنْ أَضْلاَعِهِ وَمَلأَ مَكَانَهَا لَحْماً. وَبَنَى الرَّبُّ الإِلهُ الضِّلْعَ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ آدَمَ امْرَأَةً وَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ'' (تك ٢: ٢١ - ٢٢).

إذن، فمثلما دُعيت المرأة مجد الرجل؛ لأن الله أخذ جزءً من أعضائه لكي يخلقها، هكذا أيضاً دُعي الرجل مجد الله؛ لأنه صار مشاركاً لجوهره بواسطة الروح القدس الذي يسكن داخله (٢ بط ١: ٤). فإذا كانت الأمور على هذا النحو، من الضروري أن نقول إن الروح ليس مخلوقاً أو مجبولاً، لكنه يأتي من جوهر الله، وهو الله الذي يُكرَّم مع الآب والابن، في الطبيعة الإلهية الواحدة.

٢٠- ردٌ آخر

دنا شخصٌ. كما قيل في الأناجيل. وقال لربنا يسوع المسيح: ''أَيُّهَا الْمُعَلِّمُ الصَّالِحُ''، والمسيح أجابه: ''لِمَاذَا تَدْعُونِي صَالِحاً؟ لَيْسَ أَحَدٌ صَالِحاً إِلاَّ وَاحِدٌ وَهُوَ اللهُ'' (متى ١٩: ١٦ - ١٧).

وبينما المسيح يقول إن واحداً هو الصالح الحقيقي بحسب الجوهر، يقول المرنم: ''روحكَ الصَّالح يَهْديني في أَرْضٍ مسْتَوِيَةٍ'' (مز ١٤٣: ١٠). فإذا كان الصالح واحداً، وكان الروحُ صالحاً، فمن الواضح أنه يأتي من الطبيعة الإلهية، التي يوجد فيها الصلاح بطريقة فريدة وسيادية ومؤكدة.

٢١- ردٌ آخر

يكتب بولس للبعض قائلاً: ''لِذلِكَ أُعَرِّفُكُمْ أَنْ لَيْسَ أَحَدٌ وَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِرُوحِ اللهِ يَقُولُ: ''يَسُوعُ أَنَاثِيمَا''. وَلَيْسَ أَحَدٌ يَقْدِرُ أَنْ يَقُولَ: ''يَسُوعُ رَبٌّ'' إِلاَّ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ'' (١كو ١٢: ٣). من الواضح إذاً أن المشارك للروح القدس، يعرف أن يسوع هو الرب، وذاك الذي لم يشارك لا يعرف، لكن كيف يعرف هذا الذي أخذ الروح أن يسوعَ ربٌ؟ كما يدرك الذين يأكلون عسلاً، إن العسل حلوٌ بحسب طبيعته، هكذا أيضاً مَن صار مشاركاً للروح. وبما أن الروح له نفس جوهر الابن،



بالتالي له ذات طبيعة لله الذي هو رب الكل. فإذا كان الأمر على هذا النحو، عندئذٍ يكون هو الله وليس مخلوقاً أو مصنوعاً، مثلما يعتقد الهراطقة.

٢٢- شاهدٌ آخر

ينسب بولس الطوباوي لفعل الروح القدس المواهب الإلهية المتمايزة[١]، وأيضاً يكتب: "فَإِنَّهُ لِوَاحِدٍ يُعْطَى بِالرُّوحِ كَلاَمُ حِكْمَةٍ، وَلآخَرَ كَلاَمُ عِلْمٍ بِحَسَبِ الرُّوحِ الْوَاحِدِ، وَلآخَرَ إِيمَانٌ بِالرُّوحِ الْوَاحِدِ، وَلآخَرَ مَوَاهِبُ شِفَاءٍ بِالرُّوحِ الْوَاحِدِ. وَلآخَرَ عَمَلُ قُوَّاتٍ، وَلآخَرَ نُبُوَّةٌ، وَلآخَرَ تَمْيِيزُ الأَرْوَاحِ، وَلآخَرَ أَنْوَاعُ أَلْسِنَةٍ، وَلآخَرَ تَرْجَمَةُ أَلْسِنَةٍ. وَلكِنَّ هذِهِ كُلَّهَا يَعْمَلُهَا الرُّوحُ الْوَاحِدُ بِعَيْنِهِ، قَاسِماً لِكُلِّ وَاحِدٍ بِمُفْرَدِهِ، كَمَا يَشَاءُ" (١ كو ١٢: ٨- ١١).

أيضاً وهو يعرف أن الروح هو الله، يقول بولس في نفس الرسالة: "فَوَضَعَ اللهُ أُنَاساً فِي الْكَنِيسَةِ: أَوَّلاً رُسُلاً، ثَانِياً أَنْبِيَاءَ، ثَالِثاً مُعَلِّمِينَ، ثُمَّ قُوَّاتٍ، وَبَعْدَ ذلِكَ مَوَاهِبَ شِفَاءٍ، أَعْوَاناً، تَدَابِيرَ، وَأَنْوَاعَ أَلْسِنَةٍ" (١ كو ١٢: ٢٨). لماذا إذن يشكُّ أولئك المتأهبون فقط للتجديف في أن الروحَ له ذات جوهر الله، طالما أن بولس قال بوضوح شديد. إن الروحَ هو ذاك الذي يقسّم أنواع المواهب الإلهية كما يشاء، كما قال أيضاً إن الله هو الذي يمنح[٢] تلك المواهب لمن يستحقونها في الكنائس؟ وكيف

١- الحديث هنا عن تنوع مواهب الروح القدس وبالرغم من أن الروح هو واحد بطبعة وغير منقسم، إلا أنه يقسم النعمة على كل واحد كما يشاء، وهذا ما أكده القديس كيرلس الأورشليمي، قائلاً: "[لماذا يدعو الرب نعمة الروح القدس ماءً؟ (يو ٤: ١٤، ٧: ٣٨ و٣٩) ذلك لأن قوام كل شيء يكون بالماء، ولأن الماء ينشئ الخضرة ويُحيي الكائنات الحية، ولأن ماء المطر ينـزل من السماء، ولأن الماء ينـزل واحداً في شكله ولكنه يتنوّع في مفعوله، فإن ينبوعاً واحداً يسقي الفردوس كله (تك ٢: ١٠)، والمطر الواحد بعينه ينـزل على العالم كله، فيصير أبيضَ في السوسنة وأحمرَ في الوردة، وأرجوانياً في الزنبقة والبنفسج، ويتنوّع ويتشكل بصور متعدّدة، فهو في النخلة غير ما يكون في الكرمة، وهو يصير في الكل كل شيء، مع بقائه واحداً في طبعه، دون أن يختلف بعضه عن بعضه. فإن المطر لا يغيِّر ذاته وينـزل بصور مختلفة عن بعضها، ولكنه يتكيَّف مع طبيعة الكائنات التي تقبله، فيصير لكل واحدة منها بما يناسب تكوينها. وهكذا الروح القدس أيضاً وهو واحد بطبعه وغير منقسم، لكنه يقسِّم النعمة على كل واحد كما يشاء (١كو ١٢: ١١)]. عظة للمعمدين الجدد ١٦: ١٢.

٢- يشرح القديس كيرلس الكبير، في سياق الحديث عن بلبلة الألسن ،عمل الروح القدس فينا بكونه إلهاً، قائلاً: "لكن في المسيح كان تعدد الألسنة هو علامة جيدة. لأن التلاميذ عندما كانوا مجتمعين في يوم الخمسين "صار بغتة من السماء صوت كما من هبوب ريح عاصفة وملأ كل البيت حيث كانوا جالسين. وظهرت لهم ألسنة منقسمة كأنها من نار واستقرت على كل واحد منهم. وامتلأ الجميع من الروح القدس وابتدأو يتكلمون بألسنة أخرى كما أعطاهم الروح أن ينطقوا" (أع ٢:٢ - ٤). إذاً ما الذي تقوله هذه الكلمات؟ إن الروح القدس منح لنا المسيرة نحو العلو وتحقق الصعود إلى السموات بالإيمان بالمسيح، ويجب أن تتحد كل لغات المسكونة أي الشعوب أو الأمم بمعونة الروح. لأن كل لسان للبشر قبلَ المسيح أصبح يكرز بأسراره. إذاً في حالة تعطيل بناء البرج وتشتت الناس في كل الأمم كان تعدد الألسنة رسالة مسبقة تقول بأنه عند



لا يكون سخفاً وأمراً غير معقول، أن يعطي أولئك الذين يريدون أن يؤمنوا إيماناً صحيحاً اهتماماً للأفكار غير المتبصرة للآخرين، ولا يعطون هذا الاهتمام لأقوال بولس؟ الروح إذن هو الله، حتى لو لم يُرِد الجهلاء.

٢٣- شاهدٌ آخر

عندما كان بولس يشرِّع للنساء، قال: "الْمَرْأَةُ مُرْتَبِطَةٌ بِالنَّامُوسِ مَا دَامَ رَجُلُهَا حَياً. وَلكِنْ إِنْ مَاتَ رَجُلُهَا، فَهِيَ حُرَّةٌ لِكَيْ تَتَزَوَّجَ بِمَنْ تُرِيدُ، فِي الرَّبِّ فَقَطْ. وَلكِنَّهَا أَكْثَرُ غِبْطَةً إِنْ لَبِثَتْ هكَذَا، بِحَسَبِ رَأْيِي. وَأَظُنُّ أَنِّي أَنَا أَيْضاً عِنْدِي رُوحُ اللهِ" (١ كو ٧: ٣٩ . ٤٠).

إذاً ما هي النتيجة التي نخرج بها من هذه الأقوال؟ إذا كان التشريع عملاً يتناسب مع الله، وكان بولس قد قام به؛ لأن فيه روح الله، بالتالي الروح الذي هو فيه الذي جعله يُشرِّع هو الله.

٢٤- شاهدٌ آخر

يكتب أيضاً بولس للبعض: "إِنْ كُنَّا نَحْنُ قَدْ زَرَعْنَا لَكُمُ الرُّوحِيَّاتِ، أَفَعَظِيمٌ إِنْ حَصَدْنَا مِنْكُمُ الْجَسَدِيَّاتِ؟" (١ كو ٩: ١١). من الواضح أنه يقول إن الروحيات إلهية، كما أن الجسديات هي جسدية. إذن، فبما أن كلامه يختص بالإلهيات، أي أسرار الله، فحسناً أن دعاها روحيات.

٢٥- شاهدٌ آخر

يقول المخلص عن ذاته في الأناجيل: "أَنَا هُوَ الْحَقُّ" (يو ١٤: ٦). أيضاً يوحنا الطوباوي يُظهِر في إنجيله أن الروح يأتي من جوهر الآب، إذ يقول: "رُوحُ الْحَقِّ، الَّذِي مِنْ عِنْدِ الآبِ يَنْبَثِقُ" (يو ١٥: ٢٦)، بينما في واحدة من رسائله، يقول:

مجيء المسيح كانت هذه أداة للوحدة بمعونة الروح القدس وللصعود إلى فوق. لأن المسيح صار لنا "برج قوة" حسب كلمات المزمور (انظر مز٦١:٣) الذي يحملنا إلى المدينة السمائية ويوّحد البشر بطغمات الملائكة". جيلافيرا، ترجمة د. جورج عوض إبراهيم، ومراجعة د. نصحي عبد الشهيد، الكتاب الشهري عدد أغسطس ٢٠٠٤.



"الرُّوحَ هُوَ الْحَقُّ" (١ يو ٥: ٦). إذن كيف يمكن للروح الذي ينبثق من الآب، والذي هو روح الحق، ومثل الابن تماماً بسبب تطابق جوهرهما، حتى أنه يُدعي أيضاً الحق، أن يكون مخلوقاً ومجبولاً؟ لا شك أن هذا محضُ عبثٍ. وعلى ذلك، الروح هو الله، طالما أنه بالفعل هو الحق، وينبثق من الآب.

٢٦ـ شاهدٌ آخر

يقول يوحنا الطوباوي متحدثاً عن **كلمة** الله، إنه النور الحقيقي الذي يُنير لكل إنسان يأتي إلى العالم (أنظر يو ١: ٩). كما أن بولس الحكيم قال إن الروح القدس يُشرِق في قلوبنا ويُنيرنا لكي نعرف مجد الله في وجه المسيح (أنظر ٢ كو ٤: ٦). فبما أن **الكلمةَ** هو نورٌ حقيقي، والروح القدس أيضاً يُشرِق، إذن يتحتم علينا أن نوافق على أن الروح له ذات جوهر الكلمة، وهو يُشرق مع **الكلمة** الذي بواسطته يُنير كل إنسان بنور الروح كأنه شعاعُ طبيعته.



خاتمة : كيف أقرأ الكتاب المقدس آبائياً ؟

إن تقليد التفسير الآبائي . كما يقول كريستوفر . أ. هول[1] . يمدنا بعدد من المبادئ التفسيرية التي من النافع للقارئ الحديث أن يُلِّم بها :

١ ـ أقرأ الكتاب ككل لا يتجزأ

إن الآباء يؤكدون على أن رواية الكتاب هي رواية مستمرة الأحداث، هي قصة وطيدة الصلة أجزاؤها ببعض من سفر التكوين حتى الرؤيا. وليس العهد القديم بمنقطع عن الجديد ولا بمنفصل عنه. بالحرى فإن الموضوعات الأساسية التي يحتويها العهد القديم تتحقق وتكمل في البنية الروائية في العهد الجديد. إن الاستمرارية وكمال الأحداث وتتميمها تميز القصة الكاملة للكتاب. والأهم من ذلك كله، أن الآباء يؤكدون على أن الرواية الكتابية تبلغ ذروتها، وقمة كمالها بالتجسد الإلهي والصلب وقيامة ابن الله، وفي الحقيقة فإن الأحداث التجسدية والخلاصية والاخروية للعهد الجديد تعمق وتؤكد شهادة العهد القديم نفسها. وسوف نقرأ الكتاب بشكل لا فعالية فيه وغير صحيح . هكذا يحذرنا الآباء . إن نحن فشلنا في قراءة أجزاءه المنفردة على ضوء رسالته المتكاملة الموحدة والتي تبلغ قصدها ومنتهاها في الأحداث التي ذكرناها. وفيما له صدى لهذا الأمر، فإن الباحث روبرت. و. جينسون يؤكد:

أن كل الكتاب بكل ما فيه من امتدادات وعمق وتنوع وأدبيات متباينة إنما نقرأها كحركة متتابعة متتالية لنفس القصة. لهذا مثلاً، فإن أهم مهمة للكارز الذي يدرس ، على سبيل المثال: فصل من أمثال الرب ، هي أن يسأل ما معنى أن يخبرنا يسوع بهذا المثل، وأن الشخص الذي أخبرنا بهذا المثل هو الرب القائم رب الجميع وأن إسرائيل هم الذين سمعوا وآمنوا ولم يؤمنوا وأن الكنيسة هي التي تعيد إخبارنا بهذا المثل[2] .

1- Christopher A. Hall , Reading Scripture with the Church Fathers,Inter Varisty Press 1998 by Christopher A. Hall, pp191-199

2- Robert W.Jenson , " Hermeneutics and the Life of the Church ", in reclaiming the Bible for the Church, ed. Braaten and Jenson,p.97



وليس أي من هذه الكلمات الأساسية: يسوع . إسرائيل . الكنيسة . يمكن تفسيرها بمعزل عن وضعها ومكانها في الرواية الكتابية حيث تبلغ ذروتها في السر مثلما يعرضها كُتَّاب الوحي. فهي تستمد معانيها في إطار القصة ذاتها. هكذا فإن ألفاظ رئيسية مثل إسرائيل سوف تتنافى في مغزاها وأهمية معناها كلما تعمقنا في القصة واقتربنا من ذروتها ونهايتها.

إذاً يتضمن علم التفسير أكثر من مجرد اكتشاف أو سبر أغوار قصد الكاتب. إن له مهمة أكبر وأشمل، مهمة قراءة النصوص ضمن الكتاب ككل وداخل البنية التي تحوي الموضوع الرئيسي. وهي في حقيقتها بنية تقوم على أساس خريستولوجي (الإيمان المستقيم بشخص وطبيعة المسيح). إن الخطأ في التفسير قد يحدث وهذا أمر لا مفر منه إذا كانت الأجزاء الأولى من النص قد تمت قراءتها بمعزل عن النصوص أو الإصحاحات الأخيرة للقصة.

إن المفسرين الغنوسيين مثل ماركيون مثلاً، يقرأون العهد الجديد بطريقة منحرفة ومضللة، لأنهم رفضوا أساس الرواية الكتابية الممتد في أعماق العهد القديم فلا يمكن فِهم العهد الجديد بمعزل عن القديم. ومن ثم فإن العهد الجديد بدوره يلقي بضوء جديد على القديم، فيخرج من جوفه جُدداً وعتقاً من كنوزه الدفينة في نصوصه.

٢- إقرأ الكتاب خريستولوجياً أي على ضوء الإيمان المستقيم بشخص وطبيعة عمل المسيح

كل الآباء يقرأون الكتاب من خلال منظور تجسد المسيح وصلبه وقيامته وصعوده. وبإجماع الآراء "يتمسكون بأن العهد القديم بكامله وخاصة المزامير على وجه الدقة هو في مجمله خريستولوجي"[1] مثلما يعلمنا إيرينيوس:

إن كان المرء يقرأ الكتاب المقدسة باهتمام، فإنه سوف يجد هناك الكلمة حول شخص المسيح والتصور المسبق للدعوة الجديدة. إنه في الحقيقة ذلك الكنز الدفين المخبأ في الحقل، والحقل في الحقيقة هو العالم. ولكن في الحقيقة، فإن الكنز المخبأ في

1- Berrand de Margerie, an Introduction to the History of Exegesis, vol.2, the Latin Fathers (Petersham, Mass: Saint Bedes Publications,1995),p.54

الكتب المقدسة هو المسيح. لأنه يشار إليه بالرموز والكلمات التي يستحيل فهمها بشرياً قبل تمام كل شيء وتحقيقه أي قبل مجئ المسيح [1].

أما القديس هيلاري أسقف بوايتيه حوالي عام ٣٥٠م، فيرى المسيح وقد تم تصويره بالعديد من الصور في نصوص العهد القديم ومضمون معانيه وسياق أحداثه.

كل جزء من الكتاب المقدس يعلن من خلال الكلمات مجيء ربنا يسوع المسيح، ويكشف بالحقائق ويؤسس بالأمثلة لهذا المجيء... لأنه هو ربنا الذي خلال الزمن الحاضر، ومن خلال أحداث لها دلالاتها ظاهرة وحقيقية، يولد ويطهر ويقدس ويختار ويعزل أو يفتدي الكنيسة في الآباء البطاركة، من خلال سبات آدم وطوفان نوح وبركة ملكيصاداق وبر إبراهيم وميلاد إسحق وأسر يعقوب [2].

ولندرس هنا في التفسير التالي كيف يربط هيلاري معاً: خلقة آدم من التراب تراب الأرض، ورؤية حزقيال للعظام اليابسة التي عادت إلى الحياة وقيامة المسيح من الأموات:

بعد أن خمدت آلامه وعند يقظة قيامته أدرك آدم السماوي في الكنيسة عظامة ولحمه التي لم تعد تتكون بعد من طين الأرض ولا عادت تحيا وتقوم بنسمة حياة، بل نمت عظاماً وأخذت جسداً واكتست لحماً من هذا الجسد ونمت وبلغت قامتها بحلول الروح... لأن أولئك الذين هم في المسيح سيقومون حسب المسيح، الذين فيهم الآن أيضاً قيامة كل الجسد قد تمت، لأنه هو أيضاً مولود بحسب الجسد جسدنا بقوة الله، الذي ولده أبوه الآب قبل بدء الدهور [3].

وعند الوهلة الأولى نجد أن العلاقات التي رسمها هيلاري محيرة بعض الشئ. فحين يتذكر أن قراءة للكتاب تسير بإرشاد الركيزة الخريستولوجية الأساسية والأحداث الخلاصية، يظهر تفسيره حياً معاشاً وزاخراً بالبصيرة والرؤية الثاقبة حقاً، إن المطران تيمياديس يسأل: ما الأمر الأكثر طبيعية من تفسير العهد القديم على ضوء

1- Iernaeus Adversus Haereses 4.26.1

2- St. Hilary Traite des Mysteres, I Pref., ed. Brisson, Sc 19 bis (Paris: Editions du Cerf, 1967), PP. 73-75.

3- Ibid, 105, SC 19.



الاستعلان المسيحي؟ لقد كان من الطبيعي لديهم أن يبحثوا في هذه الكتابات كيف كان المسيح حاضراً في كل صفحة باعتباره هو كمال المواعيد التي أعطاها الله لإسرائيل. وبالنسبة لهم، فإن المسيح يسوع كان المفتاح للدخول إلى العهد القديم[1].

إن القواعد التفسيرية للمفسر الدوناتي تايكونيوس، والذي أثر بشكل كبير في فهم أغسطينوس للتفسير الكتابي، إنما توجز جيداً وتوضح كيف سعى المفسرون الأوائل في المسيحية إلى فهم وشرح العلاقة بين نصوص العهدين القديم والجديد[2].

فمثلاً في أول قاعدة تفسيرية له بعنوان "عن الرب وجسده" يزعم تايكونيوس أن الكتاب المقدس لا يفرق بوضوح بين شخص المسيح وجسده الكنيسة، ويعلق الباحث جيرالد براي على تمييز تايكونيوس:

فمثلاً، حينما يتحدث نص (دا ٢: ٣٤) عن الحجر الذي يحطم ممالك العالم، فإنه يتنبأ عن مجئ المسيح، لكنه حين يصبح هذا الحجر جبلاً يملأ الأرض كلها فإن المعنى هنا لا ينصب على المسيح بعد، بل على الكنيسة. إن الكتاب ينتقل من الواحد إلى الآخر دون تردد أو تمييز[3].

أما الباحث برتراند دومرجوري فيمدنا بموجز معين لكيفية قراءة الآباء للعهد القديم قراءة جديدة على ضوء كماله في المسيح وللباحث دومرجوري تقنية أو أسلوب يُعرف باسم "تحديث القراءة من جديد" ضمن إطار تاريخي جديد. وهو يقسم تفسير الآباء للعهد القديم إلى الخطوات التالية :

١- المضمون الأصلي "قد يكون النص الكتابي قد تمت كتابته أصلاً بالإشارة إلى شخص ما، أو ملك أو نبي."

٢- الأقسام التالية من العهد القديم قد "أعادت تفسير" نص ما وصورته أنه نص ذو سمة أسخاتولوجية. أي أُخروية

1- Timiadis, Relevance of the Fathers, P. 56.

2- Gerald Bray, Biblical Interpretation: Pastand Present (Downers Grove, III: Intervarsity Press 1996).

3- Bray, Biblical Interpretation, P. 107.

٣- التفسير اليهودي في زمن يسوع يدفع بالنص خطوة إلى الأمام نحو المفهوم الماسياني.

٤- ويسوع نفسه ربط النص بشخصه هو وعمله.

٥- ثم يعاد قراءة النص على ضوء معرفتنا بالقيامة.

٦- ثم تقرأ الكنيسة النص كشارح لمزيد من الإضافات التي توضح شخص وعمل المسيح القائم من الأموات.

٧- إن كانت هناك حاجة إلى استعمال النص لأغراض دفاعية، فإن الكنيسة تفعل ذلك، خاصة في جدلها مع المفسرين اليهود الذين فشلوا في رؤية العهد القديم متحققاً في المسيح.

٨- ولما كان يُنظر للكنيسة على أنها استمرار للمسيح على الأرض، باعتبارها جسد المسيح فإن النص سوف يُقرأ على ضوء علاقته بالكنيسة وجماعة المؤمنين فيها[1].

ومن الواضح، مثلما يشير الباحث دومرجوري أن بعض الخطوات قد تم إنجازها من قبل الآباء فالرسول بولس مثلاً كان قد قرأ فعلاً العديد من نصوص العهد القديم على ضوء التجسد والصلب وقيامة يسوع. إن الآباء في تفسيرهم قد أخذوا على عاتقهم دائماً إعادة قراءة النصوص الإلهية الموحي بها بالنسبة لنصوصهم الكتابية الأولى المبكرة[2]. إن إعادة قراءة الآباء والتي أرشدهم إليها بولس الرسول وباقي المفسرين الرسوليين والذين قادونا إلى المبدأ الآبائي الثالث للتفسير.

٣- أقرأ الكتاب المقدس داخل الكنيسة جسد المسيح ومجتمع الشركة

مثلما عرفنا من خلال ما قُلناه، فقد أكد الآباء أن التفسير هو مهمة كنسية فهو يحدث في الكنيسة ولمنفعة الكنيسة. وهم يسألون هل يمكن أن تكون الأمور غير ذلك؟ إن الوعي بطبيعة الشركة للتفسير قد تم تسليط الضوء عليه بصفة خاصة في

1- De Margerie, Introduction to the History of Exegesis, 2:3.

2- Ibid.



محيط الكنيسة الأولى في صفوف الغنوسيين أولئك المفسرون وحدهم الذين زعموا أنهم نالوا سر هذه الموهبة في الإعلان وفي التفسير كبصيرة لا يعرفها غيرهم.

وكان القديس إيرينيوس أكثر المعارضين للغنوسيين، قد رفض إمكانية هذا الزعم بالإعلان والتفسير السري لأن المعنى المقصود من شخص يسوع والرواية عنه التي أدت إلى مجيئه يمكن كشفها فقط وشرحها في داخل المجتمع الذي أسسها، ذلك المجتمع الذي يستمد وجوده الفعلي من الخطة والبنية التي يرويها الكتاب المقدس نفسه. ومثلما يشرح الباحث روبرت جنسون "أن الكنيسة هي التي تعرف خطة وجودها وقيامها وتعرف شخوص ودراما الرواية الكتابية، فالكنيسة هي مجتمع متصل مع أبطال القصة ورواتها، مثلما هي مع كل كُتاب الوحي وجامعيه [1]

ومثلما تتأمل الكنيسة جيداً رسالة الإنجيل وعلاقتها برواية العهد القديم، فقد صاغت قاعدة الإيمان وهي نوع من الإيجاز الشديد لقلب الرسالة المسيحية، لتساعد أعضائها على فهم قلب المعتقد المسيحي وليقرأوا الكتاب نفسه جيداً. ويبدو وكأن الآباء يملكون وعياً داخلياً بميل المؤمنين فرداً فرداً خاصة أولئك الذين هم صغار في الإيمان، والذين يرتبطون بالموضوعات الأساسية الأقل أهمية وبالموضوعات الثانوية (الطرفية إن جاز التعبير)، ولهذا حين لخصوا الإنجيل فيما يسمى بقاعدة الإيمان، فقد قصدوا التركيز على الثوابت الغير قابلة ولا خاضعة للتفاوض، وهي تلك الحقائق التي على كل المسيحيين الإيمان بها إن كانوا يريدون فعلاً وحقاً حمل اسم المسيح.

و بالتالي بالنسبة للآباء، علم وقواعد التفسير الكتابي ليس علماً موضوعياً، يمكن ممارسته بواسطة أي باحث داخل أي مضمون . بالحري فإن علم التفسير الكتابي قد أصبح في المسيح عملاً روحياً يتسم بعمق الشركة والموهبة التفسيرية ويمكن ممارسته بأمان وحكمة وفعالية فقط بواسطة أولئك الذين انغمرت عقولهم وقلوبهم وتشكلت بالإنجيل نفسه، في داخل المجتمع الكنسي مجتمع الشركة والتأمل والتكريس والعبادة وبحسب رأي برفارد تشايلدز:

يعني هذا أن التفسير السليم لا يستوجب البدء أولاً بقراءة موضوعية خالصة أو

1- Jensn, "Hermenevtics and the Life of the Church", PP. 97-98.



حيادية يضاف إليها فيما بعد عنصر الإيمان بل بالحرى ومنذ البداية ينال القارئ المسيحي نقطة خاصة من الاستعداد من خلالها يتماهي هو نفسه مع الإيمان الرسولي ويتوحد في انتظار كلمة جديدة من الله بالروح القدس[١]

إن المفسرين الآباء قد أنجزوا مهمتهم في الكنيسة ولخير الكنيسة، وهي فكرة تبدو غريبة على أذهان العديد من الدارسين المعاصرين الذين يمارسون عملهم في الأكاديميات الدراسية، وأساساً لصالح هذه المحافل الدراسية الأكاديمية. لهذا، كما يقول تشايلدز "فإن التحدي الذي يواجهونه بزعم أن ما يفعلونه هو لصالح الكنيسة يبدو مستحيلاً، خاصة إذا كانت خطتهم الأكاديمية في الدراسة تسير في الاتجاه المعاكس تماماً[٢] .

٤ ـ أقرأ الكتاب ضمن حياة الصلاة والعبادة والممارسات الروحية :

إن الذين يقرأون الآباء لأول مرة يحتاجون إلى إدراك. ما يمكن للآباء أن يقدموه لهم وما لا يمكن أن يقدموه في تفسيرهم للكتاب. إن للمفسرين الآباء أدوات قليلة لغوية وتاريخية ولاهوتية تتاح لهم في دراستهم للكتاب أقل كثيراً من تلك الأدوات التي توفرت للمفسرين المحدثين. أن الطلاب الذين يأتون إلى التفسير الآبائي ويتوقعون أن يصادفوا تفسيراً حديثاً سوف يتصرفون وقد أصابهم اليأس.

ومع ذلك يمدنا التفسير الآبائي بأساس لا غنى عنه وبعون حيوي بالغ للعديد من طرق التفسير الحديث. إن تأكيد الآباء على العلاقة بين الصحة الروحية، والحياة في الكنيسة، والتفسير لكُتَّاب الكنيسة يخزي الاتجاه والميل المعاصر لفصل الدراسة الكتابية عن الروحانية والعبادة. إن المطران يتمياديس يقر بحاجتنا إلى الدراسة النقدية الحديثة، لكنه يقول ويؤكد بشدة أن التفسير ليس هو الامتياز الوحيد للأكاديمي المعاصر.

إن للتفسير العديد من الملامح الأخرى ، فالآباء يساعدوننا بشكل كبير ومذهل في العثور على المقابل لهذا الفراغ والفقر الروحي الذي تعانيه معظم التفاسير الحديثة والتي

1- Childs, " on Reclaimming the Bible", P. 10.

2- Ibid, P. 17.



تحت زعم الظهور في هيئة وشكل علمي ونقدي صارم وتاريخي مدقق تتجاوز وتهمل البُعد الأساسي لخلاصنا في الكتاب المقدس. إننا اليوم على بُعد عشرين قرناً تقريباً من الكُتَّاب العهد الجديد، لكن الآباء كانوا الأكثر قرباً منهم. وأكثر قرباً من الأحداث الجارية وأكثر قدرة وفهماً على اقتناص الروح الكامن خلف سجلات الكتاب[1].

وكما لوحظ في نهاية الفصل الثاني، فإن قرب الآباء تفسيرياً وتاريخياً من كنيسة العهد الجديد وتقليدها الرسولي يتطلب أن ننصت باهتمام لرؤاهم التفسيرية ونصحهم وبصيرتهم وحدسهم. إن الموسيقا التي يسمعونها كلما أنصتوا إلى كُتَّاب الوحي الإلهي تختلف غالباً عن الأنغام والألحان التي يتمتع بها الدراسون المعاصرون. إنها تحوي ملاحظات ونماذج وهرمونيات متناغمة وحركات لا تسمعها الأذن الصماء الحديثة.

هم أكثر قدرة واعتياداً على إدراك واقتناص الأفكار الرئيسية وتحدي المعنى الحقيقي للموضوعات الأساسية للعهد الجديد أكثر من الكُتَّاب المعاصرين المدربين في مدرسة البنيوية أو النقد العقلاني، حيث يأخذ تفكيرهم منحى مختلفاً في أمور بعيدة تحركها عقلية مختلفة تماماً. وبالطبع، فإننا لا نقترح استثناء التفسير النقدي، وليس هناك ضرر في قبول منهج ما كمدخل يقترب من الكتاب المقدس لكن من الأهمية بمكان إدراك أن التفسير الآبائي يقدم لنا تصحيحاً لا غنى عنه، يحمل في طياته حدساً مستقيماً وفهماً عميقاً لمعنى النص الكتابي[2].

وتقريباً، فإن كل الآباء كانوا رعاة في الكنيسة، والعديد منهم كانوا أساقفة، وكقادة للكنيسة لم يتوفر لهم ترف الدراسة الكتابية الأكاديمية كتمرين أكاديمي. وقد تم وتحقق عملهم التفسيري في إطار تجهيز وتحضير العظات أو تعليم الموعوظين.

وكلما كانوا يقرأون نصاً ما كانوا يسألون أنفسهم، ما هي كلمة المسيح لجماعة ، لكنيسة عندي في هذا الشأن؟ وكيف يمكن كراع لقطيعي أن أرعاه بفاعلية أكبر من خلال كرازتي ووعظي بهذا النص الذي يدعوني ويدعو شعبي إلى الإنصات إليه، وكيف يخاطب هذا النص قلبي وعقلي؟ وأين أو إلى أين دعوة هذا النص يقودني إلى

1- Timiadis, Relevance of the Fathers, PP. 55-56.

2- Ibid, P.56.



الاستماع؟ أو إلى التغيير؟ أو إلى التوبة؟ أو إلى النمو الروحي؟

إن قلب الراعي الذي ينعكس في الأدب الآبائي ويبقى غنياً وثرياً ودفيناً لم يكشفه أحد بعد كحقل دفين على الرعاة والمعلمين سبر أغواره. ولأن الآباء كانوا مؤسسين جداً على الرواية الكتابية ومضامينها، وتداعياتها للصحة الروحية. فقد رفضوا السماح لطلابهم أن يتعاملوا مع النصوص الكتابية بشكل مجرد كأمر مطلق، أو كمثير أو محفظ عقلي لا علاقة له بالدعوة اليومية للاقتداء بالمسيح بالقول والفعل.

تأمل مثلاً، جهاد أغسطينوس مع الكتاب المقدس، وهو شاب صغير لا يزال في مهد الإزدهار فكرياً. لقد أراد أن يدرس الكتاب ولكن وهو بعد بعيد عنه، وفي كتابه الشهير اعترافاتي يربط أغسطينوس موقفه الشكوكي نحو الكتاب المقدس بكبريائه لقد كانت (أي الكتب المقدسة) تتمتع بطبيعة النمو في صغاركم. لكنني لم أحتمل فكرة أن أكون صغيراً، لقد كنت منتفخاً بالكبرياء، وكنت في نظر نفسي رجلاً كبيراً عظيماً وفي عظة أخرى تالية يتذكر هذه النظرة المنحرفة كشاب صغير.

أنا الذي يتحدث إليكم، كنت مخدوعاً في الماضي إذ وأنا بعد طفل، حاولت أن أطبق منهج النقد للكتب الإلهية بدلاً من أن أدرسها في تقوى وبسبب أخلاقي المنحلة، أغلقت كل حواسي عن الاقتراب من الرب... وفي كبريائي تجاسرت أن أطلب ما لا يمكن أن يطلبه الإنسان إلا إذا مارس الاتضاع أولاً [1].

ويلاحظ الباحث برتراند دومارجيري أيضاً في كتاب "الإيمان النافع والعامل" والمكتوب قبل "الاعترافات" بسنوات عدة، إن تجميع أغسطينوس لقراءة الكتاب المقدس بطريقة خاطئة ظل محفوراً في ذاكرته.

نحن صفوة الشباب المفكر والباحثين النابهين العقلاء، لم نكن دائماً نفتح هذه الكتب. دون البحث عن معلمين، دون حتى أن نتهم أنفسنا لغباوتنا وحتى دون أن نفهم ولو لأقل حد هؤلاء الرجال الذين أرادوا منذ زمن طويل لنا أن نقرأ وأن نفحص ونتعمق في عالمهم كله، وظننا أنهم غير جديرين بثقتنا فيهم وكان هذا الرأي فينا بسبب كلمات أولئك الذين كانوا أعداءً وخصوماً لهم لأناس كان من الأحرى بنا

1- Augustine Serno 51, 4-5 (PL 38, 336).



ألا نقدرهم ونؤمن بهم تحت الزعم الباطل والتظاهر بالتعقل والتفكير وهم يتسترون على آلاف الأكاذيب والخداع[1]

ومنذ تحولت إلى دعوته وإلى خدمته الكهنوتية وحتى نهاية حياته، كان أغسطينوس يصر على العلاقة الوطيدة التي لا تنفصم بين معرفة الكتب المقدسة وشركة الإيمان والاتضاع والصلاة الدائمة طلباً للإرشاد والمعونة في تفسير الكتاب.

وهناك رسالة كتبها إلى أسقفة فاليروس، كُتبت بعد رسامته بفترة وجيزة يكشف جيداً عن تحوله الدرامي في آرائه، لقد كان يقرأ الكتاب بوضوح وبعينين جديدتين وبموقف جديد، وتلاشى كبرياؤه وثقته بذاته.

كان عليَّ أن أدرس كل علاجاتي في الكتب المقدسة وبالصلاة مع القراءة حتى يهبني القوة لكافية على أداء مثل هذه الواجبات الصعبة، التي لا تقوى عليها نفسي. لم أكن أقوى على فعل ذلك من قبل. إذ كان يعوزني الوقت، لكن ما أن تمت رسامتي حتى عزمت أن أخصص كل وقت فراغي في دراسة الكتب المقدسة... فأعينوني... بصلواتكم ... أنا أعرف أن الرب لا يزدري بمحبة الصلوات في هذه الحالة، بل يقبلها كذبيحة حلوة وهو سوف يستعيدني في زمن أقل مما طلبت منه، متسلحاً بالمعرفة المخلصة (الخلاصية) من الكتب المقدسة[2].

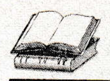
وحذر أوريجينوس أيضاً ضد المدخل المضلل للتفسير، خشية أن تتسبب الألفة مع الكتب المقدسة في زرع الكبرياء وتوالدة الأمر الذي يشتت قدرة الإنسان على قراءة الكتاب جيداً. فلنحذر أيضاً ونحن قريبون دائماً من بئر الماء الحي... لهذا نحن في حاجة إلى دموع كثيرة وصلوات بلا انقطاع ليفتح الرب عيوننا.

لكن لماذا استخدم هذا المجاز أعني فتح عيوننا؟ وهي مفتوحة أصلاً. لأن يسوع قد جاء ونزل ليفتح عين الأعمى ولينزع عنها برقع الناموس[3]، ولنتأمل أيضاً نصح جيروم إلى راهب رستيكوس: "اجعل قلايتك فردوسك، وأجمع فيها كل ثمار

1- Augustine De utilitale credenda 613.

2- Augustine, Epistle 21 to Bishop Valerius, Par. 3ff, PL33,88.

3- Origen Homily on Genesis 7.6.



الكتاب المقدس، ابتهج افرح بهذه الكتب المقدسة، وأنعم بالعلاقة الحميمة معها. لا ترفع يدك ولا عينيك أبداً عن كتابك، إدرس وتعلم مزامير كلمة كلمة، صَلِّ بلا انقطاع"[1]. تأملوا ملياً أيضاً مشورة جيروم إلى ألصق صديقين له: "إن كان هناك أي شئ، يا بولا ويا أستوخيوم، يمكنه هنا أن يحفظنا ويثبت نفوسنا متزنة راسخة، وسط اضطرابات وقلاقل هذا العالم، فإني اعتقد أنه أولاً وقبل كل شئ التأمل في معرفة الكتب المقدسة"[2]

ويعرض القديس إمبروسيوس أيضاً بصيرته العميقة عن العلاقة بين حالة قلبه وقدرته على قراءة الكتاب المقدس جيداً في الصلاة الموجودة بالقرب من تفسيره لمزمور ١١٨، ١١٩ في السبعينية، إن الآية الأخيرة من المزمور هي صلاة للرب لطلب المرنم الذي تاه بعيداً "ظللت كشاه ضالة أطلب عبدك، لأني لم أنس وصاياك" (آية ١٧٦)، ويصلي إمبروسيوس كرد فعل:

تعال أيها الرب يسوع، لتطلب عبدك، لتبحث عن الغنمة الضالة. تعال أيها الراعي وأبحث عني مثلما بحث يوسف عن أخوته (تك ٣٧: ١٦)، لقد ضل خروفك بعيداً، بينما كنت تمكث في الجبال. أترك هناك التسعة والتسعين خروفاً وتعال أطلب الخروف الضال. تعال بدون الكلاب، بدون العمال الأردياء، بدون الأجراء الغرباء الذين لا يدخلون من الباب.

تعال دون أن يساعدك أحد أو يلاحظك أحد. لقد انتظرت وصولك طويلاً، أعرف أنك ستأتي لأنني لم أنسى وصاياك، تعال ليس بسوط بل بمحبة ورقة قلب. تعال إليَّ لأنني متعب، ومضطرب من غارات الذئاب الضاربة، تعال إليَّ لأنني طردت من الفردوس. لقد تهت بعيداً عن القطيع الذي يرعى على المرتفعات. لقد وضعتني هناك، لكن الذئب الذي كان يحوم ويعوي ليلاً أبعدني عن القطيع الرابض في الحظيرة. تعال وأطلبني واعتن بي لأنني أنا أيضاً أطلبك، أبحث عني، جدني، ضمني إليك، أحملني... فأنت تقدر أن تجد من تطلبه، وتحب أن ترحب بمن تجده،

1- St. Jerome, Epistle 125, 7.3, 11.1.

2- St. Jerome, Prologue to the Conentary on the Letter to the Ephesians, PL 26. 439.



وأن تضعه على كتفيك، تعال بنفسك لتطلب خرافك وغنم مرعاتك، عوض أن ترسل خدامك أو أجراءك يبحثون عني... أجذبني إليك في هذا الجسد الذي فشل في آدم، وأجذبني إليك ليس من سارة، بل من مريم، أحملني على صليبك الذي هو خلاص الهالكين والراحة الوحيدة للمبعثين، على صليبك الذي كل من يموت يحيا به من جديد[1].

وهذه الاقتباسات المطولة من أغسطينوس وأوريجينوس وجيروم وأمبروسيوس يمكن أن تساعدنا على أن ندخل بعمق أكثر إلى داخل قلوبكم... وربما بالإنصات إلى قلوبهم يمكننا أن نتعلم كيف نثق بهم، بل وأن نحبهم.

ويقترح الباحث مايكل كيزي أن أحدى طرق التغلب على مصاعب التواصل التي نختبرها عند لقائنا بالآباء هي أن نصبح منخرطين عاطفياً، مع أحد شخوص الكنيسة القديمة. وقد يؤدي بنا هنا إلى قراءة سيرة حياة يمكن أن تساعد على إحياء هذا الشخص إن قراءة الرسائل هي طريقة أخرى لنعتاد على شخص ما ونتآلف معه[2].

1- St. Anbrose, Expositio in Ps. 118, Serma 22.28 -30, PL 15, 1520-1521.

2- Michael Casey, Sacred Reading: the Ancient Art of Lectio Divina (Liguori, Mo: Triumph Books, 1996), P. 113.



القديس كيرلس الأسكندري هو من أعظم رموز الفكر المسيحي في القرون الأولى. فكتاباته مملأ عشرة مجلدات ضخمة من مجموعة Mi-gne اليونانية: مجلدات من 68 إلى PG 77. وتتميز كتابات القديس كيرلس بالعمق وثراء الأفكار، والدقة والوضوح في النقاش مما يثبت موهبته التأملية والجدلية، ومما يجعل من كتاباته مصادر من الدرجة الأولى في الأهمية لتاريخ العقيدة والتعليم الإيماني. ودرج علماء الآباء على تقسيم كتابات القديس كيرلس إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى: تنتهي بظهور البدعة النسطورية سنة ٤٢٨ م، وهذه المرحلة كانت مكرسة لتفسير أسفار الكتاب المقدس بعهديه، والدفاع عن الإيمان ضد البدعة الأريوسية.

المرحلة الثانية: تبدأ من سنة ٤٢٨ م بظهور البدعة النسطورية وتنتهي بنياحة القديس كيرلس، ومعظم كتابات هذه المرحلة مكرسة للدفاع عن التعليم الصحيح في التجسد، ضد البدعة النسطورية.

يُطلب هذا الكتاب من:

• georgeibrahim2257@yahoo.com

سعر النسخة

٣٤,٠٠ جنيه